

ارتياض العلوم



مشاري بن سعد بن عبد الله الشثري

www.albayan.co.uk


ارتياض العلوم



مشاري بن سعد بن عبد الله الشثري

مجلة البيان، ١٤٣٧هـ

ح) فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشثري، مشاري سعد عبدالله

لرتياض العلوم./ مشاري سعد عبدالله الشثري، الرياض، ١٤٣٧هـ

ص ٢٥٨؛ ١٥× ٢٢ سم

ردمك: ٦ - ٠٢ - ٨١٩١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الإسلام والعلم ٢ - الأخلاق الإسلامية

٣ - الوعظ والإرشاد أ. العنوان

ديوي ٢١٩,٧ ١٤٣٧/٣٧٧٢

الطبعة الأولى

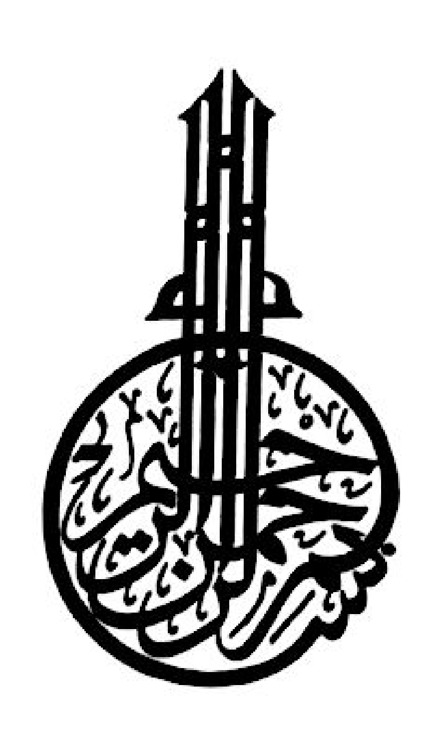
جمادى الأولى ١٤٣٧هـ

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٣٧٧٢

ردمك: ٦ - ٠٢ - ٨١٩١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

طبعت في




بسم الله الرحمن الرحيم



إهداءٌ

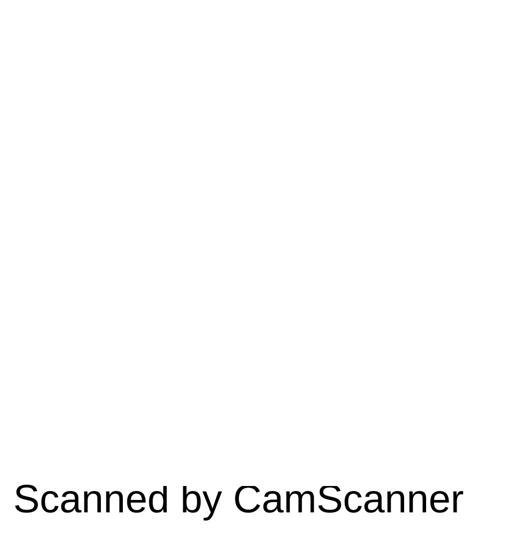
إلى الَّتي ترقُبُ بصمتٍ كلَّ ليلةٍ مصباحَ المكتبة

ترجو سرعةَ انطفائه

فينطفئُ حينًا .. وتسبقُه عيناها أحيانًا

مشفوعًا بوعدِ الحق من الإله الحق

(إنَّما يُوفَّى الصَّابرون أجرَهم بغير حساب)



الفهرس



عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَ صَفْوَانُ بْنُ عَسَّالٍ الْمُرَادِيُّ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ مُتَّكِئٌ عَلَى بُرْدٍ لَهُ أَحْمَرَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي جِئْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ، فَقَالَ:

«مَرْحَبًا بِطَالِبِ الْعِلْمِ .. إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ لَتَحُفُّهُ الْمَلَائِكَةُ، وَتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغُوا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ حُبِّهِمْ لِمَا يَطْلُبُ».

أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْمُعْجَمِ الْكَبِيرِ» (٧٣٤٧).

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبينا محمَّدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين .. أمَّا بعدُ:

فلا يفتقرُ كثيرٌ من طلبة العلم إلى برنامجٍ يُنظِّمُ مسيرَهم، أو خطَّةٍ تُدرِّجُ تلقِّيَهم، غيرَ أنَّ الصناعةَ العلميَّةَ ليست متعلقةً بذلك فحسب، بل هي مرتَـهَنَةٌ قبل ذلك بسدادٍ بصيرة طالب العلم وارتياضِ ملكاته بالعلوم والمعارف، فإنَّ سدادَ البصيرة وارتياضَ الملكات ذريعةٌ إلى تحقيقِ العلم وحُسنِ التصرُّف فيه .. وحسنُ التصرُّفِ في العلم هو إكسيرُ التحقيق وجوهرُ الصناعة العلميَّة.

ولأنَّ العلمَ بتنوُّعِ أبحاثه وتشعُّبِ مسائله يحتاجُ من طالبه ليرتاضَ به أن يكونَ واعيًا في تحصيله قبل أن يخطوَ بأقدام مشاريعه بعيدًا على غير هدًى من الرأي وبيِّنةٍ من الأمر، فقد توجَّهتُ بسانحِ خاطري وبارحِه إلى تصفُّحِ جملةٍ من علائق الوعي التحصيلي، بعيدًا عن الإغراق في رسوم الخطط ومباني البرامج،

فجاءت فصولُ هذا الكتاب ناظمةً ما هداني إليه التأمُّلُ في هذا الباب، ودلّتني عليه المطالعةُ، وساعفتني به يدُ المباحثة، مصدَّرةً بالحبِّ، مختومةً بالنَّفعِ، مضمَّنَةً القولَ في متعلَّقات التحصيل العلمي، من النظر في وسائل العلم، وغاياته، وأجناسه، ومدارج تحصيله، بما يمثِّلُ مجموعةً مقدِّمةً في الوعي، ومبتدأً لـ «ارتياض العلوم» .. كتبتُها مذكِّرًا بها نفسي، مُذاكِرًا بها إخواني من طلبة العلم، رجاءَ الظَّفَرِ بما يحصُلُ به للنَّفسِ ارتياح، وللعقل ارتيَاض.

ثمَّ إنَّ الحديثَ عن العلم والتحصيل لا بُدَّ وأن يكون متداخلَ الأسبابِ متواشجَ الأنسابِ، فليس من فصول هذا الكتاب فصلٌ إلَّا وقد يدخلُهُ نُتَفٌ من فصولٍ أُخَرَ على قَدرِ ما بينها من سَبَبٍ وانتِسَابٍ، وإنِّي لأرجو أن تعمَّ بذلك جدواه، وينكشفَ مغزاه، ويكونَ القارئُ به أشدَّ انتفاعًا.

هذا، و(قد تلطَّفتُ إلى قلبِكَ بحثِّي إيَّاكَ على حَظِّكَ من فنونٍ من القول، وضروبٍ من الوصايا، وأرجو أن يكونَ صوابي عندكَ فيها متقبَّلًا، وخَطَئي فيها عندكَ مُتَأَوَّلًا، لا لأنِّي أهلٌ لذلك، ولكنْ لأنَّكَ حقيقٌ به، وله خليق)[1] .. واللهُ وحدَه المؤمَّلُ، وهو المستعانُ، وعليه التُّكلانُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا به.

مشاري بن سعد بن عبد الله الشثري

Meshari.s.sh3@hotmail.com

@m_alshathri

---

(١) اقتباسٌ من مقدمة أبي حيان لـ «البصائر والذخائر» (١ : ٩).

حب العلم

«أَكْثَرُ طُلَّابِ العِلْمِ يَطْلُبُونَهُ مَحَبَّةً»

ابن تيميَّة (٧٢٨هـ)



عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ؟

قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟».

قَالَ: حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ.

قَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ».

أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٣٦٨٨) ومُسْلِمٌ (٢٦٩٣) فِي «صَحِيحَيْهِمَا».

(١)

لا شيءَ يَحفِزُ على طلب العلم بعدَ ابتغاءِ مرضاة الله تعالى، وتلمُّحِ ما أعدَّه سبحانه لأهل العلم وطلبته في الآخرة = مثلُ ترويض النفس على حُبِّ العلمِ والرغبةِ فيه، ولا أعونَ على الإقبال عليه من امتلاءِ القلب والْتياعِهِ شوقًا له، وتحرُّكِ الحواس واضطرابِها من فَرْط الشهوة في طلبه.

وكلُّ حركةٍ في العالم فإنَّما يبعثها الحبُّ، فهو (أصلُ كلِّ حركةٍ في العالم) كما يقرِّرُ ابن تيميَّة (٧٢٨هـ)[١]، ويتلقَّى ذلك عنه تلميذُه وصفيُّه ابنُ القيِّم (٧٥١هـ)، ويبيِّن أن (الحب والإرادة أصلُ كلِّ فعلٍ ومبدؤُه)[٢].

---

(١) قاله في مواضعَ، منها: الاستقامة (١: ٤٥٦).

(٢) روضة المحبِّين (٩٣).

ومع أنَّ هذا شأنُ الموجوداتِ كلِّها، إلَّا أنَّه في العلم أمكنُ وأعمقُ أثرًا، وذلك أنَّ حبَّ الشيء يُحرِّكُ النَّفسَ ضرورةً إلى العلم به، وكلَّما ازداد حبُّ المرء للشيء نزعتْ نفسُه إلى مزيدٍ من العلم به، لأنَّ العلمَ هو الذي يسوق إلى المحبوب، وهو الذي يُعبِّد الطريقَ للوصول إليه، أمَّا لو خلا القلب عن حب الشيء فلن تقوم بصاحبه الحاجةُ إلى أن يعلمَ أوصافَه وعلائقَه ولا ما يُدنيه منه، ولن يشتعلَ في وجدانه من الشوق ما يُحرِّكه تجاهه.

وإذا كانت النَّفسُ تُقبِلُ على العلم بما تكرهه لتكون على بَصَرٍ بمفسدته فتسعى بعد ذلك في اتقائه، فإنَّها تكون أعظمَ إقبالًا على ما تحبُّه ابتغاءَ مصلحته ولذَّته، لأنَّ انسياقَ النَّفس إلى مصالحها ولذَّاتها أطوَعُ لطبْعها وأسْمَحُ لطلبها.

ثمَّ إنَّ الرغبةَ في العلم ومحبتَه فوقَ كونِها حافزةً على طلبه، فإنَّها تكادُ تكونُ شرطًا في تحصيلِه والتَّحَقُّقِ به، ولن يبلغَ الطالبُ من العلم حقائقَه وأسرارَه حتى تكون (الكلمةُ الحسناءُ أشرفَ عنده من الجارية العذراء، والمعنى المقوَّمُ أحبَّ إليه من المال المكوَّم)[1].

وأنتَ حين تقلِّب طرفك في كتب السير والتراجم فإنَّك خارجٌ لا محالةَ بشيءٍ يَقرَعُ سمعَك أشبهَ بهاتفٍ ينادي: **إنَّك لن تكونَ عالـمًا حتى يصيرَ العلمُ شهوةً من شهواتك.**

وقد كنتُ كتبتُ ذلك قديمًا وأنا على وَجَلٍ من صدق هذا الهاتف، لأنَّ المرءَ ربَّما كان عالـمًا وهو لا يجد من لذَّة العلم وشهوته إلا النَّزْرَ اليسيرَ،

---

(١) الهوامل والشوامل - أبو حيان (٣٧).

وإنَّما حَسْبُه منه المجاهدةُ والمصابرةُ على لَأْوائه في سبيل تحصيل منافعه دون أن يذوقَ ما يغني من عُسيلَتِه، ثم إني رأيتُ ابنَ القيم (٧٥١هـ) يقرِّرُ ما هو أشدُّ من ذلك، وأنَّ المرءَ لن يكونَ عالـمًا حتى تقومَ فيه شهوة العلم، وتكونَ - زيادةً على ذلك - غالبةً على شهواته الأخرى، فـ (من لم تَغلِبْ لذَّةُ إدراكِه للعلم وشهوتُه على لذَّةِ جسمِه وشهوةِ نفسِه = لم يَنَلْ درجةَ العلمِ أبدًا، فإذا صارت شهوتُه في العلم ولذَّتُه في إدراكه رُجِيَ له أن يكون من جُملة أهله)[1].

وقال ابن الجوزي (٥٩٧هـ): (ما يتناهى في طلب العلم إلا عاشقُ العلم)[2].

وقال الـمُنَاوي (١٠٣١هـ): (طالبُ العلمِ الـمُتَلذِّذُ بفهمه لا يزالُ يطلبُ ما يزيد الْتِذَاذَهُ، فكلَّما طلبَ ازدادَ لَذَّةً، فهو يطلب نهايةَ اللَّذَّةِ، ولا نهايةَ لها!)[3].

ولذلك، فإنْ جدَّ بك السيرُ في طلب العلم ولم تَجِدْ للعلم لذَّةً تُلامِسُ شَغَافَ قلبك وغِلافَه فخُذْ بوصيَّةِ الحكيمةِ أمِّ سفيان، فإنَّها لما بعثت ابنَها سفيانَ ليطلب العلم قالت له: (اذهبْ، فاطلبِ العلمَ حتى أعُولَكَ بمغزلي هذا، فإذا كتبتَ عِدَّةَ عشرةِ أحاديثَ فانظرْ: هل تجدُ في نفسك زيادةً فاتَّبِعْهُ، وإلَّا فلا تَتَعنَّ).

---

(١) مفتاح دار السعادة (١: ٤٠٠).

(٢) صيد الخاطر (٤٥٦).

(٣) فيض القدير (١: ١٦٣).

فأخذَ سفيانُ بوصيَّة والدته، ووجدَ في نفسه زيادةً فاتَّبعَ، فكان بعد ذلك الثوريَّ (١٦١هـ)[1].

وقال مُجايِلُ الثوريِّ، صاحبُ أبي حنيفة: محمدُ بن الحسن الشيباني (١٨٩هـ): (عِلمُنا هذا لا يصلح إلَّا بثلاثِ خصالٍ). وذكر منها: (أن يكونَ الرجلُ مشتهيًا له)[2].

ويعده أبو هلالٍ العسكريُّ (٤٠٠هـ)، فقد نقل عن بعض الأوائل أنه لا يَتِمُّ العلمُ لطالبه إلَّا بستة أمور، وكلَّما نقص نصيبُه منها دخل ذلك بالنَّقصِ على مقداره من العلم، وذكر منها أن تكونَ للطالب (شهوةٌ)، ثم قال أبو هلال: (وذَكَر الشَّهوةَ، لأنَّ النَّفسَ إذا اشتهتِ الشيءَ كانت أسمحَ في طلبه، وأنشطَ لالتماسه، وهي عند الشهوةِ أقبَلُ للمعاني، وإذا كانت كذلك لم تدَّخِرْ من قُواها، ولم تحبسْ من مكنونها شيئًا، وآثرتْ كدَّ النَّظرِ على راحة التَّرك)[3].

وذكر الماورديُّ (٤٥٠هـ) الشروطَ التي يتوفَّرُ بها علمُ الطالب، وينتهي معها كمالُ الرَّاغب، ويبلغ بها تسعًا، وعدَّ منها: (الشهوة التي يدومُ بها الطلب، ولا يُسرِعُ إليه الملل)[4].

ويُبيِّنُ الجاحظُ (٢٥٥هـ) فارقَ ما بين التحصيلِ الممتزجِ بالرغبة والشهوة والتحصيلِ الخالي منهما، فيقول: (ليس من نَظَرَ في العلم على الرَّغبة والشهوة

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٧: ٢٦٩).
(٢) فضائل أبي حنيفة وأخباره ومناقبه لابن أبي العوَّام (٣٦٠).
(٣) الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه (٨-٩).
(٤) أدب الدين والدنيا (١١٦).

له كمن نظر فيه على المكسبةِ به والهربِ إليه، لأن النَّفسَ لا تُسمِح بكُلِّ قواها إلَّا مع النَّشَاطِ والشَّهوةِ، وهي في ذلك لنفسها مستكرِهَةٌ، ولها مكابِدةٌ)[1].

وكما أنَّ حبَّ العلم شرطُ تحصيله، فكذلك حبُّ متعلَّقاته ووسائله، ومنها حبُّ كتبه، والتَّهَالكُ على اقتنائها، وعن ذلك يقول الجاحظ (٢٥٥هـ): (من لم تكن نفقتُه التي تَخرُجُ في الكتب ألذَّ عنده من إنفاق عشَّاقِ القيان والمستهترين بالبنيان = لم يبلُغْ في العلم مبلغًا رَضِيًّا، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يُؤْثِرَ اتِّخاذَ الكتب إيثارَ الأعرابي فرسَه باللَّبن على عياله، وحتَّى يؤمِّلَ في العلم ما يؤمِّل الأعرابيُّ في فرسه)[2].

وهذا الحبُّ هو ما حَدَا بمحمد كرد علي (١٣٧٢هـ) إلى أن يقول: (لقد أنفقتُ في سبيل التعلُّمِ أوَّلًا، ثم التعليمِ ثانيًا، ثم نَشْرِ ما علمتُ ثالثًا نفقاتٍ لم ينفقها فيما أحسب إنسانٌ ممن عرفت من أبناء وطني)[3].

فحُبُّ العلم متى ما كان صادقًا فإنَّه يسوق ضرورةً إلى حبِّ متعلَّقاتِه ووسائلِه وكلِّ ما يتَّصل به بسببٍ من الأسباب، ولذلك قال ابنُ تيميَّةَ (٧٢٨هـ) في تقعيد ذلك مبيِّنًا أن حبَّ الشيء يوسِّع من دائرة السعي لتشملَ الشيءَ ومقدماتِه: (النَّفسُ إذا أحبَّت شيئًا سَعَت في حصوله بما يمكن، حتى تسعى في أمور كثيرة تكون كلُّها مقدماتٍ لتلك الغاية)[4].

---

(١) رسائل الجاحظ (١: ٢٩٦).

(٢) الحيوان (١: ٥٥).

(٣) المذكرات (١: ٣١٣).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠: ١٣٣).

كَمْ في طلب العلم من أَنَاتٍ وأوجاعٍ، ولكنَّها عند المحبِّينَ أَنَاتٌ معسولةٌ وأوجاعٌ معشوقةٌ، يجدون لحرارة طلبه حلاوةً، ولمشقَّةِ نواله بَرْدًا، فعشَّاقُ العلم مع ما يعالجونه من مشقَّة التحصيل إلَّا أنَّهم أعظمُ شغفًا وعشقًا له من كلِّ عاشقٍ بمعشوقه، (وكثيرٌ منهم لا يشغله عنه أجملُ صورة من البشر!)[1].

وإذا ما جدَّ المرء في تحصيل المطالب العالية وترقَّى في طلب كمالاتها فلا بُدَّ وأن يسوقَه ذلك إلى العلم، فهو جوهرُ المطالب وغايتُها.

قال ابن الجوزي (٥٩٧هـ): (ألا ترى أنَّ الصبيانَ يحبُّونَ التَّماثيلَ واللُّعَبَ أكثرَ من محبتهم للناس، لضعفِ نفوسهم وكونها مماثلةً للصور لخلوها عن رياضة، فإذا ارتاضتْ نفوسُهم ارتفعتْ همَمُهم إلى ما هو أعلى، وهو حبُّ الصور الناطقة، فإذا ارتاضت نفوسهم بالعلوم والمعارف ارتفعت عن حبِّ الذَّواتِ ذواتِ اللَّحمِ والدَّمِ إلى ما هو أشرفُ منها. وأتمُّ أحوال النَّفس الشهوانية وجودُها مع شهواتها من غير منغِّصٍ، وأتمُّ أحوال النَّفس الحيوانية وجودُ غرضها من القهر والرياسة، وأتمُّ أحوال النفس الناطقة وجودُها مدركةً لحقائق الأشياء بالعلم والمعرفة، وهذه النفس لا يستأسرها الهوى، فإنْ أمالها طبعُها أقامَها فكرُها، وانتاشَهَا من يده عقلُها وفهمُها، لأنها تتفكَّرُ فيما قد نابها، فتتلمَّحُ منتهاه وترى غايتَه، وليس من شأنها الوقوف لأنها في السَّيْرِ أبدًا تترقَّى من عِلْمٍ إلى عِلْمٍ)[2].

---

(١) روضة المحبين لابن القيم (١٠٨).

(٢) ذم الهوى (٢٣٥-٢٣٦).

ويبلغ العلم من وجدان ابن القيم (٧٥١هـ) مبلغًا عليًا، ويعرُجُ به من منزلةٍ لأخرى حتى أطلقَ قلمَه ليكتبَ بأنه (لو ظهرتْ صورةُ العلم للأبصار لزادَ حُسنُها على صورة الشمس والقمر)(١).

وانظرْ مصداق ذلك عند العلَّامة اللُّغوي الكبير محمد محمود بن التلاميد التُّركزي الشنقيطي (١٣٢٢هـ)، أحد أعلام القرن الرابع عشر، فقد طرقت شهرتُه أسماعَ ملوك أوروبا، ففي إطار التحضير لعقد المؤتمر الثامن للعلوم الشرقية طلب أوسكار الثاني (١٣٢٥هـ) ملك السويد والنرويج من السلطان عبدالحميد (١٣٣٦هـ) أن يبعث إليه بوفد من أبناء العرب يسألهم عن القرآن واللُّغة وأشعار العرب، وأن يكون الوفد برئاسة ابن التلاميد، فبلغ الخبرُ ابنَ التلاميد، وتشجَّع لذلك، وكتب قصيدة تخطَّت حاجزَ المتنبي بيتٍ ليصدع بها في قلب «ستوكهولم»، غير أنَّ خلافًا بينه وبين السلطان عبدالحميد حال بينه وبين ذلك، وكانَ مما جاء في قصيدته - التي ضمَّنها مجموعَه المسمَّى «الحماسة السَّنيَّة الكاملة المزيَّة في الرحلة التركزيَّة» - تلك الأبياتُ التي بيَّن فيها كيف أنه ما زال بالعلم، طالبًا له، راحلًا في جمعه، حتى طغتْ لذَّةُ العلم على سائر لذَّاته، بل أحالتْها سمومًا مهلكةً! فقال:

ولـمَّا طَعِمْتُ لـذَّةَ العلمِ صيَّرتْ
سواها من اللَّذَّاتِ عنديَ كالسُّمِّ

ولـمَّا عَشِقتُ العلمَ عشقَ درايـةٍ
سلوتُ عن الأوطانِ والأهلِ والحِلْمِ

(١) مفتاح دار السعادة (١: ٣٢٢).

ولـمّا عَلِمْتُ ما عَلِمْتُ بغربنا

ترحّلتُ نحوَ الشّرقِ بالحزمِ والعزمِ

ولم يثْنِ عزمي نهيُ حسناءَ غادةٍ

شبيهةُ جُمْـلٍ بل بُثَيْنَةَ بل نُعْمِ

ولم يُغْمِ قلبي حبُّ عـذراءَ كاعبٍ

وحبُّ العذارى قد يُصِمُّ وقد يُعمِي

رحلتُ لجمعِ العلمِ والكُتْبِ ذاهبًا

إلى الله أبغي بسطةَ العلمِ في جسمي

وأمعنتُ في إدراك ما رُمـتُ نيلَهُ

فأدركتُ ما أدركتُ بالصَّبرِ والحزمِ

وصرتُ بما أدركتُ من ذَينِ هاديًا

بشمسٍ على شمسٍ ونجمٍ على نجمِ[1]

وتبلُغُ الحالُ بطلاب العلم أنْ يستحيل العلمُ جزءًا لا يتجزأ من حواسّهم بعد أن كانوا يطلبونه بها، واستمعْ إلى ابن وهب (١٩٧هـ) وهو يقول: (ما مَلِلتُ العلمَ قط، وما نبتَ لحمي إلّا من الكتاب)[2]. وهكذا الحال حين تكونُ أنتَ والعلمُ روحًا في جسدين.

---

(١) الحماسة السنية الكاملة المزية في الرحلة العلمية الشنقيطية التركزية (٩).

(٢) أخبار ابن وهب وفضائله لابن بشكوال (١٢٢).

ثم إذا كان الطالبُ المحبُّ متيجًا للعلم باثًّا له صار ما كان منه من قولٍ أو فكرٍ أحبَّ إليه من جميع ما ملكه وحصَّله من نِعَم الدنيا وملذَّاتها.

يقول الجاحظ (٢٥٥هـ): (واعلم أنَّ العاقلَ إن لم يكن بالمتتبِّع فكثيرًا ما يعتريه من ولده أن يحسُنَ في عينه منه المقبَّحُ في عين غيره، فليعلَمْ أنَّ لفظَه أقربُ نسبًا منه من ابنه، وحركتَه أمسُّ به رَحِمًا من ولده، لأنَّ حركتَه شيءٌ أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فَصَلت، ومن نفسِه كانت، وإنَّما الولد كالـمَخْطَةِ يتمخَّطُها، والنُّخَامة يقذِفُها، ولا سَوَاءٌ إخراجُكَ من جزئِكَ شيئًا لم يكن منك، وإظهارُكَ حركةً لم تكن حتَّى كانت منك، ولذلك تَجِدُ فتنةَ الرجل بشِعْرِه وفتنتَه بكلامِه وكتبِه فوقَ فتنته بجميع نعمته)[1].

(٣)

(حبِّبْ إلى نفسك العلمَ حتى تلزمَه وتألفَه، ويكون هو لهوَك ولذَّتَك وسلوتَك وبُلغتَك)[2].

اجعلْ طلبك للعلم تفاعلًا بينك وبينه، بينك وبين أهله، بينك وبين طلابه .. لا تقتصر في تحصيله على وسيلة واحدة، بل ازدَدْ من وسائله وذرائعه دون مَلَلٍ ولا كَلَلٍ.

اقرأْ، وتأمَّلْ، واحفظْ، واكتبْ، ولخِّصْ، واشرحْ، وحاوِرْ، وناظِرْ،

---

(١) الحيوان (١ : ٨٩).

(٢) الأدب الكبير لابن المقفع (١١١).

وابحثْ، واستشكِلْ، وانتقِدْ، وما شئتَ وراءَ ذلك، فإن ذلك كلَّه مما يُذْكِي نارَ حبِّك للعلم، ويجعلُ بينكما علاقة حميمية لا تملك معها أن تفارقه، فلا تغادرُ وسيلةً إلَّا التقيتَ بأخرى، وما تخرجُ عن سبيلٍ إلَّا دخلتَ في آخر.

* لِتَكُنْ حياتُك العلميَّةُ حافلةً بالمنجَزَاتِ الواصلةِ بينك وبين مسائل العلم، بذلك يدومُ الحبُّ، وتعظمُ المودَّةُ، وتُنالُ اللَّذةُ، (وكفى بلذَّة العلم والفقه والفهم داعيًا وباعثًا للعاقل)[1].

اجعلْ طلبَك للعلم روحًا ساريةً في محيطِك، مجالسِك، أقرانِك .. كنْ بالعلم، منه وإليه .. إذا وردتَ مجلسًا فليكنْ لسانُك بالعلم ناطقًا، بُثَّ في من حولك بهجةَ العلم وأذِقْهُم لذَّته، واسْعَ قدرَ طاقتك للتخفُّفِ من العلاقاتِ الطَّاردةِ لحديث العلم المجافيةِ لمسائله، وخذْ بوصية الإمام أبي حنيفة (١٥٠هـ) التي جلَّل بها تلميذَه أبا يوسف (١٨٢هـ)، فقد أوصاه بوصيةٍ دافعةٍ رافعةٍ، ضابطةٍ لعلاقته بالناس، فقال له: (لا تُكثِرْ معاشرتَهم إلَّا بعد أن يعاشروك، وقابلْ معاشرتهم بذكر المسائل، حتى إنَّ مَن كان مِن أهله اشتغل بالعلم، ومن لم يكن من أهله يجتنبُك، ولا يجدُ عليك، بل لا يحومُ حولك)[2]. ما أندى كلام الأئمة، وما أجملَ وصاياهم!

فأوصاه أولًا بدفع العلائق بعدم مباشرة عقدها، وثانيًا برفعها بعد أن يباشره الناس بها، وذلك بجعلِه العلمَ هو المتوليَّ لطَرَفي العقد، فإن لم يجدِ العلمُ أحدَ الطرفين محلًا قابلًا ألغاه، وبسقوط ركنٍ ينحَلُّ العَقدُ كلُّه.

---

(١) تعليم المتعلم للزرنوجي (٨٠).

(٢) مناقب أبي حنيفة للموفق المكي (٢: ١١٤).

ويتلقّى المزني (٢٦٤هـ) عن الشافعي (٢٠٤هـ) نحوًا من هذه الوصيَّة، فينقل عنه قولَه: (من لا يُحبُّ العلمَ فلا خيرَ فيه، ولا يكنْ بينك وبينه معرفةٌ ولا صداقةٌ)[1].

قال ابن جماعة (٧٣٣هـ): (الذي ينبغي لطالب العلم أن لا يخالطَ إلّا من يفيده أو يستفيد منه ... فإن شَرَعَ أو تعرَّض لصحبةِ مَن يَضيعُ عمرُه معه، ولا يُفيدُهُ، ولا يستفيدُ منه، ولا يُعينُهُ على ما هو بصدده = فليتلطَّفْ في قطع عِشرَته في أوَّل الأمر قبل تمكُّنِها، فإنَّ الأمورَ إذا تمكَّنت عسُرَت إزالتها، ومن الجاري على ألسنة الفقهاء: «الدَّفع أسهلُ من الرَّفع»)[2].

بهذه الروحِ الرساليَّةِ يتنامى حبُّ العلم في قلبك، ويزداد شغفك بتحصيله، فتكون معرَّفًا به منتمِيًا إليه بعد أن كنتَ طارئًا عليه مداريًا له.

(٤)

قال الشافعي: (جعلتُ لذَّتي في هذا العلمِ وطلبِه حتى رزقني الله منه ما رزق)[3].

ولـمَّا سأله تلميذه الربيع بن سليمان (٢٧٠هـ): كيف شهوتُك للأدب؟

قال: (أسمع بالحرفِ منه مما لم أسمعه، فتوَدُّ أعضائي أنَّ لها أسماعًا تتنعَّم به مثل ما تنعَّمت الآذان).

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢: ١٤٤).
(٢) تذكرة السامع والمتكلم (٩٤).
(٣) آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم (٢٢).

فقال له: وكيف حرصُك عليه؟

قال: (حِرصُ الجَمُوعِ الـمَنُوعِ على بُلُوغ لذَّته في المال).

فقال: وكيف طلبُك له؟

قال: (طلبُ المرأةِ المضلَّةِ ولدَها وليس لها غيرُه)[1].

لمثل هذا الحبِّ وهذا التلذُّذِ بالعلم والأدب كان الشافعيُّ الشافعيَّ!

وكان يُؤتَى بالرُّطَب فيُوضَعُ بين يدي أبي بكر ابن الأنباري (٣٢٨هـ) فلا يمسُّه، ويقول: (ما أطيبَك! وما أحلاك! ولَلعِلمُ أطيبُ منك وأحلى)[2].

ولـمَّا تغشَّى ابنَ تيميَّةَ (٧٢٨هـ) مرضٌ جَرَتْ بينه وبين الطبيبِ المباشرِ لعلاجه هذه المحاورة:

قال الطبيب: إنَّ مطالعتَك وكلامَك في العلم يزيد المرض.

فقال الشيخ: (لا أصبرُ عن ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك .. أليستِ النفسُ إذا فَرِحت وسُرَّت قويت الطبيعة فدفعتِ المرض؟)

فقال الطبيب: بلى.

فقال له الشيخ: (فإنَّ نفسي تُسَرُّ بالعلم، فتقوى به الطبيعة، فأجد راحةً، وإذا اشتغلت نفسي بالكلام في العلم وظفرت بما يشكل عليها منه فَرِحَت به وقَوِيَت فأوجب ذلك دفع العارض).

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢: ١٤٣-١٤٤). والذي في «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (١: ٢٢): (قال أبو عمرو بن العلاء: قيل لمنذر بن واصل: كيف شهوتك للأدب ...).

(٢) الحث على طلب العلم للعسكري (٢٢-٢٣).

فقال له الطبيب: هذا خارجٌ عن علاجنا![1]

وَصَدَق..

لا يَعرِفُ الشَّوقَ إلا مَن يُكابِدُه
ولا الصَّبَابَةَ إلَّا مَن يُعَانِيها

وقد ذكر ابنُ جماعةَ (٧٣٣هـ) أن (بعضهم لا يترك الاشتغال بعُرُوضِ مَرَضٍ خفيفٍ، أو ألَمٍ لطيفٍ، بل كان يستشفي بالعلم، ويشتغل قدر الإمكان، كما قيل:

إذا مَرِضنا تداوينا بذِكرِكُمُ
ونتركُ الذِّكرَ أحيانًا فننتكسُ)[2].

فـ (لا فرقَ بين من أعدمَكَ الدواءَ الذي تستشفي به من دائك، وتستبقي به حُشاشةَ نفسك، وبين مَن أعدمك العلمَ بأنَّ فيه شفاءً، وأنَّ لك فيه استبقاءً)[3].

ولـمَّا عدَّ الذهبيُّ (٧٤٨هـ) لذائذَ ابنِ تيميَّةَ (٧٢٨هـ) حَصَرها في العلم، فقال: (كان إمامًا متبحِّرًا في علوم الديانة، صحيحَ الذهن، سريعَ الإدراك، سيَّالَ الفهم، كثيرَ المحاسن، موصوفًا بالشجاعة والكرم، فارغًا من شهوات المأكل والملبس والجماع، لا لذَّةَ له في غير نشرِ العلم وتدوينِه

---

(١) أورد هذه المحاورة ابن القيم في: مفتاح دار السعادة (٢: ٧١٢)، روضة المحبين (١٠٩).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم (٥٧).

(٣) دلائل الإعجاز للجرجاني (٩).

والعملِ بمقتضاه)[1]. ولا غرابةَ، فهو القائل: (لا ريبَ أنَّ لَذَّةَ العلم أعظمُ اللّذات)[2].

كما قال عنه الصفديُّ (٧٦٤هـ): (كان من صغره حريصًا على الطَّلَب، مُجِدًّا على التحصيل والدَّأب، لا يُؤثرُ على الاشتغال لذَّة، ولا يرى أن تضيع منه لحظةٌ في البطالة فلتة، يَذْهَلُ عن نفسِه، ويغيبُ في لذَّة العلم عن حِسِّه، ولا يطلبُ أكلًا إلّا إذا أُحضِر لديه، ولا يرتاح إلى طعامٍ ولا شرابٍ في أبْرَدَيه)[3].

وكما كانَ ابنُ تيمية (٧٢٨هـ) كانَ تلميذُه ابن القيم (٧٥١هـ)، يشهدُ على ذلك حالُه ومقالُه:

أمَّا حاله فقد حكى عنه تلميذُه ابنُ رجبٍ (٧٩٥هـ) أنّه (كان شديدَ المحبَّة للعلم، وكتابته، ومطالعته، وتصنيفه، واقتناء الكتب)[4].

وأمَّا مقاله، فهو القائلُ بأنَّ (العالم يبلُغ في العلم بحسب عشقه له)[5]، والمقرِّرُ بأنَّ (من ذاق لَذَّةَ شيء قَوِيت همته في تحصيله)[6].

وإذا استحضر الطالب وعورة العلم ومشقة طلبه لم يجد مركبًا يبلغ به نهايات غايته إلَّا مركبَ المحبة، فالعلمُ بعيدُ المسلك، غائرُ المطلب، ومتى

---

(١) المعجم المختص (٢٥).
(٢) مجموع الفتاوى (١٤: ١٦٢).
(٣) أعيان العصر وأعوان النصر (١: ٢٣٦).
(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (٥: ١٧٤).
(٥) روضة المحبين (٢٦٥).
(٦) عدة الصابرين (١٠٦).

ما عريَ طالبه عن محبته انصرف عنه، ومتى ما تمكّنتْ من قلبه محبَّتُه أقبل عليه أبدًا وزاد إليه اشتياقه، ومن ظفر من الطلاب بهذا الاشتياق كان أحرى بملازمة العلم والمصابرة على تحصيله مهما توعَّرَت سُبُله (على عادة المشتاق، فإنه يسلك السبيل إلى الظفر بمحبوبه كيف كانت، غيرَ مفكِّرٍ في الوعورة والبعد)[1].

وأخيرًا، فما أجلَّ ما قاله الطَّناحيُّ (١٤١٩هـ) وأصدقَهُ: (إذا دخلَ العلمُ من باب الحبِّ فليسَ مِن وراء ذلك شيءٌ)[2].

*****

روى البخاري (٢٥٦هـ) في صحيحه [٢٣٤٨] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ كان يومًا يُحدِّثُ «أنَّ رجُلًا من أهل الجنة استأذن ربَّه في الزَّرعِ، فقال له: ألستَ فيما شئتَ؟ قال: بلى، ولكنِّي أحبُّ أن أزرع. قال: فبَذَرَ، فبَادَرَ الطَّرْفَ نباتُه واستواؤُه واستحصادُه، فكان أمثالَ الجبال، فيقول الله: دُونَكَ يا ابنَ آدمَ، فإنَّه لا يُشبِعُكَ شيءٌ».

قال ابن حجر (٨٥٢هـ): (في هذا الحديث من الفوائد أنَّ كلَّ ما اشتُهِيَ في الجنَّة من أمور الدنيا ممكنٌ فيها. قاله المهلَّبُ)[3].

(١) الهوامل والشوامل - مسكويه (٦٠).
(٢) الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم (٨٦ - هامش «١»).
(٣) فتح الباري لابن حجر (٥: ٢٧).

فاللَّهُمَّ وقد حبَّبْتَ إلينا العلمَ في الدنيا، وزَيَّنتَه في قلوبنا، فمتِّعنَا بمَجَالِسِه في الجنَّة، وارزقنا مذاكرتَه مَعَ الَّذينَ أنعَمْتَ عليهم من النبيِّينَ والصدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالحينَ، وحَسُنَ أولئك رفيقا.



(الوَاصِفُونَ أَكْثَرُ مِنَ العَارِفِينَ،
وَالعَارِفُونَ أَكْثَرُ مِنَ الفَاعِلِينَ)

ابن المقفَّع (١٤٢هـ)



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«اِحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزْ».

أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٦٦٤).

(١)

من محفِّزات الطالب للتحصيلِ العلميِّ والاستزادةِ منه امتلاكُه للسؤالات والإشكالات المستفِزَّة، وكلَّما كانت أرضُ تحصيله حافلةً بالسؤالات كانت أقبَلَ لمياه العلم، بَيْدَ أن الأمر ليس مقصورًا على وجود ما هو (سؤالٌ) فحسب، بل المقصودُ أن يكونَ السؤال مما يبحث غاياتِ العلمِ ومقاصدَه، إذ بالبحث في الغايات يرتاضُ الطالب بجوهر العلم ويتمكَّنُ من حقائقه، غيرَ أنَّا إذا تأمَّلنا السؤالاتِ الفاعلةَ في الميدان العلمي المعاصر وجدنا كثيرًا منها دائرًا خارجَ إطار البحوثِ الغائيَّةِ، ولو استقرَيْنا سيلَ السُّؤالاتِ الموجَّهةِ إلى أهل العلم من لدن طلاب العلم في الآونة الأخيرة وجدنا كثيرًا منها يصبُّ في وسائل العلم لا غاياته.

واللَّافتُ للنَّظر أنَّ السؤال في هذا الباب لا يَحلَّقُ على كثرة الردِّ، ولا يقنع الطالب حتى يتحصَّل على جوابٍ خاصٍّ بسؤاله، ولو كان سؤاله مجابًا عنه موجَّهًا من طالبٍ يشترك معه طولًا وعرضًا وعمقًا!

وليتَ الأمرَ يقتصر على الحصول على جواب وينتهي بعد ذلك، أو أنَّ السؤالَ يقع في هامش البرنامج العلمي للطالب، أو أنه ينطوي على إشكالٍ جادٍّ يجعل من حلِّه فتحًا مبينًا للطالب.

ليتَ الأمرَ كان كذلك، ولكنَّ الواقع يدلُّنا على أنَّ الأمرَ ليس مقصورًا على تحصيل جواب، بل أضحى مجرَّدُ السؤال هوايةً علميَّةً للطالب يقضي بها وقتَه، ويديرُ بها مجالسَه، ويباحثُ بها أقرانَه، ويكافحُ بها مَن يلقاه من الأشياخ، حتى صار خبيرًا بطرائق الناس في الإجابة عن تلك الإشكالات الوسيليَّة، ينثر لك الخلاف فيها، ويرجِّح غالبًا ترجيحًا تجريديًّا لم تُنضِجه الخبرة ولم تُسعِفه التَّجرِبة.

والواقع يدلُّنا على أن سؤال الوسائل يمثِّل جوهر برامج كثير من الطلاب، وصار النظر في متين العلم هو الواقعَ في هوامش التحصيل، ودليل ذلك أنك ترى مغناطيس قراءاتهم ليس تلك العناوينَ التي تعالج صلب العلم وتبحث مقاصده، بل مغناطيسها تلك الألفاظُ الرنَّانةُ الباحثةُ في طرائق التحصيل وتقنيات التلقِّي.

والواقع يدلُّنا على أن الأمر لا ينطوي على إشكالٍ جادٍّ، وإلَّا فلو كان كذلك لأعقب الجوابَ عنه عملٌ بموجَبه، ولكنَّ الواقع بخلافه، فزيدٌ السائلُ عن المفاضلة بين ألفيتَي العراقي والسيوطي في علوم الحديث مرَّت عليه سنونٌ دون أن يحفظ واحدةً منهما، وزيدٌ المقابِلُ بين تفسيرَي «الجلالين» و«البيضاوي» مرَّت عليه سنونٌ دون أن ينهيَ أحدَهما، وزيدٌ المردِّدُ النَّظرَ

بين مسارَي الحفظ والفهم مرَّت عليه سنونٌ وهو ما زال يقطف أوراق وردة التردُّدِ، وهَلُمَّ جرًّا.

(٢)

تأمَّلتُ في باعث وجود هذا الفصيلِ الوسيليِّ من الطلبة، وكيف صار لتعاطيهم مع العلم منهجٌ تحصيليٌّ وخطابٌ خاصٌّ، ولماذا استوطن مشروعُهم حِمَى العلم دون أن يرتعوا فيه = فبان لي أنَّ لهذا الاهتمام بوسائل العلم دون غاياته بواعثَ عدَّةً، على رأسها باعثان امتزجا فأفرزا هذا الفصيل، وهما: حبُّ العلم والرغبةُ في تحصيله، صعوبةُ العلم وفتورُ العزم عن مكابدته.

فحبُّ العلم هو الذي جعل اهتمام هذا الفصيل يتحرَّك في ميدانه، ومهابةُ العلم وتحاشي مشاقِّه هو الذي أخَّر تلك الاهتمامات عن صلب العلم وقذف بها في معترك الوسائل تسليةً للنفس وتزجيةً للوقت. والشأن كما قال الإمام أحمد (٢٤١هـ): (إنَّما العلمُ مواهبُ، يؤتيه الله مَن أحبَّ مِن خلقه)[1].

ومن اللَّافت للنظر أنَّ غالبَ المتصدرين للحديث عن وسائل تحصيل العلم ليسوا من أولي التحقيق فيه ولا من طلبة العلم الجادِّين الذين تمثَّل

---

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١: ١٧٩).

مشاريعُهم براهينَ صدقٍ لسؤالاتهم، وهذا يقدح شرارة التأمُّل عند من فُتِن بمثل هذه المداولات، وإذا تأمَّلتَ خطاب المحققين من المحصِّلين وجدتَه يُعنى بالـمُحكَم من الوسائل، وما عداه يُشار إليه إشارةً معقولةَ الوزن، ولستُ أعني بذلك نَبْذَ الحديث عن وسائل التحصيل ظِهريًا، لكن لا بُدَّ أن ندركَ دنوَّ رتبته عن البحث في غايات العلم .. وطالبُ العلمِ الحقُّ هو مَن يأنسُ بالبحث (في) العلم أشدَّ من أنسه بالحديث (عن) العلم، وكثيرٌ من المتسبين للطلب إنَّما هم طلَّابُ حديثٍ عن العلم لا طلَّابُ بحثٍ فيه.

والمتصفِّحُ لغالب المقارنات الواقعة بين التقنيات التحصيلية والمتون التعليمية يدرك أنَّها قائمةٌ بين فاضل ومفضول، وتحديدُ ما هو فاضلٌ ومفضولٌ خاضعٌ لاعتباراتٍ عدَّةٍ تجعل منه أمرًا نسبيًّا يتفاوت بتفاوت الأشخاص والبيئات، وتَقَصِّي ما بين الفاضل والمفضول من نسبة النَّفع وقطعُ الزمن بذلك ترفٌ مذمومٌ، فلا حاجةَ إلى مدِّ الحديث عنه مدًّا يعود بالضرر على النظر في حقيقة العلم ومقاصده.

ثم إنَّ طلاب العلم ليسوا على شاكلة واحدة من حيثُ التهيُّؤ النفسيُّ والاستعدادُ الذهنيُّ، والنَّظر في الوسائل لا بُدَّ أن يكون مراعيًا لذلك، وهذا يجعل لكلِّ طالبٍ شيئًا من الاجتهاد في تحديد وسائل تحصيله، ويُصَيِّر من النماذج الوسيلية السابحة في الفضاء العلمي مجرَّدَ مقترحاتٍ ونماذجَ للتحصيل، وعليه فمن الغلطِ على العلم وعدمِ النصح لطلابه كثرة الإتيان بـ(أفعل) التفضيل دون سبقها بـ(مِن) التبعيضية حين الحديث عن مقترحات التحصيل ونماذجه.

(٣)

حفظُ العلم وضبطُه، والترقِّي في تحصيله، والتلقِّي عن أشياخه العارفين به، ومذاكرة الأقران النابهين، واستشراحُ ومدارسةُ المتون والكتب المعتمدة عند أهل كل فن .. هذه ونحوها هي محكماتُ الوسائل.

أمَّا:

- هل يحفظ الطالب هذا المتن أو ذاك؟
- هل يحفظ نثرًا أو نظمًا؟
- هل يحفظ المتن قبل استشراحه أو بعده؟
- هل يقدِّم النظر في هذا العلم أو ذاك؟
- هل يدرس علمًا على وجه الاستقلال ثم ينتقل إلى غيره أو يجمع بين علمين في وقت واحد؟

ونحوها من السؤالات فلا ينبغي أن تُجاوِزَ قدرَها من اهتمامات طالب العلم، ولا أن تأخذَ من عمره شهورًا، وقد أخذتْ - وللأسف - من عمر كثيرين أعوامًا!

وقد فُتِنتُ كما فُتِن لِدَاتِي بالإغراق في سؤال الوسائل، ومع قناعتي بأني أهدرتُ جزءًا كبيرًا من وقتي في الإجابة عنه إلا أني لم أستطع حتى ساعتي هذه أن أتخلَّص من بعض تَبِعَات ذلك الإغراق، فقد أضحى جزءًا من تكويني ما زلتُ أدافعه.

أذكر أني جلستُ شهرًا معطّلًا عن التحصيل والقراءة من أجل إحكام خطة علمية تمتد ثلاث سنين .. وفعلًا، كتبتُ وجدولتُ، ثم طفت بمساجد الأشياخ لأعرضها عليهم، وأخذ كلٌّ منهم يدلي بدلوه، حتى تلقّفني شيخٌ وقلب الأوراق بين عينيَّ وكأنما كان يقتل ابنًا لي، وكتب على ظهرها عنوانًا لكتاب وآخرَ لدروس مسجلة، وقال: اشتغلْ بهذين في البداية!

كانت صاعقةً لي، خرجتُ من عنده وكُلِّي أسًى أن هذا الشيخ لم يُعنَ بما كتبته، ولم يعرف لهمَّتي قدرًا، مضت الشهور فلا أنا بالذي بدأت في إنجاز خطتي، ولا أنا بالذي طبّقت نصيحة ذلك الشيخ - وقد كان صادقَ اللَّهجة، أمينَ النُّصح - والآن مرَّت تسعةُ أعوامٍ على تلك الخطة وهي حبيسة الأدراج، وستظلُّ كذلك، ولا حاجة لي بها سوى أن تكون ذكرَى تصوِّرُ لي واقع تلك الأيام الخوالي.

(٤)

التكوين العلمي الراشد ليس محتاجًا لإجابات مفصَّلة جاهزة عن سؤال الوسائل، وهو يتأبّى على أن تُكتَبَ نهاياته في خطة علمية يرسمها مبتدئ في العلم أو يوصي بها متقدِّمٌ فيه، فإنَّ الحوائجَ العلميَّةَ لطالب العلم تتجدَّد كلَّما ترقَّى في سُلَّمِ التحصيل، ومن هنا ينبغي عليه أن يطمسَ من قاموس سؤالاته كلَّ سؤال يتعدَّى مرحلته الراهنة، لأن السبيل ستستبين له مع كلِّ ترقٍّ، فليست الخطةُ العلميَّةُ مما يُكتب بمداد الحبر بل إنَّما تتخلَّق بعرَق الإنجاز.

ثمَّ إنَّ عليه أن يكون بعيدًا من غيره قريبًا من نفسه وهو يرسم خارطة تحصيله، فـ (إنه عسيرٌ جدًّا على الإنسان - مهما حاول - أن يكون غيرَه) بل (إنَّ خروجَ الإنسان على سجاياه، وانفصالَه عن طباعه العقليَّة والنفسيَّة التي لا عِوجَ فيها أمرٌ يُفسِد على الإنسان حياتَه ويثيرُ الاضطرابَ في سلوكه)[1].

فما بين المحصِّلين من الفروق الظرفيَّة والطَّبْعيَّة، وتفاوت قدراتهم، وما تحتمله فِطَرُهم = يَفرِضُ على كلٍّ منهم أن لَّا يستعيرَ لنفسه خصائص غيره.

قال الجاحظ (٢٥٥هـ): (إنَّما علَّم الله كلَّ طبقةٍ من خلقه بقدر احتمال فِطَرهم ومقدار مصلحتهم)[2].

وقال ابن الجوزي (٥٩٧هـ): (إن الله عز وجل لما أراد بقاء العلم لأنه الدليل عليه جعل بين طباع الناس وأصناف العلم مناسبةً جوهريَّةً، وعلاقةً خفيَّةً، فينجذبُ كلُّ طالب علم إلى ما يناسب جَوْهَرِيَّتَه، لينحفظَ بجملتهم العلم)[3].

وملاحظة هذا المعنى في هذا المقام، بل وفي سائر مقامات التحصيل العلمي = من الضرورة بمكان، فبه يكون الطالبُ أكثرَ تصالحًا مع نفسه، وأجدرَ أن يكونَ له من العلم ما يختصُّ به عن غيره، ولا سيَّما المبتدئ،

(١) جدد حياتك لمحمد الغزالي (١٤٨).

(٢) الحيوان (٥: ٢٠١).

(٣) آفة أصحاب الحديث (١٧٧-١٧٨).

فإنَّ مراعاةَ ما عليه طبعُه أكثرُ تأكُّدًا من غيره، لحداثة عهده بالعلم، وذلك أنه (كالطير الوحشي، لا يأنس إلا بالتلطُّف، فإنَّ العلمَ أشقُّ عليه وأمرُّ، فيجب إصلاحُه على ما يقتضيه طبعُه)[1].

ومن أغزرِ النصوص الدالَّة على هذا المعنى، وأكثرِها إشراقًا واحتفالًا = ما نقله أبو حيَّان التوحيدي (٤١٤هـ) في وصف بلاغة أبي الفضل ابن العميد (٣٦٠هـ) بقوله: (سمعتُ ابنَ الجمل يقول: سمعت ابن ثوابة يقول: أول من أفسد الكلام أبو الفضل، لأنَّه تخيَّل مذهبَ الجاحظ، وظنَّ أنه إنْ تَبِعَه لَحِقَه، وإنْ تلاه أدركه، فوقع بعيدًا من الجاحظ، قريبًا من نفسه، ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبَّرٌ بأشياء لا تلتقي عند كلِّ إنسانٍ، ولا تجتمعُ في صدر كلِّ أحدٍ، بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ، وهذه مفاتحُ قلَّما يملكها واحدٌ، وسواها مغالقُ قلَّما ينفكُّ منها واحدٌ)[2].

فهذه المفاتحُ وأمثالُها إن لم يوظِّفها الطالبُ ليكون أمثلَ معرفةً بنفسه وإدراكًا لما يصلح لها، وإلَّا فستنصرم أيَّامُه وهو يخطو بحزمٍ .. لكنْ إلى الوراء!

*****

(١) منهاج المتعلم المنسوب للغزالي (٦٧).
(٢) الإمتاع والمؤانسة (١: ٦٦).

حاصلُ ما تقدَّمَ أنَّ من أشدِّ ما يقطع على طالب العلم طريق تحصيله هو الإيغالُ في البحث عن إجابةٍ لسؤال الوسائل، فإيَّاك وإيَّاه، وغالبُ من رايتُهم من أشدَّاء طلاب العلم ساروا في طلبهم بلا منهج في الترقي على نحو ما تحويه الخطط المنهجية التي ازدحمت بها كتب المعاصرين والمواقع الشَّبَكيَّة، وإنما لم أقل (كل من رأيت) تخفيفًا للدهشة!

وليس معنى ذلك أنهم ساروا متخبِّطين، لكنهم لم يسيروا وَفْقَ برنامجٍ مُعلَّبٍ مقدَّم من غيرهم، بل نظروا في حقيقة العلم وصنعوا وسائلهم حسب ظروفهم وطباعهم وقدراتهم لنوال ثمرته.

أمَّا من صرف زهرة طلبه في ملاحقة سؤال الوسائل، فهو بذلك إنَّما يسير نحو سرابٍ من العلم يظن فيه حياةً لطلبه، حتى إذا جاءَه لم يجده شيئا.





(صِنَاعَتُنَا هَذِهِ مِنَ المَهْدِ إِلَى اللَّحْدِ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتْرُكَ عِلْمَنَا هَذَا سَاعَةً فَلْيَتْرُكْهُ السَّاعَةَ)

محمَّدُ بن الحَسَن (١٨٩هـ)



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

«أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرُ اللهِ، وَمَا وَالاَهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ».

أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «جَامِعِهِ» (٢٣٢٢).

(١)

العلمُ باتِّساع فنونه وانتشار موضوعاته يَفرِض على طالب العلم أن يكونَ واعيَ التحصيل بصيرَ التلقِّي، وكثيرٌ من طلاب العلم يملكون الكثيرَ من القدرات والأدوات والأوقات، لكنَّ هذا الكثيرَ يتيهُ حينما يفقد الطالبُ ذلك الوعي وتلك البصيرة، فإن فقدانهما مما يعثِّرُ التحصيلَ ويُعسِّرُه، (وبخاصَّةٍ في هذا العصر الذي أصبح الوقت فيه نَهْبًا مقسَّمًا بين مطالب المدنيَّة وتعقيدات الحضارة، فلا يبقى لراغب العلمِ فيه والثقافةِ إلَّا اليسير من زمنه ليفرغ فيه لما نصب نفسه له، فأصبح بذلك في حاجةٍ ملحَّةٍ إلى ما يُمَكِّنه من تحصيل الكثير في اليسير من الزمن، وإلى ما يُذَلِّلُ له الاضطلاع بالبحث الطويل الدَّقيق في الوجيز من الوقت)[1].

(١) من مقدمة تحقيق عبدالسلام هارون لكتاب «الحيوان» للجاحظ (١: ٣٦).

ومن هذا الوعيِ أن يَعرِض الطالبُ نفسَه على مسالك الطَّلَبِ وملكاتِه لينظرَ في حظِّه منها، والغفلةُ عن ذلك تُفقِدُه كثيرًا مما كان خليقًا به أن يتمثَّلَه، وقد لا يشعرُ بذلك، ولا يشعرُ بفقده ذاك الشعورَ، (فإنَّ الشعورَ بالشيء غيرُ الشعور بالشعور) كما يقول الغزالي (٥٠٥هـ)[1].

وطالبُ العلم في قراءتِه وحفظِه وغشيانِه مجالسَ العلم أوَّلَ طلبه يطلب تحصيل مادَّة العلم، تصوُّرًا وتصديقًا، فهو في كلِّ علمٍ يسعى ابتداءً في تلقُّف موادِّه وتحصيل مسائله ودلائله .. هذه مرحلةٌ أولى في طلب العلم، ولهذه المرحلة ملكاتٌ إذا حصَّلها وراضَ نفسَه بها كانت أرضَ بنائه العلمي صلبةً لا تزيلها عن صلابتها عَوَادي الأيام، ومن أخصِّ ملكات هذه المرحلة: قوَّةُ الحفظ، وحسنُ الفهم، وسرعةُ التصوُّر وسلامتُه.

تعقُبُها مرحلةٌ يُعنى فيها بدَرْسِ ما جمعه، ثم ينطلقُ إلى ما وراء ذاك المجموعِ ملاحقًا بقيَّةَ المسائل والدَّلائل بحاسَّةٍ متجدِّدَةٍ تجمَعُ وتقوِّمُ وتستثمرُ، وها هنا ملكاتٌ تتخلَّق وتنمو متى ما التفتَ إليها الطالب وجدَّ في تحصيلها ورعايتها، ومن أخصِّ تلك الملكات: التَّحليلُ، والتَّركيبُ، والمقارنةُ، والتقويمُ.

ثم تأتي مِن بعد ذلك مرحلة الإنتاج بملكاتها من حُسنِ الإبانة عن العلم، وجَودَةِ تصويره، وفِقهِ تعليمه، وإتقانِ كتابته وتدوينه.

وليس من لازم هذا التوزيع لهذه الملكات أن تستقلَّ كلُّ مرحلةٍ بملكاتها، فلا يخلو الطالب في مبتدأ طلبه من تحليلٍ ومقارنةٍ وتقويمٍ، كما لا يخلو في

(١) المستصفى (٢: ٣٣١).

المراحل اللَّاحقة من حفظٍ وفهمٍ وتصوُّرٍ، لكنَّ القصدَ من هذا الفصلِ الإشارةُ إلى أنَّ كمَّ ذلك وكيفَه يختلف باختلاف ظروف الطالب العلمية، فمن جهة الكمِّ يكون في أوَّلِ أمرِه أكثرَ عنايةً بالجمع منه على أن يكون دارسًا مستشكِلًا، ومن جهة الكيف فليس الجمع في أوَّلِ التَّحصيلِ كالجمع آخرَه، فالجمعُ في أوله لا يرتهن غالبًا لقواعدَ تميِّز بين رُتَبِ المسائل، بخلافه آخرَه حيثُ يكون الجمعُ موجَّهًا، لا سيَّما إن كان الطالبُ قد توفَّر على علم من العلوم وأراد التخصُّصَ فيه، فلا يكاد يحفِل من المسائل إلا بما تعلَّق بتخصصه، كما هي حال الفرَّاء (٢٠٧هـ) فيما حكاه عنه هنَّاد السري (٢٤٣هـ)، بقوله: (كان الفرَّاء يطوف معنا على الشيوخ، فما رأيناه أثبتَ سوداءَ في بيضاءَ قَطُّ، لكنه إذا مرَّ حديثٌ فيه شيءٌ من التفسير أو متعلِّقٌ بشيء من اللُّغة قال للشيخ: «أعِدْه عليَّ»، وظنَّنا أنه كان يحفظ ما يحتاجُ إليه)[١].

وإذًا، فهذا الفصل بين المراحل تجريديٌّ يُرادُ به تصوُّرُ وظيفةِ كلٍّ منها، لا أن تكون كلُّ مرحلةٍ ناسخةً لملكات ما قبلها، ولا أن تكون السابقةُ عريَّةً عن ما بعدها، فإن هذا من شأن الأجسامِ لا العقول، فإنَّ وارداتِ العقولِ تتكامَل، وطوارئَ الأجسامِ تتزاحم، فإذا قَبِلَ الجسمُ صورةً وشكلًا كالتربيع مثلًا فليس بإمكانه قبولُ شكلٍ آخرَ من تدويرٍ وتثليثٍ حتى يفارقَ شكله الأول، وليس كذلك العقل، ففي كل مرحلة تحصيلية تزداد صورة العلم في عقل الطالب قوَّةً وتمكُّنًا، وتتنامى ملكاتُه ولا تتبدَّل، (ولهذه العلَّةِ يزدادُ الإنسانُ فهمًا كلَّما ارتاضَ وتخرَّجَ في العلوم والآداب)[٢]، ولذلك

(١) إنباه الرواة للقفطي (٤: ١٤).

(٢) تهذيب الأخلاق لمسكويه (٥).

كانت كل مرحلة علمية تُمِدُّ ما بعدها من مراحل، وليست كذلك الأجسام فإنها تطرد غيرها وتنسخ ما قبلها.

والقصدُ مما تقدَّم أن يمتحنَ الطالب مسيرته بما حصَّله من ملكات العلم وصناعاته، لا أن يسيرَ في طلبه على غير هدًى، فليست الغايةُ أن يكون سالكًا فحسب، لكن في أن يبلغ بقدمَي تحصيلِهِ ذُرَى التحقيق العلمي والنبوغ المعرفي.

(٢)

إذا فَقِهَ الطَّالبُ تلك المداراتِ العامَّةَ لمراحل التحصيل، وأدرك تشعُّبَ العلم واتساعَ آماده، فإنَّ عليه أن يوطِّئَ أكناف عزمِه وهمّه لتقحُّم عقباتِه، ويأخذَ من المجاهدة والمصابرة بحظٍّ وافرٍ، فإنَّ المسيرةَ العلميَّةَ حافلةٌ بالمشاق، مُتْرَعَةٌ بالهموم، ولا تأتي على طالب العلم مرحلةٌ إلَّا والتي بعدها أشقُّ منها، وقلَّ ما تراه يخلِّفُ عقبةً من البلاء إلا صار في أخرى، فحتى ولو كان معتدلَ المسير في ابتداء طلبه إلا أنَّ (أواخر الأمور لا تبقى على وَفْقِ طلب أوائلها، بل تنسَلُّ عن الضبط)[1]، وهذا مع ما يُلحِقه من همٍّ يملأ قلبَه ويُعَنِّي عقلَه إلَّا أنَّه أمارةُ تقدُّمٍ علميٍّ، فكلَّما اشتدَّ عودُ الهموم العلميَّةِ بطالب العلم كان ذلك دالًّا على صدق طلبه، وعونًا له على الإيغال في تحصيله، ولو يعلم طلَّابُ العلم ما في الهمومِ العلميَّةِ والمشاقِّ المعرفيَّةِ

(١) الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (٢٩٩).

ثم لم يجدوا إلَّا أن يستهموا عليها لاستهموا، ولَأتوها ولو حبْوًا، ولَضجَّت قلوبهم إلى الله تعالى أن يكرمهم بالمزيد منها، فـ (الهمومُ مُقَدِّماتٌ - في أحيانٍ كثيرةٍ - لنعمٍ مخبوءةٍ)[1]، وكلَّما تضاءلَ الهمُّ واضمحلَّ فترتْ عزائم الطلبة، وكلَّتْ سواعد عقولهم، ونضبتْ مياه أمانيهم .. والشأن كما يقول أبو الطيِّب (٣٥٤هـ):

(يَخْلُو من الهَمِّ أخلاهُم من الفِطَنِ)

وإذا انطوى فؤادُ طالب العلم على ذلك وامتلأ به يقينُه فليعلَمْ أنَّ جمعَ الهمِّ على العلم وتجريدَه له مقدمةُ التَّحصيل وخاتمتُه، و(لا شيءَ يُنالُ - طال الفكرُ فيه أو قَصُر - إلَّا بتجريد الفكر في جهة الطلب)[2].

والعلمُ عزيزٌ، ومن عزَّته نفرتُه من الهموم المشارِكة، ولا سيَّما هموم الدنيا وسطوة الأحداث المحيطة، وكلَّما كان الطالبُ أملَكَ لهمِّه كان أحظى بالنبوغ في علمه، فلا بُدَّ له من حيازة همه وجمع خاطره، فإن (رأس ماله جمعُ الخاطر، وإجمامُ القلب، واستعمالُ الفكر)[3]، ومن هنا ففلاحُ طالب العلم مرهونٌ بمدى استطاعته على تقليص هموم دنياه والتقليل من نفوذ محيطه عليه، وحين يطالع السير والتراجم بحثًا عن أحوال العلماء للاقتداء بنهجهم فلا يقفْ بصرُه عند حدود الأوصاف المثبَتَة بالحروف، بل لِيتعَدَّ إلى ما وراءَ ذلك، إلى انصرافِهم عن الهموم المتشاكسة، والنَّأيِ بأنفسهم

---

(١) رسائل الرافعي (١٥٧).

(٢) البرهان للجويني (١: ١٥٦ - ف: ٦٨).

(٣) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة (٨٩).

عن الاستغراق في الأحداث المحيطة، فقد كانت بين أئمة العلم والهموم الدنيوية والأحداث المحيطة بهم مسافةٌ فاصلةٌ، تُطوى حينًا وتُـمَدُّ أحيانًا، وما حصَّلوا تلك المسافة إلا لأنهم يملكون ذواتهم، وبذلك نالوا من العلم ما نالوا.

كان الإمام الخليل بن أحمد (١٧٠هـ) يقول: (إني لأغلق عليَّ بابي، فما يجاوزُه همّي)[١]. ولذلك بلغ أنْ كان الخليل .. لكنَّنا - و يا للأسى - لا أبوابَ لنا!

ولما سئل أبو حنيفة (١٥٠هـ): بِمَ يُستعانُ على حفظ الفقه؟ قال: (بجمع الهمِّ)[٢]. فـ(هيهات أن يجتمع الهمُّ مع التلبس بأمور الدنيا .. هيهات! والله لا يجتمع الهمُّ والعينُ تنظرُ إلى الناس، والسمعُ يسمعُ حديثَهم، واللِّسانُ يخاطبُهُم، والقلبُ متوزِّعٌ في تحصيل ما لا بُدَّ منه)[٣]، والقلبُ إذا عَلِقَ كالرَّهْنِ إذا غَلِقَ.

ولما أخذ الجاحظ (٢٥٥هـ) في المفاضلة بين الحفظ والاستنباط بيَّنَ افتراقَهما، ولكنه أعقبَ ذلك ببيان أنَّ ما يُستعان به عليهما متَّفَقٌ عليه، وهو فراغ القلب، فقال: (طبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط، والذي يُعالجَان به ويستعينان عليه متَّفَقٌ عليه، وهو فراغُ القلب للشيء والشَّهوَةُ له، وبهما يكون التَّمامُ، وتظهر الفضيلة)[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٧: ٤٣١).

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي (١٩٢).

(٣) صيد الخاطر (٣٦٨).

(٤) رسائل الجاحظ (٣: ٣٠).

ولِـمَا لفراغ القلب وجمعية الهمّ من أثرٍ بالغ في تجويد التحصيل (استحبَّ السلف التغرُّبَ عن الأهل، والبُعدَ عن الوطن، لأنَّ الفكرة إذا توزَّعتْ قَصُرَتْ عن درك الحقائق وغموض الدقائق ... ومما يقال عن الشَّافعي أنه قال: «لو كُلِّفتُ شراءَ بصلةٍ ما فهمتُ مسألةً»)[1] .. ومن هنا كان (جمع الهم أصل الأصول)[2].

لا يتحدَّثِ الطالبُ عن رَمَقِ هذا الزمان، وتزاحمِ همومه، وتواترِ مشغلاته، واضطرابِ أحواله، لكن لِيَنظُرْ في مسافاته، فالأحداثُ الآن كهي في الزَّمَنِ الغابرِ، لكنَّ المسافاتِ ليست كالمسافات!

ويرحمُ الله تاجَ الدينِ السبكيَّ (٧٧١هـ) الَّذي أدرك ما ينبغي أن يُملأَ به وقتُ طالب العلم، ويُجمَعَ عليه همُّه، فبقلبٍ مِلْؤُهُ الضَّنُّ بِهَمِّ طالب العلم أن يُصرَفَ عمَّا خُلِقَ له قال بعد أن أورد طرفًا من أخبار التتار وجنايتهم على أهل الإسلام: (ومن النَّاس من أفرد التصانيف لأخبارهم، وَيَكْفِي الفَقِيهَ مَا أوردناه، فأوقاتُ طالبِ العلمِ أشرفُ أن تضيعَ في أخبارهم إلَّا للاعتبار بها)[3].

ومِن قبله قال إمامُ الدنيا أحمد بن حنبل (٢٤١هـ): (الاشتغال بهذه الأخبار القديمة يقطع عن العلم الذي فُرِضَ علينا طلبُه)[4].

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة (٨٧-٨٨).

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي (١٩٢).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى (١: ٣٤٢).

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢: ٢٢٨).

جمعُ الهم إذًا هو الخلاصُ لطالب العلم من مطرقةِ تشعُّب العلم وسندانِ الأحداث المحيطة، وهو الشَّرطُ الذي بتخلُّفِه تنحلُّ عُرى التَّحصيل العلمي.

ومن أشدِّ موانع الهمِّ من الانجماع والعلمِ من الاجتماع: تقطُّعُ التحصيل وتعثُّرُه، فالعلمُ يحتاج من طالبه مواظبةً ليرتاضَ به، بذلك ينجمعُ همُّه، ويثبتُ علمُه، وتُضبَطُ معارفُه .. فمَن ثَبت نَبت[1]، وإلاَّ فما أسرعَ علمَه إلى الأفول ونَبْتَهُ إلى الحطام! فإن (إهمال ساعةٍ يُفسِدُ رياضةَ سنةٍ)[2]، ولاتِّقاءِ ذلك فعلى طالب العلم أن يعتادَ العلم ويديمَ النظر فيه ويألفَ ملابسته، أيًّا كان نوع الملابسة، تعلُّمًا وتعليمًا، قراءةً وحفظًا، سماعًا وحضورًا.

قال برهان الدين المرغيناني (٥٩٣هـ): (إنما غلبتُ شركائي بأنِّي لم تقعْ لي الفترةُ والاضطرابُ في التَّحصيل)[3].

ويقدر اتصال الطالب بالعلم وارتباطه بمصادره تدنو منه مسائلُه، وتتهادى إليه حقائقُه، ويكونُ حضورُها في ذهنه أبقى، لمواظبته عليها وارتياضه بها، والشأنُ كما قال الجاحظ (٢٥٥هـ): (إنما فرَّق بين أصحاب الصناعات وبين من لا يُحسِنها: التزيُّدُ فيها، والمواظبةُ عليها)[4].

---

(١) اقتباسٌ من قول أبي حنيفة: (ثبتُّ عند حماد بن [أبي] سليمان فنَبَتُّ). انظره في: تعليم المتعلم للزرنوجي (٤٨).

(٢) الأخلاق والسير لابن حزم (١٠٦)، رسائل ابن حزم (١: ٣٥٣).

(٣) تعليم المتعلم للزرنوجي (١٠١). وهي فيه: (على شركائي)، ولعلَّ الصواب ما أثبتُّه، وهو كذلك في بعض الطبعات.

(٤) رسائل الجاحظ (٢: ١٧٧).

فكلَّما كان الطالبُ أكثرَ مراسًا للعلم وأشدَّ معالجةً له كان أمكنَ فيه وأحذقَ له ممن لم يبلغ رتبته من المعالجة، وهذا شأنُ المعارفِ كلِّها، فإنَّ للمختصِّ بها المعالجِ لها من الإحاطة بلُبِّها وأطرافها ما ليس لغيره، ولو كان هذا الغيرُ أعظمَ استعدادًا وأرجحَ أهليَّةً، (ولهذا كان غالبُ النَّاسِ عالـمًا بأفعال الصلاة، لتكرُّرِ أفعالها عليهم في اليوم واللَّيلة خمسَ مرَّاتٍ، بخلاف أفعال الحج، فإنَّ صبيانَ مكَّةَ شرَّفها الله تعالى أعلمُ بها من كثيرٍ من فقهاء الآفاق المبرزين في العلم، لِدُرْبةِ أولئك الصبيان بها دونهم)(١).

ثم إنَّ اتصالَ الطالب بالعلم هو القيدُ الذي يحفظ به علومه متى ما شدَّ قيدَه برِباط الاعتياد، وقد قضى أبو بكر القفال المروزي (٤١٧هـ) أربعين عامًا لا يعرفُ من العلم إلا اسمَه، وليس له به اشتغال، ثم رغبت نفسه في العلم، وذهب إلى أحد الأشياخ، وعرَّفه رغبتَه، فلقَّنه أوَّلَ جملة من كتاب المزني، وهي: (هذا كتابٌ اختصرتُه) .. عاد القفَّال إلى بيته ورَقَى سطحه، وكرَّر هذه الجملة ليحفظها، وقد كان حينها لا يعرف الفرق بين ضم تاء الضمير وفتحها، وعن ذلك قال: (ابتدأتُ التعلُّمَ وأنا لا أفرِّقُ بين «اختصرتُ» و«اختصرتَ»)(٢). كرَّر تلك الجملة ليلةً كاملةً، ثم غلبتْهُ عيناه ونام، ولما استيقظ فإذا بها قد ولَّت .. نَسِيَها!

ضاق صدرُه وقال: (أيشٍ أقول للشيخ؟!).

عاد إلى شيخه، وكاشفه بما جرى، فلم يسخط عليه، بل أوصاه بما صار

---

(١) شرح مختصر الروضة للطوفي (٢: ٦٨٤).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٥: ٥٤).

به القفَّالُ (٤١٧هـ) أحدَ أركان المذهب الشافعي، معتَمَدَ الطريقة الخراسانيَّة والقائمَ بأعبائها، وذلك حين قال له: (لا يصدَّنَّك هذا عن الاشتغال، فإنَّك إذا لازمتَ الحفظَ والاشتغالَ صار لك عادَةً)[1].

ونِعْمَ الوصيَّةُ هذه، فالملازمة سبيل الاعتياد، والاعتيادُ قَيدُ المحفوظات والمعلومات الهاربة، ولذلك كان أسد بن الفرات (٢١٣هـ) (لا يترك كلَّ يومٍ إذا أصبح أن يحفظَ شيئًا، وإن قَلَّ)[2].

وممن فَقِهَ منزلةَ الاعتياد وارتاض بها فانجمع همُّه للعلم وتوفَّر وقتُه للتحصيل: شيخُ العراق أبو الحسن الكَرْخي (٣٤٠هـ)، حتَّى بلغت به الحالُ أنْ صار يطلب الاعتيادَ ذاتَه، ولو لم ينلْ منه تحصيلًا!

يبيِّنُ ذلك قولُه: (كنتُ أحضرُ مجلسَ أبي خازمٍ يومَ الجمعة بالغداة من غير أن يكون درسٌ، لئلَّا أنقضَ عادتي من الحضور)[3]. وهذا ضربٌ من التربية العلمية عزيزٌ، ينال به الطالب شرفَ جمعيَّة الهمِّ على العلم.

وكان تقيُّ الدين السبكي (٧٥٦هـ) ينهى أبناءَه عن نوم نصف الليل الآخِر، وكان يبغي بذلك ترويضهم على القيام في هذه الساعات الفاضلة، حتى قال ابنُه عبدالوهاب، التاج السبكي (٧٧١هـ): (كان ينهانا عن نوم النصف الثاني من الليل، ويقول لي: «يا بنيَّ، تعوَّد السَّهَرَ ولو أنك تلعب». والويل

---

(١) معجم البلدان لياقوت (٥: ١١٦).

(٢) الحث على طلب العلم للعسكري (٣١).

(٣) الحث على طلب العلم (٣٢) وأثبت في بعض طبعات الكتاب: (أبي حازم) بالمهملة، ولعل الصواب ما أثبتُّه، فهو أبو خَازم عبدالحميد بن عبدالعزيز السكوني البصري، ثم البغدادي الحنفي، توفي سنة (٢٩٢هـ).

كُلُّ الويل لمن يراه نائمًا وقد انتصف الليل)[1]. فانظر كيف يأمر أبناءه بشَغْل آخر الليل ولو باللعب، وما ذلك إلا تربيةً لهم على فضيلة الاعتياد.

وكما أنَّ تقطُّعَ التحصيل يمنع الهمَّ من الانجماع فكذا تنقُّلُه، فإنَّ تَنَقُّلَ التحصيل من كتابٍ لآخرَ قبل استتمام الأول - إن لم يكن باعثُه إلَّا المللَ وإخوانَه - يشتِّتُ الهمَّ ويُشَرِّد العلمَ، وكذا القولُ في التنقُّل بين المعلِّمين والفنون والوسائل.

قال برهان الدين الزَّرْنوجيُّ: (اعلم بأنَّ الصبرَ والثباتَ أصلٌ كبيرٌ في جميع الأمور، ولكنَّه عزيزٌ ... فينبغي أن يثبتَ ويصبرَ على أستاذٍ وعلى كتابٍ حتى لا يتركه أبترَ، وعلى فنٍّ حتى لا ينشغل بفنٍّ آخرَ قبل أن يتقنَ الأوَّلَ[2]، وعلى بلدٍ حتى لا ينتقلَ إلى بلدٍ آخرَ من غير ضرورة، فإن ذلك يفرِّقُ الأمور، ويُشغِلُ القلب، ويُضَيِّعُ الأوقات)[3].

(٤)

ها هنا تِقنِيَاتٌ يستعين بها الطالب على جمع الهم، وهي وُصْلَةٌ له إلى أن يكون كلُّ همِّه موقوفًا على العلم، منجمِعًا عليه، فإنَّ مِن طبائع الأشياء - ولا سيَّما ما تعلَّق منها بالعلم وتحصيله - ألَّا تأتيَ دَفعةً واحدةً، بل حتَّى تساعفَ بها الأيام، وتتآزرَ على تكوينها التجارِب المتعاقبة، وذلك أنَّ

(١) طبقات الشافعية الكبرى (١٠ : ٢٠٣).

(٢) الانفراد بتعلم فن دون شفعه بآخر، أو جمع فنين في آنٍ - وسائل في التحصيل تتفاوت بتفاوت الطلبة، وجوهر القصد أن لا يكون حظُّ الطالبِ من تحصيله التنقُّلَ بلا إتقان.

(٣) تعليم المتعلم (٥١-٥٢).

الخيرةَ لا تقع، واليقظةَ لا تستحكم، والطَّبعَ لا يرتاض = حتَّى تتصفَّحَ الأمورَ، وتتعقَّبَ الدُّهورَ، وتأخذَ نصيبَك من الاعتبار، وتبعثَ هِمَّتَك على محمود الاختيار)[1].

من تلك التقنيات: التركيز على الإنجاز اليومي بقطع النظر عن نهايات المشاريع، ومُنْجَزُ طالب العلم حينئذٍ يكون بما حصَّله في يومه، وأيُّ تفريطٍ واقعٍ في أيِّ يومٍ فهو معدودٌ من العثرات التي لا تُجبَر، وهذا التركيزُ يُقصِرُ به ويُشوِّشُ عليه كثرةُ انتقالِ بَصَرِ الطالب إلى مستقبل أيامه، لا سيَّما المشاريع الَّتي تمتد شهورًا أو أعوامًا، فإذا ما جعل مقياس مُنجَزِه العلميِّ راتبًا يوميًّا، كان في ذلك عونٌ له على حَفْزِ عزيمته وجَمْعِ همِّه كلَّ يوم، وهكذا حتى يرتاض بذلك، ويكون مؤهَّلًا من بعدُ لإدارة مشاريعه العلمية الكبرى.

ألْقِ ذِهنَك في جَعبة الماضي، وانظرْ في واقع بعض المشاريع: «التمهيد» لابن عبدالبر (٤٦٣هـ)، «تحفة الأشراف» للمزي (٧٤٢هـ)، «فتح الباري» لابن حجر (٨٥٢هـ)، «التحرير والتنوير» لابن عاشور (١٣٩٣هـ)، «الأعلام» للزِّرِكْلي (١٣٩٦هـ)، وغيرها .. لم تكن وليدةَ شهرٍ، ولا سنةٍ، ولكنها كانت خلاصةَ عُمُر، ومشروعَ حياة، وتعاقُبًا منتظِمًا لمنجَزَات الأيام[2].

نراها في نسختها الأخيرة فنعجَبُ من قدرة أصحابها التصنيفيَّة، لكنَّا لو نظرنا إلى تدرُّج تأليفها لعلمنا أنَّ رأسَ مال الإنجاز هو الجد والمصابرة والإنجاز المنتظم.

---

(١) أخلاق الوزيرين لأبي حيان التوحيدي (٤٧٠).

(٢) استغرق تأليف «التمهيد» ٣٠ عامًا، و«تحفة الأشراف» ٢٦ عامًا وشهرين وبضعة أيام، و«فتح الباري» ٢٥ عامًا وبضعة أشهر، و«التحرير والتنوير» ٣٩ عامًا و٦ أشهر، و«الأعلام» أكثر من ٦٠ عامًا.

نُقدِم على متنٍ ونسعى في وضع شرحٍ له، ومع ثاني فصوله تخور القوى، لأنَّا نريد أن يتمَّ لنا الشرحُ في بضع ليالٍ، ولو أنَّا صَرَفْنَا النَّظرَ عن النِّهايات، وأحكمنا العزم، وعاقدنا الصبر، وأخذنا أنفسنا بالإنجاز اليومي - ولو قَلَّ - لكانت النتيجة بعد حين مذهلة!

تخيَّل لو أنَّ لك في ثلاثةِ فنونٍ ثلاثةَ متونٍ تشتغل بشرحها، وفي كلِّ يومٍ تشرح ثلاثَ جُمَلٍ فقط من كل متن .. صدِّقني، لن تمضيَ عليك ستتان إلَّا وقد فرغتَ من ثلاثة شروح، وقُلْ مثلَ ذلك في الحفظِ والقراءةِ وغيرِها من نوافذ الإنتاج التحصيلي.

هذه حصيلة عامين، ترى فيها مكتوباتِك ومحفوظاتِك ومقروءاتِك تتضخَّم بما لم يخطرْ لك على بالٍ، فكيف إذا كان هذا سَمْتًا عامًّا في تحصيلك .. كم تأليفًا ستنجز، وكم متنًا ستحفظ، وكم كتابًا ستقرأ؟!

ولذلك، فلا تحدِّثني عن قدراتك الفائقة، وآمالك الكبرى، وخططك المستقبلية .. **حدِّثني (فقط) عن إنجازك اليومي، فهو برهانُ آمالِك وعنوانُ نهاياتِك.**

قال أحمد أمين (١٣٧٣هـ): (قليلٌ من الزمن يُخصَّص كلَّ يومٍ لشيءٍ معيَّنٍ قد يغيِّرُ مجرى الحياة، ويجعلُكَ أقومَ مما تتصوَّر وأرقى مما تتخيَّل)[١].

وقال مارون عبُّود (١٣٨١هـ): (إنَّ ساعةً تُنتَزَعُ كلَّ يومٍ من ساعات اللَّهْوِ وتُستَعمَلُ فيما يفيد تُمكِّنُ كلَّ امرئٍ ذي مقدرةٍ عقليَّةٍ أن يتضلَّعَ من علمٍ بتمامه)[٢].

---

(١) فيض الخاطر (٣: ٨٥).

(٢) حبر على ورق (١٧٢).

ولما سئل عبدالرحمن بدوي (١٤٢٣هـ) عن سِرِّ إنتاجه الغزير أجاب بقوله: (الذي أشكو منه أحيانًا هو الفراغ، لا تتعجَّبْ، يكفي أن يعملَ الإنسان بجدٍّ أربعَ ساعاتٍ في اليوم قراءةً وكتابةً إلى جانب أعماله اليوميَّة لكي يُنتِجَ أضعافَ ما أنتجتُ، كما هو مشاهدٌ في تاريخ الفكر العربي والأوروبي، خُذْ مثلًا إنتاج كلٍّ من الطبري وابن سينا في الثقافة العربية، وقبلهما أرسطو في الثقافة الأوروبية، تجدْ إنتاجَهم ضخمًا جدًّا بالقياس إلى كتابات غيرهم من أصحاب الإنتاج الغزير.

المهمُّ في جميع الأحوال هو الاستفادةُ التامَّةُ من الساعات المخصَّصة للعمل، وذلك بالتركيز التام، وحشد الخاطر، ثم المثابرة دون انقطاع، سواء في الكتابة أو القراءة، ولنتصوَّر مثلًا أن يكتب الإنسان في اليوم صفحتين أو ثلاثًا، ففي خلال أربعين سنة يكون قد أنتج أكثر من مئة كتاب، وفي خلال ستين سنة يكون قد أنتج أكثر من مئة وخمسين كتابًا!)[1].

(٥)

ومن تلك التقنيات: الانقطاعُ المرحليُّ إلى مشروع علمي متكامل يحقِّق به طالب العلم قفزةً معرفيَّةً في أحد مجالات العلم والمعرفة، وإنَّ من الفاضل لطالب العلم أن يدُسَّ في أعطاف مشاريعه العلمية بين زمنٍ وآخرَ قفزةً معرفيَّةً ذاتَ مبدأٍ ومنتهًى يُحقِّقُ بها مُنجَزًا معرفيًّا مكتملَ الأركان، أيًّا ما كانت ماهيَّة تلك القفزات، قراءةً أو حفظًا أو تأليفًا أو تعليمًا.

(١) عبدالرحمن بدوي فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام لـ د. سعيد اللاوندي (١٦٣-١٦٤).

وخاصَّةُ هذه القفزات أنها تجعل موقعَ المشروع من ذهنيَّة طالب العلم ذا حظوةٍ، لتماسكه بسبب قرب إنجازه واتضاح حدوده، وهي كذلك تروِّضُه تدريجيًّا على الانقطاع للعلم وجمع الهم عليه.

وقد درج كثيرٌ من أعلام المعرفة على ذلك، وجعلوا للقفزات المعرفيَّة موقعًا في خارطة تحصيلهم، فنالوا بانقطاعهم لها مكتسباتٍ جليلةً، وأنا أذكر لك ثلاثةَ نماذجَ شاهدةً على ذلك:

■ عبدالعزيز الميمني الراجكوتي (١٣٩٨هـ):

دَرَسَ العلَّامة الميمني أوَّلَ طلبه للعلم بعضَ علوم العربية، لكنه لم يحظَ بإتقانها، حتى جابهه أحدُ طلبة العلم بسؤال عن وَزنِ كلمتين ومعناهما، فلم يُجِبْه واعترف له بجهله وقلة معرفته، فعيَّره السائل بأنه إذا لم يعرف هاتين الصيغتين فلا حاصلَ له في الترقِّي إلى الكتب الفخمة.

قال الميمني: (أنا أرى كلمتَه هذه نقطةَ الانتقال في حياتي العلميَّة، وذلك أنني بقيت في بعض زوايا المدرسة أفكر في شأني، وأنني غريب بـ«دِهْلِي» عن الأبوين والوطن، وقد أضعتُ ثلاثةَ أعوامٍ من دون أن أعرف الكلمة التي علَّمنيها الشيوخ، قد وثقت تمام الثقة أن لن يحصلَ لي من هؤلاء الشيوخ كبيرُ فائدةٍ، وأنِّي لن أستفيدَ في المستقبل شيئًا إلَّا إذا ما جعلتُ شيخي نفسي، ولا أراجع أحدًا منهم، وأجعل حجي رايةً وأخطو إلى الإمام، ولن يتأتَّى ذلك إلا إذا ما فرغتُ عمَّا أنا في صدده من جميع النواحي، فأذكر أنني انتخبت «فصول كبرى» - كتابٌ في الصرف كالشافية - وجمعتُ نحوَ ثلاثة شروح، كنتُ آخذُ فصلًا أو بابًا من الفصول، وكنتُ أفكر في معناه وتفسيره

غاية التفكير، ثم أراجع هذه الشروح الفارسية، فإذا ما قضيتُ حاجتي منها أراجع هذا الباب بعضه في «شافية» ابن الحاجب بالعربية، وربما أزيد في ذلك بمراجعة بعض شروح «الشافية» أيضًا، بحيث أنني كنت أرى نفسي عارفةً بهذا الباب خاصَّةً، فكنت بهذه الصورة أفرغ كلَّ يوم من باب من الأبواب، ولعل كتابنا «فصول كبرى» لا تزيد أبوابه [عن] ثلاثين، فكأني بهذه الصورة فرغتُ من جميع كتب الصرف في ثلاثين يومًا، ولا وقصَ ولا شطَطَ)[1].

■ محمود الطناحي (١٤١٩هـ):

لما تحدث الطناحي عن بواكير اشتغاله بالتحقيق ذكر أنه كان يعمل مع نفرٍ من المستشرقين، ومن أولئك د. هانس روبرت رويمر (١٤١٨هـ)، أحدُ المستشرقين الألمان، فقد عمل معه في تحقيقه لكتاب «الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر» لابن أيبك الدواداري (بعد ٧٣٦هـ).

قال الطناحي: (في أثناء قراءتي معه للنص جاء هذا البيت:

مَـلِـكٌ مُـنـشِـدُ الـقـريـضِ لديه
يـضـعُ الـثَّـوبَ في يَـدَيْ بَـزَّازِ

فسألني ذلك المستشرق: من أي بحرٍ هذا البيت؟ فأطرقتُ إطراقةً بلهاء، تَبِعَتها ضحكةٌ أشدُّ منها بلاهةً. فقال لي المستشرق منكِرًا متعجِّبًا: طالبٌ بدار العلوم، متخرجٌ من الأزهر، لا يعرف العَرُوض؟

(١) بحوث وتحقيقات للميمني (١: ١٩-٢٠).

فكأنَّما ألقمني الرجل أحجارَ «إِمْبَابَةَ» كلَّها، وعدتُّ إلى بيتي خاسئًا حسيرًا، أجرُّ رجلي جرًّا من الزَّمَالِك، حيث يقع المعهد الألماني للآثار، إلى داري بالدَّرْبِ الأحمر خلفَ دار الكتب المصرية آنذاك، وما إن وصلتُ إلى بيتي مهدودًا مثقَلًا بعناء الخيبة والمشي الطويل حتى هُرِعْتُ إلى صندوق الكتب الدراسية القديمة، واستخرجتُ منه كتاب «المذكرات الوافية في عِلمَي العروض والقافية» لمؤلفه الشيخ عبدالفتاح شراقي رحمه الله، وهو ما كان مقرَّرًا علينا في الأزهر، وانكببتُ عليه لا أكادُ أديرُ وجهي عنه صباحَ مساءَ، وما هي إلَّا أسابيعُ قليلةٌ حتَّى لانت لي البحور، واستقرَّت أنغامُها في أذني، وامتلأ بها سمعي، ثم كان ما كان من رحلتي الطويلة مع تحقيق النصوص، ومن أدواته معرفةُ علم العَرُوض .. وهكذا من انقطع إلى شيءٍ أتقنه)[1].

وعلمُ العَروض علمُ قَفْزَةٍ، كما قال شعبان الآثاري (٨٢٨هـ) في مطلع ألفيَّه العَروضيَّة:

وَالأُدَبَــا تَـقُــولُ: «عِـلْـمُ شَهْرِ»
وَحَـسْرةُ الإِنْسَانِ طُـولَ الدَّهْرِ[2]

وقد تلقَّى ابن حجر (٨٥٢هـ) عن بدر الدين البشتكي (٨٣٠هـ) علمَ العروض في مجلسٍ واحدٍ، قرأ عليه شيئًا من مقدمة عروضية سهلة التناول، وقال: (استفدتُّ منه معرفةَ الفَنِّ بكماله)[3].

---

(١) في اللغة والأدب (١: ١٨١-١٨٢).

(٢) الوجه الجميل في علم الخليل (البيت رقم: ٣٢).

(٣) الجواهر والدرر للسخاوي (١: ١٣٩-١٤٠).

■ عبدالوهاب المسيري (١٤٢٩هـ):

بعد تخرُّجه من مدرسة «دمنهور» الثانوية انتقل المسيري إلى «الإسكندرية»، ولما ذهب إلى قسم اللُّغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب في جامعة الإسكندرية صُدِم بأن الجميع كان يتحدث باللُّغة الإنجليزية، وحتى المصريون الخُلَّص كانوا أجانب، إذ كانوا لا يعرفون العربية على حد قوله، ولكنه لم يقف مكتوف اليدين، بل قرر أن يدخل تحدِّيًا معرفيًا يتجاوز فيه عقبة جهله باللُّغة الإنجليزية ليتمكن من المسير في هذا القسم بلا تعثُّر .. قال متحدِّثًا عن نفسه:

(قررتُ التحرُّكَ بسرعةٍ لأكتشفَ الآليَّات الجديدة المطلوبة لتحقيق البقاء، وأهمها إجادة اللُّغة الإنجليزية، فحبستُ نفسي في غرفة لمدَّة شهرٍ كاملٍ، لا أسمع إلا الإذاعات المتحدثة بالإنجليزية، ولا أقرأ سوى الجرائد والمجلات الإنجليزية، وعُدتُّ بعد الفصل الدراسي الأول وقد تملكتُ ناصية اللُّغة بشكل أدهش أساتذتي!)[١].

(٦)

قال أبو هلال العسكريُّ (٤٠٠هـ): (اجتهدْ في تحصيل العلم لياليَ قلائلَ، ثمَّ تذوقْ حلاوة الكرامة مُدَّةَ عمرك، وتمتَّع بلذَّة الشرف فيه بقيَّةَ أيامك، واستَبْقِ لنفسِك الذِّكرَ به بعد وفاتك)[٢].

---

(١) رحلتي الفكرية (١٣٠).

(٢) الحث على طلب العلم (٥).

لتكنْ وصيَّةُ أبي هلالٍ هذه نصب عينَيْ مُرِيدِ القَفَزات، ثمَّ ليعلَمْ أنَّ للقفزاتِ فقهًا ينبغي عليه مراعاته لتؤتي قفزتُه ثمرتَها .. وفقهُها مجسَّدٌ في ثلاثة أمور:

الأول: لتكنْ في كل قفزةٍ محدودَ المصادر، ولا تشتِّت قفزتك بكثرة منافذ المطالعة، فالانقطاع المرحلي بحاجة إلى مزيد تركيزٍ وتكثيفٍ للنظر في مساحات محدودة، فإذا عزمتَ على حفظ «عمدة الأحكام» فخُذْ «كشف اللثام» للسفَّاريني (١١٨٨هـ) أو «العُدَّة في شرح العمدة» للعطَّار (٦٧٢هـ)، وإذا نهضتَ لـ«بلوغ المرام» فلا تجاوزْ «فتحَ ذي الجلال» لابن عثيمين (١٤٢١هـ)، وإذا طمعت في ذَوْق «مستصفى» الغزالي (٥٠٥هـ) فأدنِ منك مصدرًا أو مصدرين، ولْيكُن مثلًا «الإحكامَ» للآمدي (٦٣١هـ) مع «شرح مختصر الروضة» للطوفي (٧١٦هـ)، ولا تَزِد.

الثاني: أعِدَّ مُتَّكأً القفزة بعناية، أبلِغ في ترتيبه وتطييبه، خلِّصه من مكدِّراتِ العصر، ووسائلِ التواصل الاجتماعي، افعلْ كلَّ ما يعينك على نجازِ مشروعك، ولو كلَّفك الكثير، ولا تكن شحيحًا، فـ (الاقتصاد الصحيح أن تنفق في ما تحتاج إليه كلَّ مبلغٍ مهما يكنْ كبيرًا، وإيَّاك أن تشتري شيئًا لا تحتاج إليه مهما يكن متدنيًّا) قاله عمر فرُّوخ (١٤٠٨هـ) نقلًا عن عمِّه حسين[1].

الثالث: لتكنْ أيَّامُ قفزتِك كالشركاء المتشاكسين، يقايض بعضُها بعضًا .. لا تُجرِ بينها عقودَ تبرُّع، ولك في أجزاء يومِك مندوحةٌ عن بسط

(١) غبار السنين (٤٤).

اليد السفلى لبقيَّة الأيام .. إذا فاتك نصيبُ الفجرِ فأدِّه الظهرَ، أو نصيبُ العصر فأدِّه المغرب، ولا توجِّل، فإنما سَيلُ العثرات اجتماعُ نُقَطِ التأجيل.

(٧)

إنَّ من أكبر ما يواجه طالب العلم في هذا الزمن كثرة الصوارف التي تشعِّب همومه وتصرفها عن العلم، الدُّنيويَّة منها والمعرفِيَّة:

أمَّا الصَّوارفُ الدنيويَّةُ فكم رأينا من طلبةِ علمٍ تخطَّفتهم يدُ الدنيا بزخرفها وماديَّاتها، فأقبلوا عليها، ونبذوا ما حصَّلوه من علمٍ وراءَ ظهورهم، ولو أنهم بلغوا من العلم غايتَه وذاقوا بمعاناة حقائقِه لذَّتَه لاستغنوا، فإن (من وجد لذَّةَ العلم والعمل به قلَّما يرغبُ فيما عند الناس)[١]، ولكنَّ بريقَ دنياهم أسْرَعَ مِن تخطُّفِهم ولم يَلْقَ منهم غَيرةً على علمٍ ولا تحصيلٍ، فـ (لعنَ الله دنيا تُختارُ على استفادة العلوم)[٢].

بل إن العلمَ الحقَّ هو الذي يباعد بين الطالب ودنياه، فإذا كان العكس دلَّ ذلك على ارتباكٍ في نيتِه وصدقِ قصده، ولذلك قال سفيان (١٦١هـ): (ما ازدادَ عبدٌ علمًا فازدادَ في الدنيا رغبةً إلَّا ازدادَ من الله بُعْدًا)[٣].

وإن لم تتخطَّفهُ يدُ الدنيا عن العلم كان أهونَ ما يصيبه منها إذا سار بخاطره مع شعابها أن تكدِّرَ عليه صَفْوَ تحصيله، وتَظْلِمَ من فهمِه ودرايتِه.

---

(١) تعليم المتعلم للزرنوجي (٤١).
(٢) إنباه الرواة للقفطي (١: ٢٦٠).
(٣) مسند الدارمي (١: ٣٥٨ - رقم: ٣٩٨).

ولما سُئِلَ أبو حيَّانَ التوحيديُّ (٤١٤هـ) عن ابن زرعة المتفلسف (٣٩٨هـ) - وهو عالمٌ نصرانيٌّ، عُني بالترجمة، وبرز في المنطق والفلسفة - أجاب بقوله: (هو حَسَنُ الترجمة، صحيحُ النقل، كثيرُ الرجوع إلى الكتب، محمودُ النقل عن العربية، جيِّدُ الوفاء بكل ما جاء في الفلسفة، ليس له في دقيقها منفذٌ، ولا له من لغزها مأخذٌ، ولولا توزُّعُ فكرِه في التجارة ومحبَّتِهِ في الربح، وحرصُهُ على الجمع، وشِدَّتُهُ على المنع = لكانت قريحتُه تستجيبُ له، وغائمتُه تدُرُّ عليه، ولكنَّه مبدَّدٌ مُندَّدٌ، وحبُّ الدنيا يُعمِي ويُصِمُّ!)[1].

وسُئِلَ عن ابنِ السَّمحِ (٤١٨هـ) أحدِ مناطقة بغداد، فهوَّن من أمره، وذكر أن تهالكَه على الكسب، واستفراغَه خالصَ عقله في ذلك ممَّا حَطَّ من مرتبته، ثم قال: (والقلبُ متى لم يُنَقَّ من دَنَسِ الدنيا لم يَعبَقْ بفوائح الحكمة، ولم يتفوَّحْ بِرَدْعِ الفلسفة، ولم يقبلْ شُعَاعَ الأخلاق الطاهرة المفضية إلى سعادة الآخرة)[2].

وقد كان من دعاء الإمام عبدالرحمن بن القاسم (١٩١هـ): (اللَّهمَّ امنعِ الدُّنيا منِّي، وامنعني منها بما منعتَ به صالحي عبادك)[3].

وإنَّ من أكبر ما يفتِن بعض طلبة العلم في هذا الزمان أنهم يرمقون بأبصارهم دنيا غيرِهم، فيكون في ذلك فتنةٌ لهم، ولو أنهم قصروا الطَّرْفَ على ما هو جديرٌ بأن يُقصَرَ الطَّرفُ عليه لعلموا أن هذه الدنيا بكل ملذَّاتها لا تعدل لذَّةَ مسألة من مسائل العلم تكشَّفتْ للطالب حقائقُها ودقائقُها.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة (١: ٣٣).

(٢) الإمتاع والمؤانسة (١: ٣٤).

(٣) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٣: ٢٥١).

والشَّأنُ كلُّه في اغتراب الطالبِ عن لحظتِه الحاضرة ليشهد بعيني بصيرته عزَّ العواقب.

قال الشوكاني (١٢٥٠هـ) في كلامٍ طويلٍ حقيقٍ بأن يكتب بماء الذهب: (ما أحسنَ ما حكاه بعضُ أهل العلم عَن الحكيم أفلاطون، فإنه قال: «الفضائلُ مُرَّةُ الأوائل حُلْوَةُ العواقب، والرَّذائلُ حُلْوَةُ الأوائل مُرَّةُ العواقب». وقد صدق، فإنَّ مَن شغل أوائل عمره وعنفوان شبابه بطلب الفضائل لا بُدَّ أن يفطِمَ نفسَه عن بعض شهواتها، ويحبسَها عن الأمورِ التي يشتغل بها أترابُه ومعارفُه من الملاهي ومجالس الرَّاحَة وشهوات الشَّبَاب، فإذا انتهى إليه ما هم فيه من تلكَ اللَّذَّات والخلاعات وجد في نفسه بحكم الشباب وحَدَاثة السِّنِّ ومَيْلِ الطَّبع إلى ما هناك مرارةً، واحتاج إلى مجاهدةٍ يرُدُّ بها جامحَ طبعه ومتفلِّتَ هواه ومتوَثِّبَ نشاطه، ولا يتمُّ له ذلك إلا بإلجام شهوته بلجام الصبر ورباطها بمربط العفة. وكيف لا يجد مرارة الحبس للنفس مَن كان في زاويةٍ من زوايا المساجد ومقصورةٍ من مقاصر المدارس، لا ينظر إلَّا في دفترٍ، ولا يتكلم إلَّا في فنٍّ من الفنون، ولا يتحدَّثُ إلَّا إلى عالمٍ أو متعلِّمٍ، وأترابُه ومعارفُه من قرابته وجيرانه وذوي سنه وأهل نشأته وبلده يتقلَّبون في رافِهِ العيش ورائِقِ القَصْفِ.

وإذا انضمَّ لذلك الطالب - إلى هذه المرارة الحاصلة له بعزف النفس عن شهواتها - مرارةٌ أخرى هي إعواز الحال وضيق المكسب وحقارة الدخل فإنَّه لا بُدَّ أن يجد من المرارة المتضاعفة ما يعظم عنده موقعه، لكنَّه يذهب عنه قليلًا قليلًا.

فأوَّلُ عقدةٍ تنحَلُّ عنه من عُقَدِ هذه المرارة عندما يتصوَّرُ ما يؤول به الأمرُ وينتهي إليه حالُه من الوصول إلى ما قد وصل إليه مَن يجدُه في عصره من العلماء.

ثم تنحَلُّ عنه العقدةُ الثَّانيةُ بفهم المباحث وحفظ المسائل وإدراك الدقائق، فإنه عند ذلك يجد من اللَّذَّةِ والحلاوة ما يذهب بكل مرارة.

ثم إذا نال من المعارف حظًّا وأحرز منها نصيبًا ودخل في عداد أهل العلم كان متقلّبًا في اللَّذَّاتِ النَّفسانيَّةِ التي هي اللَّذاتُ بالحقيقة، ولا يعدم عند ذلك من اللَّذات الجسمانية ما هو أفضل وأحلى من اللَّذات الَّتي يتقلَّب فيها كلُّ مَن كان من أترابه.

وهو إذا وازن بين نفسه الشريفة وبين فردٍ من معارفه الذين لم يشتغلوا بما اشتغل به اغتبط بنفسه غاية الاغتباط، ووجد من السرور والحبور ما لا يُقادَرُ قدرُه)[1].

وأمَّا الصَّوارفُ المعرفيَّةُ، فهي تلك التي تحيد بالطالب عن صلب العلم إلى هوامشه، فتراه مرةً غارقًا في كتب الأدب، ومرةً ملاحقًا سجالاتِ الفكر، وثالثةً في السير الذاتية ودواوين التراجم، ورابعةً في جوامع المقالات، ووو .. وليس له من طلب ما يحقِّقُ مشروعَه إلَّا الفُتَات!

وكثيرٌ ممن سقط في وَحَلِ صوارف الهوامش المعرفية يوقنُ بضرر هذا السبيل، لكنَّه لا يتحمل مرارة الصبر على لأواء علم الشريعة، فيفرُّ منه

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب (١١٩-١٢٠).

إلى غيره من مستراح الأدبِ والفكرِ وماجَرَياتِ الواقع .. لا ينقصُه تصوُّرُ خطأ هذا الطريق، لكنه يفتقر إلى قرارات حاسمة.

نَعَم، ينبغي لطالب العلم ألَّا ينسحبَ عن واقعه فيدخلَ ذلك بالنقص على تصوراته، فإنَّ من مقاصده في تحصيل العلم أن يكون له بعد حينٍ أثرٌ في واقعه بصرف النظر عن امتدادِ ذلك الأثر أو تقلُّصِه، فعليه حينئذٍ أن يحيطَ بشيءٍ مما يجري حوله، ليكونَ على بَصَرٍ بالواقع الذي يعيش فيه شخصُه ويتحرَّك فيه علمُه، ولكن ليكنْ من ذلك على حَذَر، فربَّما جرَّتِ الواقعةُ أو القضيَّةُ أختَها حتى تجتالَ طالب العلم عمَّا هو فيه من تحصيل، فلا بُدَّ أن يُعنَى بضبط نفسه وإحكام تعامله مع واقعه وقضاياه، ولذلك طرائقُ تتفاوت بتفاوت الطلبة، وهذا ضربٌ يخضع لسياسةِ الطالب نفسَه ومدى قدرتِه على ضبط تحرُّكِه، وهو أبصر بما يصلح لجامًا لتحصيله.

من تلك الطرائق مثلًا التَّمييزُ في التَّعاطي مع الواقع بين التحصيل والإنتاج، بحيث تتسع دائرة تحصيله لمطالعة ما يتعلَّق بواقعه، ولكن إنتاجَه يُقصَرُ على اهتماماته العلمية، وسبب ذلك أن الإنتاج له تَبِعاتٌ، فإن الذي يتَّصل بواقعه بكتابةٍ أو غيرِها فلا بُدَّ وأن يكون لإسهامه ذاك رجعُ صدًى، فيظلُّ يلاحِقُ ما أنتجَه، وينظرُ في ما لاقاه من رَدَّاتِ فِعْلٍ، سؤالاتٍ كانت أو ردودًا أو غيرها، وهكذا حتَّى يستوليَ ذلك على وقته، ويطغى على تفكيره، وإذا شَخَصَ طالبُ العلم برأسه في غير شأنه فما أسرَع أن تُسحَبَ أقدامُه من تحته ليُلقَى بها في أوديةٍ نائيةٍ عن تخصصه العلمي.

ومن رأيته يميِّز بين مجالَي التحصيل والإنتاج الدكتور إحسان عباس (١٤٢٤هـ) أحد أعلام المحققين والأدباء المعاصرين، وقد تحدَّث عن تجربته في ذلك، فقال:

(أنا أعرف أن المثقفين في عصري كانوا يتحدثون في القضايا الساخنة، وفي حرية التعبير، وحرية المرأة، والاتجاه الإسلامي والماركسي، والحداثة وما بعد الحداثة، وسيطرة الرأسمالية والعولمة و... عشرات من القضايا الأخرى. لقد كان شعاري أن لا أكتب في شيءٍ خارجٍ عن اختصاصي وما أثق فيه بمعرفتي ووضوح تصوُّري، لقد كنت أغذِّي هذا الجانب لديَّ بالقراءات المستفيضة، ولكني كنتُ أُحجِمُ عن تناوله بالبحث والكتابة، ورحم الله امرءًا عرف حدَّه فوقف عنده)[1].

وإذا كان اشتغالُ طالب العلم بهوامش المعرفة وما كان منها واقعًا خارجَ بيته العلمي مضرًّا بمسيرِه، مشتِّتًا لعزمه وهمِّه، فانظر إلى ولاية القضاء، وهي تتعلق بجوهر العلم، وتحفز القاضي على مزيدٍ من البحث والتفتيش في مدونات الفقه، ولكنها لما كانت تشغلُ القاضي عن تحصيله العلمي، وتقصُرُ بحثَه ونظرَه على ما يكون محلَّ خصومات الناس = استحبَّ له بعض أهل العلم ألا يطيل المكث في القضاء، حتى روي عن أبي حنيفة (١٥٠هـ) أنه قال: (لا يُترَكُ القاضي على القضاء إلَّا حولًا، لأنه إذا اشتغل بالقضاء ينسى العلم، فيعزله السلطان بعد الحول ويستبدل به حتى يشتغل بالدرس)[2].

---

(١) بحوث ودراسات في الأدب والتاريخ (١: ٥).

(٢) الاختيار لتعليل المختار للموصلي (١: ٢٥٥).

وقد قال الأدفوي (٧٤٨هـ) عن ابن دقيق العيد (٧٠٢هـ) مع علوِّ مقامه وفرطِ إمامته: (لو حيل بينه وبين القضاء لكان عند الناس أحمدَ عصره، ومالكَ دهره، وثوريَّ زمانه، والمتقدِّمَ على كثيرٍ ممن تقدم، فكيف على أقرانه؟! على أنه عزل نفسه مرَّةً بعد مرَّةٍ، وتنصَّل منه كرَّةً بعد كرَّةٍ، والمرءُ لا ينفعه الحذر، والإنسانُ تحت القضاء والقدر، كان يقول: «والله ما خار اللهُ لمن بُلِيَ بالقضاء»)[1].

وقال الشوكاني (١٢٥٠هـ) عن مباشرة الخصومات لما تولى القضاء: (استغرقتْ في ذلك جميع الأوقات إلا لحظات يسيرة قد أفرغتُها للنظر في شيء من كتب العلم، أو لشيء من التحصيل وتتميم ما قد كنتُ شرعتُ فيه، واشتغل الذهنُ شغلة كبيرة، وتكدَّر الخاطر تكدُّرًا زايدًا)[2].

فإذا كان هذا في ولاية القضاء، وهي - كما علمتَ - متعلِّقةٌ بصلبِ العلم ومحكَمِه، فكيف هي الحالُ في المعارف الصارفة عن جوهر العلم؟!

هذا، وإنَّ ممَّا يعزِّزُ هذه الصوارف المعرفية ويُذْكِي نارَها: وسائلُ التواصل الحديثة بمختلف أشكالها، فهي تفرض على طالبِ العلم الملابسِ لها نمطًا من المعارف الـمُلَحِيَّة التي تناسب الفضاء العام، فتستهلك وقته وجهده، حتى لا يكادُ يبصِرُ من العلم إلَّا ما كان منه على وِزَانها ومِسَاحتها، فحتَّى لو جمع همَّه على العلم، فإنه يجمع همَّه على نوعٍ من المعارف العجفاء التي لا تُنْقي.

---

(١) الطالع السعيد (٥٩٦).

(٢) البدر الطالع (٥٠٣).

أضِفْ لذلك ما نراه من تناثر أشلاء هموم الطلبة في فضاءات الناس العامَّة، والهمُّ لا يؤتي أُكُله إلَّا إذا كان أسيرَ محيطِ صاحبه، وإلَّا كان حظُّه من الهمِّ إذاعتَه.

*****

يفتقدُ طالب العلم في هذا الزمان ذلك المحيط الطاهر، يوم أن كان يدرُجُ إلى مكتبته، يقرأ ويحفظ ويكتب دون أن يعلم به أحد، دون أن «يغرِّد» بفائدة من هذا الكتاب أو ذاك، دون أن يصوِّرَ صفحات مما بين يديه من الكتب ليزج بها في أحد مجموعات المحادثة «الواتسبية» أو القنوات «التِّلِقْراميَّة»، دون أن يشتغل قلبه بالتفكير في طرق إعادة إنتاج ما يحصِّله عبر برامج التواصل الحديثة .. كانت تلك اللَّحظات من أشد لحظات تحصيله طهرًا وصفاءً، كانت النيَّةُ أحسنَ تجردًا، والهمَّةُ أكثرَ صدقًا، والهمُّ أمكنَ انجماعًا، والعزيمةُ أكثرَ نفوذًا.

كان الوقتُ خالصًا للطلب والتحصيل، خالصًا لمتين العلم، قبل أن تكدِّر صفاءَه برامج التواصل .. والآن، فقد اضطرَّه الأمر إلى أن يكون كلُّ شيءٍ مكدَّرًا لا صفاءَ فيه، شائعًا لا خصوصيةَ فيه، أو هكذا أحبَّ له أن يكون.

كان (الخروج) جامعَ المعوقات عن التحصيل، فإذا أغلق الطالبُ دونه بابَ مكتبته تخلَّص بذلك من كل العوائق .. والآن، فقد أصبحتْ حياتُه كلُّها خروجًا، ولو كان في جوف كتابه.

ولا يؤرِّقني شيءٌ حين أجرِي خاطري مع هذا الموضوع كما يؤرِّقني التأمُّل في المآلات، ورميُ البصر إلى عواقب الأمور، ولطالما تذكرت قول عروة بن الزبير (٩٤هـ): (إنَّا كنا أصاغرَ قوم، ثم نحن اليومَ أكابرُ، وإنَّكم اليوم أصاغرُ قومٍ، وستكونون كبارًا، فتعلَّموا العلمَ تسودوا به قومَكم، ويحتاجون إليكم)[1].

أدرَكَ عُروَةُ ذلك، فجمع همَّه وتوفَّر على العلم حتى بلغ الإمامة فيه، لكنَّ طالبَ العلم إن ظلَّ على ما هو عليه من هذا الجَزْيِ مع ما يصرفه عن مشروعه فلن تفترق حاله في كِبَرٍ ولا صِغَرٍ، ولن يبلغ من علم الشريعة مبلغًا يبلغ التحقيق فيه، ويحتاجه الناس حينَها، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه (٣٢هـ): (عليكم بالعلم، فإنَّ أحدَكم لا يدري متى يَفتقرُ أو يُفتَقَرُ إلى ما عنده)[2].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (١: ٣٠٩).
(٢) السنة للمروزي (٩٦).



(يَنْبَغِي لِمَنْ يُحِبُّ العِلْمَ أَنْ يَفْتَنَّ فِي
كُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ العُلُومِ، إِلَّا أَنَّهُ
يَكُونُ مُنْفَرِدًا غَالِبًا عَلَيْهِ مِنْهَا عِلْمٌ،
يَقْصِدُهُ بِعَيْنِهِ وَيُبَالِغُ فِيهِ)

المبرِّد (٢٨٥هـ)



قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي خَبَرِ مُوسَى ﷺ وَفَتَاهُ:

«... حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ، فَرَأَى رَجُلًا مُسَجًّى عَلَيْهِ بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ: أَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى. قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: يَا مُوسَى إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ».

أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (١٢٢)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٨٠) فِي «صَحِيحَيْهِمَا».

(١)

(فردٌ واحدٌ لا يستطيع أن يستوعبَ نتائجَ العلوم لكثرتها وتشعبها، وفردٌ واحدٌ هو الذي ينبغي أن يتوصَّل إلى كَشفٍ علميٍّ أو نظريةٍ واحدَةٍ لتفسير النتائج التي توصَّلت إليها العلوم المختلفة)[١].

بهذه الخلاصة المكثَّفَة يطرح عبدالوهاب المسيري (١٤٢٩هـ) معادلةً معرفيَّةً شديدةَ الإعضال، معادلةً لا ينبغي مجاوزتها بفتور حين النظر والبحث في رُتَبِ العلم وأجناسِه، وهي من جهةٍ أخرى تبيِّنُ طبيعة الإشكال الذي يكتنف ثنائيَّةَ التخصُّص/ التوسُّع، الثنائيَّةَ التي ألقت بظلالِ تأثيرِها على مساحات شاسعة من مناهج التحصيل ومسالكه.

---

(١) رحلتي الفكرية (٢٧٣).

هذه المعادلة تمثل إشكالًا وعزًا لمناصري كلِّ طرفٍ في هذه الثنائيَّة، فبما أنَّ علومَ الشريعة روابطُ متصلةٌ، (يتعلَّق بعضها ببعض، ولا يستغني منها علمٌ عن غيره)[1]، فلا يمكن تسجيل نتيجة فيها والمرء متعلق برابطة دون أخرى، وفي الوقت نفسه فإنَّ من العسير جدًّا أن يُشرِفَ المرءُ على كافَّة الرَّوابط، بَلْهَ التحقُّقَ من صدقها واختبار سلامتها .. نحنُ إذًا أمام ضرورتين: ضرورة التوسُّع، وضرورة التخصُّص!

(٢)

التاريخ العلمي يُوقِف المطالع على تفسير نشوء المفاهيم ومراحل تطورها، ومن هنا كان أداةً رئيسةً لفهمها وتحليلها وتقويمها، كما أنَّ العلمَ بإشكال المفاهيم يُعَدُّ أداةً مُثلى لتحريض الذهن على معالجتها والبحث في أغوارها، لأنَّ العلمَ بإشكالها يحرِّك الذهن إلى مطلوب، وبفراغ الذهن عن أيِّ استشكالٍ تتوقَّف حركته .. لأيِّ شيءٍ يتحرَّك؟!

ومفهوم التخصص من تلك المفاهيم التي اتَّسم البحث فيها بضعف الإحاطة بتاريخها وإشكالها، ولأنه من المفاهيم الفاعلة في مختلف الحقول العلمية، فقد تباينت الرؤى حوله وفي مدى الحاجة إليه، بل امتدَّ البحث فيه ليبلغ محزَّ النظر في مشروعيَّته المنهجيَّة، وما ذلك إلا لكون مفهوم التخصص لم ينضبط عند المختلفين فيه، سواء كان ذلك لأسبابٍ خارجةٍ عن ماهية المفهوم متعلقةٍ بتاريخه، أو لأسبابٍ داخليَّةٍ تتعلق بإشكال مفهوم التخصص وتمثيله معادلة صعبة ليس من الهيِّن حلُّها.

(١) رسائل ابن حزم (٤: ٨١).

وحتى نقترب من نظرة سواء عن التخصص فلنمهِّد بأنَّ من المعلوم أنَّ مصدرَ العلومِ كلِّها هو الوحي، ولم يكن المسلمون في العهد الأول يعرفون هذه العلوم بتصنيفها الحالي، بل كانت العلومُ عندهم لحمةً واحدةً، ووشائجَ مترابطةً، والعلمُ كان هو الفقهَ في الدين بشتَّى موضوعاته، وإنْ كانت بعض العلوم تتمثَّل على هيئة اهتمامات عند بعض علماء الصحابة رضي الله عنهم، فلمعاذ بن جبل (١٨هـ) اختصاصٌ بالحلال والحرام، ولابن عباس (٦٨هـ) اختصاصٌ بالتفسير، ولزيد بن ثابت (٤٥هـ) اختصاصٌ بالفرائض، وهلمَّ جرًّا .. لكنَّ هذه الاختصاصات كانت في ذهنيَّةِ ذلك العهد تُمثِّل اهتمامًا بموضوعاتٍ داخلَ علمٍ، ولم تكن تظهر بصفتها اختصاصاتٍ تُحيِّز هذه الموضوعات لتكون علومًا مفردَةً بمناهجَ مستقلَّةٍ.

يمكننا القول بأن التخصص في هذه الحقبة لم يكن قسيمًا للتوسُّع، لأن مفهوم التوسُّع مرتبطٌ بمفهوم المصادر وتعدُّدها، والمصادرُ حينذاك منضبطةُ المفهوم، ولم تكن إلَّا الكتابَ والسنَّةَ، فلم تكن ثنائية التخصُّص/ التوسُّع حاضرةً على هيئةٍ متضادَّةٍ، لأنَّ وحدةَ المصدر وانضباطَه في عهد الصحابة كان يقتضي من عالمهم وطالبهم أن يتجه إليه بكلِّيَّته وإن أرخى فكرَه ووسَّع نظرَه في جوانبَ منه.

أمَّا في الأزمنة التي تلت زمنهم فقد صار للمصدر الموحَّد فيها فروعٌ مولَّدةٌ، وهذا ما حَدَا ببعضهم إلى أن يستقلَّ بفرعٍ اغترارًا بتحيُّزه عن مصدره الأصل، ولظنِّهِ إمكانيَّةَ التحقيق فيه إذا ما اعتزل به، وهنا مربط الفرق.

أمّا لماذا تولّدت هذه الفروع المصدريّة واستقلّت، فللجواب عن ذلك جملةُ معطياتٍ كان لمجموعها إسهامٌ في نشوء هذه الفروع، أو بعبارة أدق: إسهامٌ في استقلالها، وإلّا فنشوءُها مرتبطٌ بنشوء المصدر الأم، وما هي إلّا تمثّلاتٌ لجوانبَ منه.

من تلك الأسباب اشتهارُ بعض العلماء بعلومٍ معيَّنةٍ مع درايتهم بغيرها إلّا أنَّ طلابهم عُنُوا في المقام الأول بالنَّهل مما اشتُهِر به أشياخُهم، ولذلك تجد مثلًا جمهورَ الأحرف المنقولة عن ابن عباس رضي الله عنه (٦٨هـ) متعلقةً بالتفسير، وجمهورَ ما نقِل عن عليٍّ رضي الله عنه (٤٠هـ) متعلّقًا بالفقه، مع إمامة ابن عباس في الفقه وإمامة عليٍّ في التفسير، وهذا التمايزُ الكمّيُّ له أثرٌ ولا بُدَّ في التصنيف العلمي، وذلك ساعد في اتساع رقعة التخصصات المختلفة، فكان لابن عباس مدرسةٌ تفسيريّةٌ مكيّةٌ، وكان لعليٍّ مدرسةٌ فقهيّةٌ كوفيّةٌ.

ثمَّ إنّه مع مرورِ الأزمنة وتعاقبِ الأجيال ظهرتْ على السطح ثغراتٌ علميّةٌ استدعت سدَّها بإحالة العلوم التي كانت في العهد الأول مَلَكاتٍ لتكون صناعاتٍ، ففسادُ اللّسان أفضى إلى تصنيع علوم اللّغة، واختلال نظام الاستدلال أفضى إلى تصنيع علم أصول الفقه، وبدءُ فشوِّ الكذب كان تمهيدًا لتصنيع علوم الحديث.

وهذه العلوم في حقيقتها غاياتٌ من الوحي أو وسائلُ إليه، فلم تكن يومًا أجنبيّةً عنه، لكنَّ تأخُّرَ تدوينِها وتصنيعِها أفرزه نضوبُ الملكات عند أهل الزمان اللّاحق، فلم يكن تدوينها في أول الأمر فضولًا واختيارًا مسرَّحًا عن قبضة الحاجة، بل كان سدًّا لثغرة واستجابةً لِـمُثير.

أين السبيل إلى الخلاص من إعضال هذه المعادلة؟

كلَّما تعقَّد المفهوم لديك فاضرِبْ على وتر التمييز بين مراتبه، وأنزِل كلَّ مرتبةٍ منزلتَها التي تستحقها، فما انضبط لديك فاعتمده، وإلا فسرِّحه إلى بقعة الإمكان، وإذا نظرنا في ثنائية التخصُّص/ التوسُّع وما كان عليه علماء الإسلام فلا يمكننا أن نصادم التاريخ ونطلق القول بأن طريقة السلف كانت هي التوسُّعَ العلميَّ وعدمَ الاعتراف بهذه الحدود العلمية والصناعات المعرفية، كما لا يمكننا إطلاق القول بأن طريقتهم هي التخصص العلمي المحض، بل كانت ثنائية التخصُّص/ التوسُّع خاضعةً لاعتباراتٍ نسبيةٍ تمتزج فيها القدرة الذهنية بالحاجة المعرفية بالحقل العلمي بيئةً وطلابًا وعلماءَ، ويمكننا من حيثُ الإجمال تقرير أمور:

الأمر الأوَّل:

أنَّ العلماءَ كلَّهم مقرُّون باتساع العلم، وتشعُّب أوديته، وأنَّ أحدًا ليس بمقدوره التسلُّطُ على شتَّى مسائله بالفقه والدراية، ولذلك تنوعَّت كلماتهم في حلِّ هذا الإعضال بحسب المحذور الذي انقدح في أذهانهم.

فمنهم من قدَّر أن اتساع العلم ربَّما أدَّى ببعض الطلبة إلى المسارعةِ في تحصيله والعَبِّ منه لتطويقه، فتكلَّم بما يرشِّد هذا التحصيل المتعجِّل، وأنَّ العلمَ لا يتطامَنُ لمثل هذه المسارعة والمعاجلة، ومن أولئك الإمامُ الزهريُّ (١٢٤هـ)، فقد قال ليونس بن يزيد (١٥٩هـ): (يا يونس .. لا تكابرْ

هذا العلم، فإنما هو أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خُذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذِ العلمَ جملةً، فإنَّ مَن رام أخذه جملةً ذهب عنه جملةً، ولكن الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام)[1].

ومنهم من قدَّر أن اتساع العلم ربَّما أغرق الطالب في لجحه، وقذف به في مَهَامِهِ أوديته، فأوصى بأن يتجه اهتمامه إلى أنفعه، ولذلك قال حبر الأمة ابن عبَّاس رضي الله عنه (٦٨هـ): (العلمُ أكثر من أن يُحصَى، فخذوا من كلِّ شيءٍ أحسنَه)[2].

وفي هذا السياق يقول ابن الجوزي (٥٧٩هـ): (رأيتُ الشَّرَهَ في تحصيل الأشياء يُفَوِّتُ على الشَّرِهِ مقصودَه). ولما ضرب لذلك مثلًا في العلم وتحصيله قال: (فإن قال قائل: أليس في الحديث: «منهوما ن لا يشبعان: طالبُ علمٍ وطالبُ دنيا»؟ قلتُ: أمَّا العالم فلا أقول له: اشبعْ من العلم، و لا: اقتصرْ على بعضه. بل أقول له: قَدِّم المهم، فإنَّ العاقلَ من قدَّر عمرَه وعَمِل بمقتضاه، و إن كان لا سبيل إلى العلم بمقدار العمر، غير أنه يبني على الأغلب، فإن وصل فقد أعدَّ لكلِّ مرحلةٍ زادًا، وإن مات قبل الوصول فنيَّته تسلك به)[3].

وقال في موضعٍ آخرَ: (اعلم أنه لو اتَّسع العمر لم أمنعْ من الإيغال في كل علمٍ إلى منتهاه، غير أنَّ العمرَ قصيرٌ، والعلمَ كثيرٌ)[4].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (١: ٣٥٩).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١: ٣٦٣).

(٣) صيد الخاطر (١٨١-١٨٣).

(٤) صيد الخاطر (٤٤٢-٤٤٣).

ومنهم من أوصى طالب العلم بأن يُعنى بدقائق العلوم لئلّا تضيع، فإنّ اتِّساعَ العلوم رُبَّما جرف الطالبَ عنها، وأغراه بمجانبتها، وفي ذلك يقول الشافعي (٢٠٤هـ): (من تعلَّم علمًا فليدقِّق فيه، لئلّا يضيع دقيقُ العلم)[1].

ومنهم من قدَّر أنَّ اتساع العلم ربما أغرى الطالبَ بأخذ نُتَفٍ من جوانبه دون تحقيقٍ لمسائله، وأنَّ هذه النتفَ تكفي للوقوف على حقائق العلم، وأن ينال المرء منزلة العالِـمِيَّة، فدفعًا لمثل ذلك قال الخليل بن أحمد (١٧٠هـ): (إذا أردت أن تكون عالـمًا فاقصد لفنٍّ من العلم، وإن أردت أن تكون أديبًا فخُذْ من كلِّ شيء أحسنَه)[2].

ولما ترجم الذهبي (٧٤٨هـ) لابن الجوزي (٥٧٩هـ) مَسَّه بقوله: (ومع تبحُّر ابن الجوزي في العلوم، وكثرة اطلاعه، وسعة دائرته، لم يكن مبرِّزًا في علم من العلوم، وذلك شأنُ كلِّ مَن فرَّق نفسه في بحور العلم)[3].

الأمر الثَّاني:

أنَّ تمييزَ العلوم وتصنيفَها لم يكن محلَّ نقدٍ عند العلماء، فهو ضربٌ من التراتيب العلميَّة التي تقرِّبها الحاجةُ وتدنيها مظنَّةُ النَّفعِ والضبطِ، وإنما كان محلُّ نقدهم هو التوجُّهَ إلى علم من العلوم مع الإعراض عن سائرها، لأنَّ الإعراضَ فرعٌ عن الجهل بحقيقة هذه العلوم التي تحيَّزت، وأنها كانت كتلةً واحدةً، آخذًا بعضُها بِحُجَز بعضٍ، وإنما فتَّتها ما تقدَّم ذكره.

---

(١) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (١: ٣٧٧).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (١: ٤٢٦).

(٣) تاريخ الإسلام (١٢: ١١١١).

قال الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ): (حقُّ الإنسان ألا يترك شيئًا من العلوم أمكنه النَّظرُ فيه واتَّسعَ العمرُ له إلَّا ويَخبُرُ بشمِّه عَرْفَه، وبذوقِه طِيبَه، ثم إن ساعده القَدَرُ على التَّغذِّي به والتزوُّدِ منه فبها ونِعْمَت، وإلَّا لم يُعِرْ - لجهله بمحلِّه وغَبَاوتِه عن منفعته - إلَّا مُعَادِيًا له بطبعه)[1].

ومن الأخبار المليحة في ذلك ما حدَّث به سهل بن محمد السجستاني (٢٥٥هـ)، فقد قال: (ورد علينا عاملٌ من أهل الكوفة، لم أرَ في عُمَّال السلطان بالبصرة أبرعَ منه، فدخلت مُسلِّمًا عليه، فقال لي: يا سجستاني مَن علماؤكم بالبصرة؟).

فعدَّد عليه سهل بن محمد علماءَ البصرة، كلٌّ حسب تخصُّصِه، فطلب الكوفيُّ من كاتبه أن يجمعهم، فجمعهم من الغد، وأخذ الكوفي يسأل كلَّ عالم مسألةً خارجةً عن تخصُّصه، فلم يجيبوه بشيء، بل صرَّح كلٌّ منهم بعدم اختصاصه، فقال في ختم حلقة المساءلات هذه: (ما أقبح الرجلَ يتعاطى العلم خمسينَ سنةً لا يعرف إلا فنًّا واحدًا، حتَّى إذا سُئِل عن غيره لم يَجُلْ فيه ولم يَمُرَّ، ولكنَّ عالـمَنا بالكوفة الكسائيَّ لو سُئِل عن كلِّ هذا لأجاب)[2].

الأمر الثَّالث:

أنَّ العلومَ وإنْ كانت باديَ الأمر متَّحدةً فذلك لا يعني أنَّ كلَّ علمٍ لا يتأتَّى فهمُ مسائله إلَّا بالنظر في غيره، فإنَّ التمييز الحاصل بين العلوم كان

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (١٧٢). وقال ابن حزم (٤٥٦هـ): (نحن نوصي طالبَ العلم بأن لا يذمَّ ما جهل منها فهو دليلٌ على نقصه وقوله بغير معرفة) رسائل ابن حزم (٤: ٨١).

(٢) تاريخ مدينة السلام للخطيب البغدادي (١٣: ٣٤٩-٣٥٠).

تمييزًا واعيًا، ملاحِظًا للمصدر الأساسيِّ والفرع التخصُّصيِّ، ومن هنا أمكن أن يكون لكلِّ علمٍ اختصاصٌ بحدود منهجيَّة لا اعتباطيَّة، وبالتالي أمكنَ أن يكون لكل علمٍ مختصُّون قاصرون عن حذق باقي العلوم، والبحث هنا لا يتعلَّق بمدح ولا قدح، ولكنه توصيفٌ لِـمَا يمكن أن يَزِنَ النظرَ في مفهوم التخصص وإشكاله.

فهناك مساحاتٌ في كل علمٍ يمكن الإشراف عليها والتحقيق فيها مع قصور النظر والتحقيق في بعض العلوم الأخرى، كما أنَّ هناك مساحاتٍ لا يمكن التحذُّق فيها إلا بتجاوز حدود التخصص، أمَّا التحقيق في كل علم على وجه الكمال فلا يكون إلا باتساع النظر ليشمل سائر العلوم.

وإنما قرَّرت هذا الأمر لأنك تجد في علماء الإسلام مَن كان إمامًا في فنٍّ مع قصوره في علوم أخرى، وهذا وإن جرَّ النقص عليه في جوانبَ من أبحاث تخصُّصِه إلا أنه لم ينزِع عنه الإمامة فيه، وأنا أضرب لذلك مَثَلَيْنِ:

■ حمَّادُ بن أبي سليمان (١٢٠هـ):

فقيهُ العراق، أنبلُ أصحاب إبراهيمَ النخعيِّ (٩٦هـ)، وأقيسُهم، وأبصرُهم بالمناظرة والرأي، وهو شيخُ فقيه الدنيا أبي حنيفة (١٥٠هـ)، ومع إمامته في الفقه، وتواتر الثناء عليه في ذلك، إلا أنه لم يكن ذا باعٍ في الحديث، وليس الشأنُ في عِزَّة روايته، فإنه لم يكن مكثرًا منها لأنه مات قبل أوانها، لكنه كان ذا قصورٍ في الخبرة بالآثار ومعرفتها، حتَّى قال أبو حاتم الرازي (٢٧٧هـ): (هو مستقيمٌ في الفقه، فإذا جاء الأثر شوَّش)[١].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٥: ٢٣٤).

وهذا لم يكن قادحًا في إمامته الفقهية، لكنه أثَّرَ سلبًا في جوانبَ من فقهه لاشتراك أرضيَّة الرأي والأثر فيها.

■ إمامُ الحرمين الجوينيُّ (٤٧٨هـ):

شيخُ الشافعيَّة، وجوهرة الأصوليين، كان إمامًا في الفقه وأصوله، لا يُبارى، لكنه كان قليلَ البضاعة في الحديث، حتى قال عنه الذهبيُّ (٧٤٨هـ): (كان هذا الإمامُ مع فَرْط ذكائِه، وإمامتِه في الفروع وأصول المذهب، وقوَّة مناظرته = لا يدري الحديث كما يليقُ به، لا متنًا ولا إسنادًا)[1]. وعدم درايته بالحديث لم ينتزعْ عنه إمامته الفقهية والأصولية، وإن مسَّه ذلك بضربٍ من القصور فيهما.

(٤)

إذا تقرَّرَ أنَّ العلمَ أكبرُ من أن يحاط به، وأنَّ العلماءَ لأجل ذلك أوصوا طالبَ العلم بعدم مكابرته وعدم تَطَلُّبِ الاستيلاء عليه جملة واحدة، وأن يُعنى بأنفعه وأحسنه، وألَّا يضيعَ في مفاوزه حتى لا يُفوِّتَ عليه مقصوده منه، وأنَّ عليه إذا طلب أن يدقِّق، لئلَّا يضيع دقيق العلم، وأنَّه لن يبلغ أن يكون عالـمًا إذا كان يتخيَّرُ الأحسن من كل شيء، فهذا شأن الأدباء، وإنما العلم بتحقيق النظر في المسائل وتحريرها.

وإذا تقرَّر أنَّ من المعيب مع ذلك أن يُقبِلَ الطالبُ بكلِّيَّته على علمٍ مع الإعراض عن سائر العلوم.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٨: ٤٧١).

= إذا تقرَّر هذا وذاك، فما القدر المجزئ الذي يُحصِّلُ به طالب العلم الأنفعَ والأحسنَ، ويَبلُغُ به أن يكون عالـمًا، ويخرجُ به من معرَّة الإعراض المفضي إلى الجهل؟

يقدِّم ابن حزم (٤٥٦هـ) إجابةً واعيةً بحجم الإشكال، فيقول أوَّلًا:

(مَنِ اقتصرَ على علمٍ واحدٍ لم يطالعْ غيرَه أوشك أن يكون ضُحْكَةً، وكان ما خَفِيَ عليه من علمه الذي اقتصر عليه أكثرَ مما أدرك منه، لتعلُّقِ العلوم بعضِها ببعضٍ، وأنها دَرَجٌ بعضُها إلى بعضٍ[١].

ومَن طلب الاحتواء على كلِّ علمٍ أوشك أن ينقطِعَ وينحسِرَ، ولا يحصلَ على شيء، وكان كالمحضر إلى غير غاية، إذ العمرُ يقصُرُ عن ذلك).

ثم أجرى نظره ابتغاءَ حلٍّ للخروج من هذه المشكلة، فقال:

(ليأخُذْ من كلِّ علمٍ بنصيب، ومقدارُ ذلك معرفتُه بأعراضِ ذلك العلم فقط، ثم يأخذ مما به ضرورةٌ إلى ما لا بُدَّ له منه، ثم يعتمد العلمَ الذي يسبق فيه بطبعه وبقلبه وبحيلته، فيستكثر منه ما أمكنه، فربَّما كان ذلك منه في علمين أو ثلاثة أو أكثر، على قدر زكاء فهمه، وقوة طبعه، وحضور خاطره، وإكبابه على الطلب، وكلُّ ذلك بتيسير الله تعالى)[٢].

---

(١) قال ابن الجزري (٨٣٣هـ): (لا شكَّ عند كلِّ ذي لبٍّ أنَّ مَن تكلم في علم - ولو كان إمامًا فيه - وكان العلمُ يتعلَّقُ به علمٌ آخرُ، وهو غيرُ متقنٍ لما يتعلق به = داخَلَهُ الوهم والغلط عند حاجته إليه) منجد المقرئين (٤٦).

(٢) رسائل ابن حزم (٤: ٧٨).

فيميِّزُ ابن حزم (٤٥٦هـ) بين مرتبتين، التوسُّعِ والتخصُّصِ، ويجعل منهما مرتبتين متكاملتين لا متمانعتين، فلأنَّ العلمَ بحورٌ فليأخذِ الطَّالب من كل علم ما لا بُدَّ له منه، ولئلَّا يكون علمه مجرَّدَ إشرافٍ على ضرورات العلوم مع تنكُّب دقائقها ومحرَّراتها فليتوجَّه بهمِّه إلى جانبٍ من العلم، وليكن واحدًا أو اثنين أو أكثر، حسب طاقته، فيستكثر منه ما أمكنه.

ونحوهُ ما حكاه الجاحظُ (٢٥٥هـ) عن شيخِهِ أبي إسحاق النَّظَّام (٢٢٣هـ تقريبًا) أنه قال: (مَن أراد أن يعلمَ كلَّ شيءٍ فينبغي لأهله أن يداووه، فإنَّ ذلك إنما تصوَّرَ له بشيءٍ اعتراه! فمن كان ذكيًّا حافظًا فليقصِد إلى شيئين، وإلى ثلاثة أشياء، ولا ينزِع عن الدَّرْس والمطارحة، ولا يدعْ أن يُـمِرَّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالـمًا بخواصَّ، ويكون غيرَ غُفْلٍ من سائر ما يجري فيه الناس ويخوضون فيه)[1].

ويقدِّمُ مسكويه (٤٢١هـ) رؤيةً نافعةً فيما يتعلَّق بالقدر الذي يُتلقَّى من كل علم، فيقول: (المطلوبُ من كلِّ علمٍ هو الوقوفُ على كليَّاتِه التي تشتمل على جميع أجزائه بالقوة)[2].

فالذي يتلقاه الطالب إذًا ليس مجرَّدَ العناوين الكبرى، ولا رؤوس المسائل، بل الكليَّات التي من شأنها أن تكون كاشفةً للجزئيات، فيتعلَّم الكليَّات بالفعل، أمَّا الجزئيَّات المنتشرة فبالقوة القريبة.

ثم يضربُ مسكويه عَقِب ذلك مثالًا بعلم الطب، فيقول: (مثالُ ذلك

(١) الحيوان للجاحظ (١: ٥٩-٦٠).

(٢) الهوامل والشوامل (٢٦٩).

أنَّ الطبَّ إذا تُعُلِّمَتْ أصولُه وقوانينُه التي بها يُستخرَجُ نوعُ المرض ونوعُ العلاج فقد كفى فيه ذلك، فأمَّا أن يُعرَفَ منه جميعُ أجزاء الأمراض فذلك محالٌ).

ثم إنَّ التوسُّع - ولو بقدرٍ - من ضرورةِ اعتدالِ الطالب في نظره العلمي، وذلك ليدرك حقَّ اليقين أنَّ العلمَ أوسعُ دائرةً من ضِيقِ تخصُّصه.

يقول الجاحظ (٢٥٥هـ): (قد يكونُ الرجلُ يُحسِنُ الصِّنفَ والصنفينِ من العلم، فيظنُّ بنفسه عند ذلك أنَّه لا يحملُ عقلَه على شيءٍ إلا نَفَذَ به فيه!)[1].

وهذا من جناية التخصُّص المعزول على الطالب، حيث يظنُّ أنَّ خبرتَه بتخصُّصِه تمكِّنُه من مختلف مجالات المعرفة، فيستطيلُ بضيقِ تخصُّصِه على اتِّساعِ العلوم، فيأتي بعد ذلك بالعجائب.

ومن جهة أخرى فإن التخصص كثيرًا ما يحرِّض المتخصص على الإزراء بسائر العلوم وأهلها، كما قال تاج الدين السبكي (٧٧١هـ): (قلَّ ما رأيتُ سالكَ طريقٍ إلا ويستقبحُ الطريقَ التي لم يسلكْها، ولم يُفتَحْ له مِن قِبَلها، ويضع عند ذلك من غيره، لا ينجو من ذلك إلا القليلُ من أهل المعرفة والتمكين)[2].

وهذا - كما يقول ابن حزم (٤٥٦هـ) - (كثيرًا ما يعرِضُ لمبتدئٍ في علمٍ من العلوم، وفي عنفوان الصبا وشدة الحداثة)، ودواءُ مَن كانت هذه حالَه

(١) رسائل الجاحظ (٣: ٤٤).
(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٦: ٢٤٤).

أن يبيِّنَ له (أحد وجهين: إما نقصُ علمه الذي يتبجَّحُ به عن غيره من العلوم، أو فاقةُ علمه ذلك إلى غيره من العلوم، وأنَّه إن لم يُضِفْ غيرَه من العلوم إلى علمه كان ناقصًا لا ينتفع به كبير منفعة، بل لعله يستضرُّ به جدًّا)[1].

(٥)

إذا تشكَّلتْ بما مضى رويةٌ مقارِبةٌ يستطيعُ بها طالبُ العلمِ إدارةَ تحصيله في ظلِّ إشكاليَّة التوسُّع والتخصُّص، فها هنا بعضُ محكَمَاتٍ تصلح أن تكونَ تمامًا لتلك الرؤية:

■ **العلمُ بمظنَّة العلم:**

أيًا كان تخصُّصُ الطالب فلا بدَّ أن يكون خبيرًا بمظانِّ العلم، فهذا أمرٌ لا بد أن يستوي في الاعتناء به طلاب التخصصات كافةً، فالعلم لا يمكن أن يحاط بحقائقه وأطرافه، غير أنَّ الوقوف على مظانِّه ممكنٌ وإن كان عسيرًا، وليس القصدُ من مظانِّه أن يعلمَ طالبُ العلم الكتبَ الرئيسةَ في كلِّ علمٍ فحسب، فهذا مما يُدرَك بالورقة والورقتين، بل الشأن أن يَعلَمَ أين تُبحَثُ مشكلاتُ العلم ودقائقُه، ويَعلَمَ موقع كل كتاب من سلسلة مصادر العلم ومدى تأثره وتأثيره، وكيف يتعامل معها ويفيد منها، ويميِّز بين كتب الفن وأعلامه ومدارسه، فإن لذلك أثرًا في وزن مسائل العلم،

---

(١) رسائل ابن حزم (٤: ٨٦-٨٧).

وقد أوفى الطناحي (١٤١٩هـ) على الغاية يوم أن قال: (معرفةُ مظنَّة العلم نصفُ العلم)[١].

فليكن تخصُّصُ الطالبِ نصفَ علمِه، وليُفرِّق نصفَه الآخرَ بين سائر العلوم بضبطِ أصولها، ودَرْكِ ضرورياتها وكليَّاتها، والإشرافِ على مظانِّ مسائلها ومغابنِ أبحاثها، (وعلى قدر ما يكون للرجل من خبرةٍ بالعلوم يبعُدُ عن مواقع الذِّلَّة، ويزداد في أعين الناس تَجِلَّة)[٢].

وهذا يستتبع أن يكون للطالب اشتغالٌ بالكتب واستكثارٌ منها، وكلَّما كانت الكتبُ دانيةً منه كان أدنى إلى علم ما فيها .. قال ابن حزم (٤٥٦هـ): (لا سبيلَ إلى حفظ المرء لجميع علمِه الذي يختصُّ به، فإذْ لا سبيلَ إلى ذلك فالكتبُ نِعْمَ الخازنةُ له إذا طلب)[٣].

ومن هنا فلا وجه لذم الاستكثار من الكتب إلا إذا كان منتهى قصد الطالب الاستكثارَ فقط دون أن يجِدَّ في مطالعتها ومعاناتها.

■ العلمُ بما يؤول إلى التخصص:

إذا تقرَّر أنَّ الوجهَ أن يتوجَّه الطالب بهمِّه إلى علمٍ يتسلَّطُ ببحثه ونظره فيه على جليله ودقيقه، فلا بدَّ أن يعلم أنَّ بين العلوم من الوشائج ما لا يمكن أن تحيط به المصادر المتخصصة، ولذلك فلا مناصَ له من تجاوز حدود تخصُّصِه لتتحرَّرَ له مسائلُ علمه، وهذه المجاوزة لا يرادُ منها

---

(١) في اللغة والأدب (١: ٢٨٨).

(٢) الأعمال الكاملة لمحمد الخضر حسين - رسائل الإصلاح (٥: ٢١٣٩).

(٣) رسائل ابن حزم (٤: ٧٧).

أن يطَّلع الطالب على ما لا بُدَّ له من كل علم، فهذا القدر من فرض طالب العلم ما دام طالبَ علمٍ بصرف النَّظر عن تخصُّصه، وإنما القصد هنا أنَّ لكلِّ تخصُّصٍ وجهًا من الارتباط بسائر العلوم، وعلى المتخصص أن يُلِمَّ به، وهذا الوجه يتفاوت من علمٍ إلى آخرَ، فما يحتاجه طالب الحديث من علم اللُّغة ليس على وزان ما يحتاجه طالب التفسير، وهكذا.

ومن المقاطع البارعة المشيرة إلى فكرة العناية بالعلوم الآئلة إلى التخصص ما قدَّم به ابنُ عطيَّة (٥٤٢هـ) تفسيرَه الجليل «المحرر الوجيز»، فبعد أن ذكر أنَّ العلمَ فنونٌ، وأن على من تشوَّق للتحصيل أن يأخذَ من كلِّ علمٍ بطرف = قال:

(ثمَّ رأيتُ أنَّ من الواجب على من احتبى، وتخيَّرَ من العلوم واجتبى، أن يعتمدَ على علمٍ من علوم الشرع، يستنفدُ فيه غاية الوسع، يجوبُ آفاقَه، ويتتبَّعُ أعماقَه، ويضبطُ أصولَه، ويُحكِمُ فصولَه، ويُلخِّصُ ما هو منه، أو يؤولُ إليه، ويَفِي بدفع الاعتراضات عليه حتى يكون لأهل ذلك العلم كالحصن المشيد، والذخر العتيد، يستندون إليه في أقواله، ويحتذون على مثاله)[1].

وهذا القدرُ الآئِلُ إلى التخصص يُعلم من خلال أمورٍ عدَّةٍ:

منها: العلم بمظنة العلم، فبعلمه بها في دواوين العلوم الأخرى من المسائل يدرك ما له علقة منها بتخصصه.

---

(١) (١: ٦-٧).

ومنها: ما يرجع إلى القدرات الذهنية التي يستشرف بها كلُّ طالبٍ حوائجَ تخصصه، وهذا يتفاوت بتفاوت الطلبة.

ومنها: ما يُدرَك بمراجعة المختصِّين في العلوم الأخرى، وهذا يختصر الطريق على طالب العلم، ويدني منه ما كان بعيدًا عن نطاق ذهنه ومجال بحثه، ليظفر بهذه المراجعة على ما يؤول إلى علمه مما ضلَّ عنه في غير تخصصه، وهذا إذا كان متأكدًا في تخصصه الذي اصطفاه، فهو في حق بقية العلوم آكدُ، لأنَّ في كلِّ علمٍ من العلوم من الفروع والذيول ما يَحار من أجله المتخصِّصُ فيه، فما الظنُّ بالوارد عليه؟ إضافةً إلى كون مراجعة المختصِّين ضرورةً منهجيةً، فهم أقدرُ الناس على تبيانِ حقائق تخصصهم وضمِّ نظائره وجمعِ متناثره، أمَّا الصُّدُوف عن مراجعتهم، أو أخذُ ما تعلَّق بعلمهم من غيرهم فيشوِّشُ على الطالب علمَه، ويطوِّل طريقَه، ويحيدُ به عن مطلوبه، فليتَّخذِ المتخصِّصُ في كلِّ فنٍّ أعوانًا له وأنصارا.

■ العلم باللُّغة:

إن تعجبْ فعجبٌ قولُ من يرى أن اللُّغة العربية مما لا يليق التوسع فيه إلَّا لمن تخصَّص فيها، وهذا رأيٌ فائلٌ لا خطامَ له ولا زمامَ، فإنَّ التوسُّعَ في اللُّغة لا يزيد الناظر إلا بَصَرًا في تخصصه، أيًا كان ذاك التخصُّص، واللُّغةُ العربيَّةُ وإن كانت أحدَ العلوم التي تحيَّزت، فذلك من أجل ضبط قواعدها وتقرير أدلتها وبيان ما عليه لغةُ العربِ، وما ينبغي أن يُلحَقَ بها ويُطرَدَ، لا أن يكونَ العلمُ بنتائجها من خاصَّة أهلها، فإذا ما استثنينا المباحثَ النظريَّةَ من علوم اللُّغة العربية، وما تعلَّق منها بأصولها الموطِّئة لنتائجها، فإنَّ على طالب العلم

أن يستكثرَ من تحصيل اللُّغة ما أمكنه ذلك، أمَّا الوسائل التي توسَّل بها أهل اللُّغة لنتائجهم فالقول فيها كالقول فيما يُؤخذ من سائر العلوم.

والذي أشير إليه هنا يتعلّق أصالةً بالـمُخرَج النهائي الذي قدَّمه لنا أهلُ اللُّغةِ وسَدَنَتُها، فاللُّغة تجري من العلوم مجرى الدم من بني آدم، ووجه اختصاص اللُّغة بذلك من بين سائر العلوم عائدٌ إلى فقه منزلة العربية من الشريعة بعامَّة، فما دامت هذه الشريعةُ عربيَّةً، فلا يفهمها حقَّ الفهم إلَّا مَن فَهِمَ اللُّغةَ العربيَّةَ حقَّ الفهم.

أمَّا سائر العلوم فعلى نفوذها في العلوم جملةً إلَّا أنَّ تأثيرها غالبًا إنما يقع في مجالاتٍ منها، وليس كذلك اللُّغة، فإنه لا ينفك عنها ناظرٌ في الشريعة، أيًا كان مجالُ نظره، ولما نظر الشاطبيُّ (٧٩٠هـ) في العلوم وفتَّش في أيِّها تتوقف عليه صحَّةُ الاجتهاد، بحيثُ لا يحصل الاجتهاد في الشريعة إلَّا بالاجتهاد في تحصيله على تمامه = قال: (الأقربُ في العلوم إلى أن يكون هكذا: علمُ اللُّغة العربية، ولا أعني بذلك النحوَ وحدَه، ولا التصريفَ وحده، ولا اللُّغةَ، ولا علمَ المعاني، ولا غيرَ ذلك من أنواع العلوم المتعلقة باللِّسان، بل المراد جملة علم اللِّسان، ما عدا علمَ الغريب، والتصريفَ المسمى بالفعل، وما يتعلّق بالشعر من حيث هو شعرٌ كالعَرُوض والقافية، فإنَّ هذا غيرُ مفتقَرٍ إليه هنا ... وبيانُ تعيُّنِ هذا العلم أنَّ الشريعةَ عربيَّةٌ، فلا يفهمها حقَّ الفهم إلا من فَهِمَ اللُّغة العربية حقَّ الفهم، فإذا فرضنا مبتدئًا في فهم العربية فهو مبتدئٌ في فهم الشريعة، أو متوسِّطًا فهو متوسِّطٌ في فهم الشريعة، والمتوسِّط لم يبلغ درجة النهاية، فإنِ انتهى إلى درجة الغاية

في العربية كان كذلك في الشريعة، فكان فهمُه فيها حجَّةً كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجَّةً)[1].

ولهذا الاختصاص قال الفرَّاء (٢٠٧هـ): (قلَّ رجلٌ أنعم النظر في العربيَّة وأراد علمًا غيره إلَّا سَهُلَ عليه)[2].

وعن النحو خصوصًا قال أبو بكر الشنتريني (٥٤٩هـ): (لو لم يكن من فضائل هذا العلم إلَّا أنَّ صاحبَه مترشِّحٌ لسائر العلوم، مستطيلٌ عليها، متصرِّفٌ فيها، مالكٌ لأزمَّتها، ولا يتعذَّر عليه شيءٌ منها، هذا مع استغنائه عنها وافتقارها إليه)[3].

وفي المقابل فمَن جَهِلَ النَّحوَ صَعُبَ عليه غيرُه، كما قال ابن حزم (٤٥٦هـ): (إنْ جَهِلَ هذا العلمَ عَسُرَ عليه علمُ ما يقرأ من العلم)[4].

بل إنَّ مَن جَهِلَ العربيَّةَ وعلومَها جرَّ ذلك عليه فسادَ الرَّأي والنَّظر، كما يقول الجاحظ (٢٥٥هـ): (للعرب أمثالٌ واشتقاقاتٌ وأبنيةٌ، وموضعُ كلامٍ يدلُّ عندهم على معانيهم وإراداتهم، ولتلك الألفاظ مواضعُ أُخَرُ، ولها حينئذٍ دلالاتٌ أُخَرُ، فمن لم يعرفها جَهِلَ تأويل الكتابِ والسنَّةِ، والشاهدِ والمثلِ، فإذا نظر في الكلام وفي ضروبٍ من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن هَلَكَ وأَهلَكَ)[5].

---

(١) الموافقات (٥: ٥٢-٥٣) بتصرُّف يسير.

(٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي (١: ١٧).

(٣) تنبيه الألباب على فضائل الإعراب (٢٧).

(٤) رسائل ابن حزم (٤: ٦٦).

(٥) الحيوان (١: ١٥٤).

وإذا نظرنا في التاريخ العلمي رأينا (اهتمام علماء كل فنٍّ وعلمٍ باللُّغة، يقدمونها أمامَ كل بحث، ويُعنَون بها قبل كل كلام، ولا عجب في هذا، فاللُّغة هي المدخل الحقيقي لمعرفة علومنا كلها وتاريخنا كله، والاستهانة بها والتفريط في قواعدها ورسومها إنما هي استهانةٌ وتفريطٌ بمعارفنا وعلومنا كلها)[1]، وما ذلك إلا لأن (اللُّغة هي خزانة الفكر الإنساني)[2]، وهي (صورة وجود الأمة، بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها)[3]، فليست اللُّغة قسيمًا للعلوم، بل هي ركنٌ أساسٌ فيها، وتمامٌ لها، ولما أراد ابن تيمية (٧٢٨هـ) بيان فضل العرب على غيرهم ذكر أن الفضل إمَّا أن يكون بالعلم النافع أو العمل الصالح، ثمَّ لما بين ما امتازت به العرب في علمها قال: (العلم له مبدأٌ، وهو: قُوَّةُ العقل الذي هو الفهم والحفظ. وتمامٌ، وهو: قُوَّةُ المنطق الذي هو البيان والعبارة، والعرب هم أفهمُ من غيرهم، وأحفظُ وأقدرُ على البيان والعبارة، ولسانُهم أتم الألسنة بيانًا وتمييزًا للمعاني، جمعًا وفرقًا)[4].

ولو لم يكن في بيان أهميتها إلا أنَّ أهلَ كلِّ علمٍ لا يعبرون عن علمهم ولا يفتنُّون في الإبانة عن أغراضه إلَّا بلسانها لكفى، والبيان (عِمَادُ العلم، ولا يتأتى البيان إلا لمن قد ألقى بصحراء الأدب بعاعه، فانقادت إليه أزمَّته حين مدَّ إليها باعَه)[5].

---

(١) مقالات الطناحي (١: ١٧٩).

(٢) أباطيل وأسمار لمحمود شاكر (٣٤٦).

(٣) وحي القلم للرافعي (٢: ٣٩)

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (١: ٤٤٧).

(٥) كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب لابن الأثير (٣٥). والبَعَاع: الجهاز والمتاع.

قال الطناحي (١٤١٩هـ): (كان الأدبُ - وما زال - خيرَ سبيلٍ لإيصالِ المعرفة، وسرعةِ انصبابها إلى السمع، واستيلائِها على النفس، والبليغُ يضع لسانَه حيث أراد، وإنَّك لتجد كثيرًا من الدراسات قد جمعت فأوعت، لكنها لم تبلغ مبلغَها من النفع والفائدة، لجفافِها وعُسرِها)[1].

وقال الشوكاني (١٢٥٠هـ) موصيًا مَن كان رفيعَ الرُّتبة في العلم: (ينبغي أن يكون كلامه على قدر علمه، وهو إذا لم يمارس جيِّدَ النَّظمِ والنَّثر كان كلامُه ساقطَ الاعتبار عند أهل البلاغة، **والعلمُ شجرةٌ ثمرتُها الألفاظ**. وما أقبحَ بالعالم المتبحِّر في كلِّ فنٍّ أن يتلاعبَ به في النَّظم والنَّثر من لا يجاريه في علمٍ من علومه، ويتضاحكَ منه مَن له أدنى إلمامٍ بمستحسَنِ الكلام ورائقِ النظام)[2].

ثمَّ إنَّ للُّغَةِ وإشراقَتِها من لسان المتحدث بالعلم بريقًا يفتن المتلقِّي، وقد كان الشافعيُّ (٢٠٤هـ) يبهر أهل زمانه بلغته، حتى صار بيانه سائقًا لهم إلى مجالسه، ولما أراد الإمام أحمد (٢٤١هـ) أن ينعت الشافعي للحميدي (٢١٩هـ) قال له: (ههنا رجلٌ من قريش له بيانٌ ومعرفةٌ). فسأله الحميديُّ عنه فقال: (محمد بن إدريس الشافعي).

قال الحميدي: (وكان أحمد بن حنبل قد جالسه بالعراق، فلم يزل بي حتى اجترَّني إليه)[3].

---

(١) الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم (٨٦).

(٢) أدب الطلب ومنتهى الأرب (١٣٧-١٣٨).

(٣) آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم (٤٤).

ولما أتى عبدالملك الماجشون (١٦٤هـ) - وهو في حداثة سنه - إلى المنذر بن عبد الله الحزامي (١٨١هـ)، وتحدَّث أمامَه = اهتزَّ له على غَيْرَةٍ لما رأى فيه بعض الفصاحة، وقال له: (اطلبِ العلمَ، فإنَّ معك حذاءَك وسقاءَك)[1].

وقد كان إمامًا العربية في زمانهما ثعلبٌ (٢٩١هـ) ومحمَّدُ بن يزيد المبرِّدُ (٢٨٥هـ) محطَّ أنظار التلاميذ والمتعلِّمين، وكان بينهما من التَّنافسِ والتَّزاحمِ ما هو معلومٌ، حتى كان ثعلبٌ يبغي مناكدةَ المبرِّدِ فيرسل إليه طلابه ليكدِّروا صَفْوَ مجلسه بمشكلات العربية المعجِزة، لكنَّ سؤالاتِهم لا تلبث أن تصطدم بصخرة تحقيق المبرِّدِ وفحولة معارفه، فكان ذلك يحفز بعض طلاب ثعلب للانتقال إلى مجلس المبرد، ومنهم زوجُ ابنتِه أبو عليٍّ الدينوريُّ (٢٨٩هـ)، فقد كان يتخطَّى مجلس ثعلب أمامَ عينيه، ويمضي إلى مجلس المبرد، فكان ذلك يغمُّ ثعلبًا، وكان يعاتبه رجاءَ أن يكفَّ عن شهود مجالس المبرد، لكنَّ أبا علي لا يلتفت إليه[2]، وربُّك يصنَعُ لمن يشاء بما يشاء.

وقد كان لكلٍّ من هذين الإمامين امتيازاتٌ فَضَلَ بها صاحبَه، ومن تلك الامتيازات التي شخصت بأبصار الطلبة إلى المبرِّد: فصاحتُه وبيانُه، بخلاف ثعلبٍ، حيث لم يكن موصوفًا بالبلاغة[3]، كما أنه لم يكن يتكلَّف الإعراب في كلامه، بل كان إذا دخل على طلابه وقاموا قال لهم: (أَقْعُدوا، أَقْعُدوا) بفتح الهمزة!

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (١: ٣١٢).

(٢) انظر: معجم الأدباء لياقوت الحموي (١: ٢٠٦).

(٣) انظر: طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي (١٤٣)، معجم الأدباء (٢: ٥٤٣).

ومما قاله أبو منصور الأزهري (٣٧٠هـ) مفاضلًا بين هذين الإمامَين: (كان محمَّدُ بنُ يزيدَ أعذبَ الرجلين بيانًا، وأحفظَهما للشعر المحدَث، والنَّادرة الطَّريفة، والأخبار الفصيحة)[١].

ولذلك كان ثعلبٌ (٢٩١هـ) يتحاشى الاجتماع بالمبرد (٢٨٥هـ) مع رغبة المبرد في الجلوس معه، ولما سُئِلَ خَتَنُه الدينوريُّ عن ذلك قال: (أبو العباس محمَّدُ بنُ يزيدَ حَسَنُ العبارة، حُلْوُ الإشارَةِ، فصيحُ اللِّسان، ظاهرُ البيان، وأحمدُ بنُ يحيى مذهبُه مذهبُ المعلِّمين، فإذا اجتمعا في محفل حُكِم لهذا على الظَّاهر إلى أن يُعرَفَ الباطن)[٢]. فانظرْ فضلَ اللُّغَةِ والبيانِ على أهل اللُّغة أنفسهم، فكيف هي الحالُ بمن هم دونهم في هذا الشأن؟!

*****

مع كلِّ ما مضى فإنَّ مفهومَ التَّخصُّصِ يظلُّ مفهومًا معقَّدًا، والقدر المجزئ من كلِّ علمٍ يبقى قدرًا عائمًا، لكنَّ المحقَّقَ مما مضى أن طرفَي الرأي (التوسُّع اللَّا منضبط/ التخصُّص المعزول) مجانفان لمنطق العلم، ويبقى الوسط بين الطرفين كعادته مشكلًا، كما قال الطوفي (٧١٦هـ): (غالب مسائل الخلاف إنما وقع الخلاف فيها من حيث كانت واسطةً بين الطرفين، وكلُّ واسطةٍ بين طرفين يتَّجه النزاع فيها لضربها بالنسبة إلى كلٍّ من الطرفين)[٣].

(١) تهذيب اللغة (١: ٢٧).

(٢) طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر الزبيدي (١٤٣)، معجم الأدباء (٦: ٢٦٨٢) وفيه أن كنية الدينوري أبو عبدالله، وهو سهوٌ، فإن كنية ختن ثعلب أبو علي، لا أبو عبدالله.

(٣) درء القول القبيح بالتحسين والتقبيح (١٦٩).

ولو أَجَلْنَا النظر في العلماء الموسومين بالتوسع والشمول العلمي والخروج عن قيد التخصصات لرأينا واحدَهم تتفاضل علومُه قوةً وضعفًا، ولربَّما رأيناه في علمٍ ما من عداد المشاركين فيه دون أن يبلغ أمداد المختصِّين به، بل ربَّما كان موسومًا بالقصور والضعف فيه كما تقدمت الإشارة إلى شيءٍ من ذلك، فآل التوسُّع إذًا إلى أن يكون تخصُّصًا مقنَّنًا، وهذا يجعلنا نفارقُ مداولة هذه الثنائية بترجيح كفةٍ على أخرى ترجيحًا مطلقًا، ويحفِزنا إلى رسم وساطةٍ عادلةٍ بين التخصص والتوسع، فالتخصُّصُ لا مناصَ منه لطالب العلم، التخصُّصُ الذي يستوفي فيه الطالب تصوُّرَ فروعِ تخصُّصه وأصوله، ويحيطُ بمشكلاته، ويُحسِنُ به أن يعبِّرَ عنه وينفصلَ عن الاعتراضات الموجهة عليه، التخصُّصُ الذي يجعل به سائرَ العلومِ مكمِّلةً له دون خَلقِ حواجزَ موهومةٍ بأيدي العجز والتفريط، ودون نفخِ جبالٍ من الدَّعاوى يتسلَّط بها على غير تخصُّصِه بلا استحياء علمي.

وإذا ما رأينا اصطلاح جمهور المعاصرين وتناولَهم لمفهومَي التخصص والتوسع واستصحبنا ما تقدَّم فنحنُ بحاجة إلى أن نخصِّص التوسع، ونوسِّع التخصص، لا أن نفاضلَ بينهما على وجه الإطلاق، ورجاحةُ عقلِ طالب العلم ووفرةُ ملكاتِه ليست رهينةً لهذا ولا ذاك، (فليس المهم في تعدُّد الجوانب العقليَّة وحدةُ الموضوع أو كثرتُه، ولكنَّ المهمَّ هو طريقة التناول وطريقة التصرُّف ومقدار القوَّةِ اللَّازمةِ لتناولِه وتصريفِه)[1]، فلا فضلَ لتخصُّصٍ على توسُّعٍ، ولا لتوسُّعٍ على تخصُّصٍ إلَّا بالتحقيق.

---

(١) بين الكتب والناس للعقَّاد (١٤١).



(لَنْ تَعْلَمَ فِي شَيْءٍ مِنَ الصِّنَاعَاتِ عِلْمًا تُمِرُّ فِيهِ وَتُحْلِي حَتَّى تَكُونَ مِمَّنْ يَعْرِفُ الخَطَأَ فِيهَا مِنَ الصَّوَابِ، وَيَفْصِلَ بَيْنَ الإِسَاءَةِ وَالإِحْسَانِ، بَلْ حَتَّى تُفَاضِلَ بَيْنَ الإِحْسَانِ وَالإِحْسَانِ، وَتَعْرِفَ طَبَقَاتِ المُحْسِنِينَ)

عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)



عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً - فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٧٩)، وَمُسْلِمٌ (٢٢٨٢) فِي «صَحِيحَيْهِمَا».

(١)

يمكنُ القولُ بأنَّ العلمَ لم يبقَ فيه مزيدٌ لم يُقَلْ إلَّا ما تعلَّق به من خارجٍ، من مناهج فهمه وطرق تقديمه والتخريج على ما تقرَّر من أصوله، فإنَّ أهلَ العلمِ على مرِّ القرون وتعاقب الحِقَب قد عُنُوا بالعلم تأصيلًا وتفريعًا، فلم يذروا لمن تأخَّر شيئًا يمكنه القيام به إلَّا أن يُحكِمَ التعامل مع ما وضعوه، ويفتنَّ في الإفادة مما حصَّلوه.

وإذا قيل بأنَّ هذا من أوضار المقالة الزائفة: (ما ترك الأوَّلُ للآخِرِ شيئًا)، وأنَّ الناس قد جاوزوها إلى: (كم ترك الأول للآخِرِ) = كان هذا من القائل ذهولًا عن حقيقة تلك المقالة، وذلك أنَّك لا ترى أحدًا من العلماء يأتي بها إلَّا وهو على درايةٍ تامَّةٍ بأنَّ أهل القرون الأولى قد أوفَوا على الغاية في كلِّ علمٍ، وإلَّا لأمكنَ أن يكون في المتأخرين من يستبدُّ بعلمٍ لم ينله مجموع المتقدمين، وهذا إن حصل فالعمل جارٍ على ردِّه لا القبولِ به.

وإذًا:

فمعاني الوحي قد اكتملت بموت النبي ﷺ.

والعلومُ الخادمةُ للوحي قد تكامل تأسيسُها في الطبقات المبكرة، فلم يبقَ لمن بعدهم منها شيء، لا لنقصٍ فيهم، بل لأنَّ اكتمالَهَا أمرٌ قد قُدِرَ، حيث إنَّ الأولين قد وجدوا العلمَ مفرَّقًا مبثوثًا فجمعوه وأصَّلوه على غير مثال سبق، فلا يمكن لمن تأخَّرَ أن يعيد من حال التفرق السالف ليبتكر تأسيسًا جديدًا.

فلم يبقَ إلا إغناء ذلك التأسيس، بكشف أبعاده، وتوسيع دوائر الإفادة منه، وإقامة قواعد فهمه واستثماره والتخريج عليه، وهذا مجالٌ للإبداع رحْبٌ، وطريقٌ للابتكار واسعٌ.

وطالب العلم إذا استحضر ذلك توفَّرَ همُّه على البَصَر بالإرث الذي خلَّفه أسلافه، مميِّزًا بين مراتبه، مدركًا لوظائفِه وغاياتِه، مرتاضًا به، حسنَ التصرُّف في كليَّاته وجزئيَّاته.

إذا تقرَّر هذا، فإنَّ لتحصيل هذا العلم الموروث مقاصدَ، من أجلِّها مقصِدَان متى استحضرهما الطالب وجدَّ في التضلُّع منهما تفحَّلَ علمُه، وبلغَ الرُّشْدَ في التعامل مع العلوم المدوَّنة، ليكون مِن بَعدُ مؤهَّلًا لإغنائها وإثارة دفائنها، وهذان المقصِدَان هما: **الضَّبط والتَّحقيق**، فالضبطُ لمقدِّماتِ ونتائجِ تلك العلوم، والتحقيقُ لتحريرِها والوقوفِ على أغوارها ومقاصدها.

ولكلٍّ من هذين المقصِدَين ذرائعُ يتوسَّلُ بها الطالب للوصول إلى مبتغاه منهما، وكثيرٌ من الكتَّاب في مناهج التحصيل قد أوسعوا القول في مقصد الضبط، ووضعوا له من الوسائل والمناهج ما يعين طالب العلم على تحصيله، إلَّا أنَّ الكلام في سُبُل تحقيق العلم وتحريره لم ينلْ حظَّه من الرعاية ممَّا أدَّى إلى ضمور الوعي حول فضيلة تحقيق العلم، وذلك جعل كثيرًا من الطلبة يُعنونَ بضبط العلم أضعافَ عنايتهم بتحقيقه وتحريره، ولئن كان ضبطُ العلم أوَّلَ مدارج التحقيق فيه، إلَّا أنَّ الغفلةَ عن مقصد التحقيق وعدمَ الجدِّ والسعيِ في تحصيله قعد بجمهور الطلبة المتمكنين عن بلوغه، ولستَ ترى في عيوب طلبة العلم عيبًا يحرق فؤاد المراقب للبيئات العلمية (كنقص القادرين على التمام).

وسأقتصر في هذا الفصل على وسيلةٍ واحدةٍ من وسائل تحقيق مقصِدَي الضبط والتحقيق، وهي وسيلة **التَّأصيل المرجعي**، وفرقٌ بين التأصيل

المرجعي والتأصيل المنهجي، فالتأصيلُ المنهجيُّ أن يكون للطالب في كلِّ مقصِدٍ منهجٌ موَصِّلٌ وخطةٌ مرسومةٌ، أمَّا التأصيلُ المرجعيُّ فأن يتخذ من كتابٍ/ مرجعٍ مَّا أصلًا له .. وعليه، فإذا كان الحديث شاملًا لمقصِدَين، فعلى طالب العلم أن يتَّخذ له أصلين مرجعيين:

أحدهما أصلٌ مرجعيٌّ للضبط، وذلك بأن يكون له في كلِّ علمٍ أصلٌ يفيدُه الاحتواءَ على مجامع ذلك العلم ومبانيه، يضبط به مسائله ودلائله، ويقيِّد على حواشيه ما ظفر به من الفوائد من كتابٍ أو درسٍ أو مذاكرةٍ أو غيرها من نوافذ التحصيل، ومن جرَّب أن يتَّخذَ كتابًا يعتمده أصلًا علميًّا له في علمٍ ما - وكان هذا الكتاب لائقًا بأن يكون أصلًا - ذاق حلاوة الضبط، ولذلك تجد في كتب السير والتراجم كثيرًا من الأمثلة على اختصاص العلماء ببعض أصول الضبط المرجعية، وتطلُّبُ الشواهد لذلك ترفٌ، فهي مبذولةٌ قريبةُ المنال، ومن ذلك عناية النووي (٦٧٦هـ) بكتاب «التنبيه» في فقه الشافعية، فقد حفظه في أربعة أشهر ونصف، وصنَّف كتابًا في تصحيحه، وآخرَ في لغاته، وكتب عليه نُكتًا، وشرع في شرحه، كما شرع في اختصاره.

بل بلغ الحال ببعض العلماء أن نُسِب إلى كتابٍ لفرط عنايته به، كما نُسِب أبو عبدالله محمد بن سليمان الرومي الحنفي (٨٧٩هـ) لكتاب «الكافية» لابن الحاجب (٦٤٦هـ)، فصار يُعرَف بالكافِيَجي!

وإذا ضمَّ الطالبُ إلى اعتماده لهذا الأصل حفظَه له بلغ الغايةَ في الضبط، فالحفظ من أشرف صناعات العلم، وهو من أعونها على استثماره

والارتياض به، فـ (إذا كان ما جمعتَه من العلم قليلًا وكان حفظًا كثُرَتِ المنفعة به، وإذا كان كثيرًا غيرَ محفوظٍ قلَّت منفعتُه)[1].

قال عبدالله بن الحسن: (وجدتُّ أحضرَ العلم منفعةً ما وعيتُه بقلبي ولُكْتُه بلساني)[2].

وإذا نظر طالب العلم إلى اتساع العلم وألقى بطرفه في آماده المتباعدة كانَ على شَفَا يأسٍ من أن ينال من العلم نوالًا مُجزيًا، فإذا رأى تلك الآمادَ تُطوَى أمامَه حتى لا تجاوزَ محيط بصره كان ذلك أعظمَ حافزٍ لإقباله على العلم ونهله من حياضه، حتى لا يرضى منه بالقليل، بل حتى يبلغَ منه آخرَه.

ولذا فإنِّي لا أجدُ فيما وضعه العلماء من مصنَّفاتٍ وأعمالٍ عِلمِيَّةٍ أعونَ على النبوغ العلمي من تلك الأعمال التي تحقِّقُ ذلك الطيَّ، من المتونِ والمختصراتِ الجامعةِ لأصول المسائل، الحاويةِ زُبَدَ العلوم، المهيَّأةِ للضبط، الموطَّأةِ للحفظ .. وكم تأمَّلتُ في فكرة هذا اللَّونِ من المصنَّفات فلا ينقضي عجبي من عبقريَّتِه وعِظَمِ عوائده.

وأسعدُ الطلبة بهذه المتونِ حُفَّاظُها، والعلماءُ الذين وضعوا هذه المختصرات نصُّوا على أن غرضَهم تقريبُ العلم للحفظ، وعلى ذلك انساقت هِمَمُ طلبة العلم، فمن القديم والطلبة متوفِّرون على هذه المتون حفظًا واستظهارًا، ويرون في ذلك خطوةً رئيسةً وركيزةً أساسيَّةً للتحصيل العلمي.

---

(١) الحث على طلب العلم لأبي هلال العسكري (٢٩).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢: ٣٧٣).

وأدنى مطالعةٍ لتراجم العلماء في مختلف القرون تدلُّك على أن حفظ المتون كان نهجًا محكمًا لا يكاد يحيدُ عنه طالبٌ للعلم، في مبتدأِ طلبه وخَبَرِه، بل ربَّما رأيت الواحدَ منهم يحفظ أكثر من متن في فنٍّ واحدٍ، وهم أعلامٌ محقِّقون، ليسوا نُسخًا زائدةً كما يحلو لبعض المحرومين وصفُ الحفَّاظ بذلك.

وقد أُثيرَت على المختصراتِ وحِفظِها قوادحُ واعتراضات، ولا أحب أن أحرف الكلام في هذا الفصل عن مساره لأناقش تلك القوادح وأبيِّنَ وهاءَها، ولكن خُذْهَا من فقيه العصر واحطِمْ بها عن ذهنك تلك الاعتراضات .. قال العلَّامة ابن عثيمين (١٤٢١هـ): (قد أراد بعضُ النَّاسِ أن يمكروا بنا، قالوا: «إنَّ الحفظَ لا فائدةَ فيه، وإنَّ المعنى هو الأصل» ولكن الحمد لله أنه أنقذنا من هذه الفكرة، وحَفِظنا ما شاء الله أن نحفظ)[1]. وهو الذي قال: (نحن لم ينفعنا الله عز وجلَّ إلا بما حفظناه)[2].

فخُذْ - يا طالبَ العلم - بحظِّك من حفظ الأصول المرجعية للضبط .. وعند الصَّباح يَحمَدُ القوم السُّرى!

(٣)

هذا، وإنَّ الأصل المتَّخذَ للضبط في أيِّ علمٍ على عظيم نفعه وجلالة موقعه إلَّا أنه لا يمكِّن طالبَ العلم من بلوغ الغاية فيه، ولا يكفيه لتحرير

(١) العلم (١٦٨).

(٢) لقاءات الباب المفتوح (اللقاء رقم: ٢١٠).

مسائله وتحقيقها، ولا يُزجِي له القدرة على الابتكار في تناول مسائله وحسن التصُّرف فيها، ومن هنا يتأكَّد عليه أن يكون له أصلٌ مرجعيٌّ للتحقيق، وهذا الأصلُ - كما هو بيّنٌ من السياق - ليس بديلًا لأصل الضبط، بل هو قرينٌ له، ولا غناءَ لطالب العلم عنهما، فلكلٍّ منهما مقصدٌ لا يتمُّ بناؤه حتى يبلغ الغاية منهما.

ولتحقيق موازنةٍ حيثيَّةٍ مقارِبةٍ بين هذين الأصلينِ المرجعيَّينِ، موازنةٍ تستبين بها حقيقتهما = يُنظَر في خمسِ حيثيَّاتٍ:

■ من حيث الوظيفة:

أصلُ الضبط يُراد منه أن يكون وسيلةً لضبط مسائل العلم - فإن تضمَّن عُمَدَ دلائله كان هذا كمالًا -، ويُرادُ منه أن يكون مُجمَعًا لكلِّ ما يَعرِض لطالب العلم من فوائدَ وتنبيهاتٍ على مرِّ سنين طلبه.

أمَّا أصلُ التحقيق فيُراد منه أن يرتاض الطالب بمسالك تحقيق مسائل العلم، وتحرير دلائله، من خلال نصوصه العالية، وتحريرات المحققين فيه.

■ من حيث المضمون:

أصلُ الضبط في كل فنٍّ لا بُدَّ أن يكون محتويًا على خلاصاتٍ مركَّزةٍ لنتاج علماء ذلك الفن، ومن هنا كان من شرط أصل الضبط أن يكون متأخِّرًا نسبيًّا، لأن كتب المتأخِّرين استحوذت على غالب أصول مسائل المتقدمين مع ترتيبها واختصارها، وهذا لا تكاد تجدُه في الكتب المتقدمة.

أمَّا أصلُ التحقيق فلا يُشترَطُ فيه أن يحتوي على خلاصاتٍ مركَّزةٍ تجمع نتائج العلم، إذ ليس الغرضُ منه ضبطَ المسائل وجمعَها، بل شرطُهُ أن تكون مادَّته عاليةً محقَّقةً تمرِّنُ قارئها على تحقيق المسائل وتحرير الدلائل، من خلال نصوصه العالية المتقدمة - إن كان الكتاب متقدمًا - أو من خلال موازناته المحرَّرة بين اتجاهات العلماء، ونحو ذلك.

فإن كان هذا الكتاب من الكتب المتقدِّمة كان أحرى باتخاذه أصلًا، ثم إن كان هذا الكتاب المتقدم من (الكتب المبتدأة الموضوعة في العلوم المستخرجة) بلغ الغاية في هذا الباب، (فإنَّا نجد أربابها قد سبقوا في فصولٍ منها إلى ضروبٍ من اللَّفظ والنظم أعيى من بعدهم أن يطلبوا مثله، أو يجيئوا بشبيهٍ له)[1].

وإذا نظرنا في هاتين الحيثيتين (الوظيفة/ المضمون) علمنا أن كلًّا من الأصلين محلٌّ للنظر والدَّرس لكن لاختلافِ مَقصِدِ كلِّ أصلٍ امتازَ كلٌّ منهما بنوعٍ من المعالجة، فالدَّرس في أصل الضبط للفهم والتصور، والدَّرس في أصل التحقيق للتحرير والابتكار، و(لقاحُ المعرفة: دراسة العلم) كما يقول ابنُ عبَّاس رضي الله عنه (٦٨هـ)[2].

■ من حيث الحجم:

أصلُ الضبط غالبًا ما يكونُ كتابًا مختصَرًا أو متوسِّطًا، ولا يليقُ به أن يكون مبسوطًا، لأنَّ الغرضَ منه أن يحيط به الطالب إحاطةً تامَّةً، فإذا كان

(١) الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز للجرجاني - وهي ملحقة بـ «دلائل الإعجاز» - (٦٠٤).
(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (١: ٤١٥).

مبسوطًا تعذَّرَ الوصول لهذا الغرض .. أمَّا أصلُ التحقيق فغالبًا ما يكونُ كتابًا متوسِّطًا أو مبسوطًا، ولا يليقُ به أن يكون مختصرًا على شاكلة المتون، ولو كان من الكتب المتقدِّمة، لأن الغرض منه أن يكون معمل تدريب وتمرين للطالب على التحقيق، وهذا لا يتحقق بالكتب المختصرة.

وهذا الشرط المتعلق بالحجم شرطٌ تقريبيٌّ، له طرفان ووسط، فطرفاه (الاختصار والبسط) ووسطه (التوسط)، وكلُّ وسط ففيه إجمالٌ، وإجماله هنا يستبين برعاية بقية الحيثيات، فإذا جعلنا الكتاب المتوسط صالحًا لأن يكون أصلًا للضبط تارةً وأصلًا للتحقيق تارةً أخرى، فلسنا نعني به شيئًا واحدًا، بل القصد أنه ليس بمختصر ولا مبسوط، وهذه المساحة فسيحة، أدناها في جانب الضبط، وأعلاها في جانب التحقيق، وما بينهما بينَ بينَ، والمحكَمُ هنا أن لَّا يكونَ أصلُ الضبطِ مبسوطًا، وأن لَّا يكونَ أصلُ التحقيقِ مختصرًا، وبالأمثلة الآتي ذكرها يتبين المقصود.

■ من حيث التأثير:

أصلُ الضبط لا يُشترَط فيه التأثير، بل يشترط فيه أن يكون جامعًا للمسائل، كما لا يُشتَرَطُ فيه أن يكون محلَّ عناية العلماء، وإن كان هذا من كماله.

أمَّا أصلُ التحقيق فلا بُدَّ أن يكون مؤثِّرًا، وتأثيره بأن يكونَ مؤسِّسًا لعلمٍ، أو أصلًا لاتجاه، أو محلَّ درس العلماء وفحصهم، أو مدارَ كتبٍ وشروحٍ وُضِعَت عليه، واعتراضاتٍ وُجِّهَت إليه، ونحو ذلك.

■ من حيث التعدُّد:

يمكن لطالب العلم أن يتَّخذَ له في كلِّ علمٍ أصلًا للضبط، أمَّا أصل التحقيق فالعمر يقصر دون اتخاذه في كل علمٍ، لأن أصل الضبط تتحقَّق وظيفته بتكرار قراءته وإدمان النظر والتأمُّل فيه، وهذا القدر وإن كان عسيرًا إلَّا أنَّ من الممكن تحقيقَه، لأنَّا جعلنا من خاصَّة هذا الأصل ألَّا يكون مبسوطًا.

أمَّا أصل التحقيق فعامل الزمن هو المؤثِّر الأصيل فيه، بمعنى أن ثمرته ووظيفته إنما تُنال بالعيش معه، والتدسُّس في أعطافه، فليس الغرضُ منه مقتصرًا على الوصولِ إلى المعلومة وتصوُّرِها وحفظِها، بل الغرضُ منه التغلغلُ في بواطنه والحفرُ إلى أصول جذوره، وهذا يحتاج إلى أزمنة متطاولة، ولذا كان اتِّخاذُ أصلٍ للتحقيق في كل علمٍ متعذِّرًا، فالسبيل أن يَتَّخذَ طالب العلم أصلًا للتحقيق في علمٍ أو عِلمَين، يكونان محلَّ تخصُّصِه وتركيزِه، وهذا لا يعني انفكاكَه عن قدرٍ من التحقيق في سائر العلوم، فلتكنْ له في كلِّ علمٍ زوراتٌ راتبةٌ إلى كتبه المفصَّلة، متأمِّلًا في بعض أبحاثها، دارسًا لجملةٍ من مسائلها.

(٤)

ولتقريب المراد أضرب أمثلة مجملة في جملة من العلوم لأصولٍ في الضبط والتحقيق روعيت فيها هذه الحيثيَّات، ثم أشفعها بمثالينِ مفصَّلينِ لمزيد بيانٍ لفكرة الأصل المرجعي:

■ **أمثلة مجملة:**

ففي الفقه:

من أصول الضبط: «الاختيار لتعليل المختار» للموصلي (٦٨٣هـ) في فقه الحنفية، «الشرح الكبير على مختصر خليل» للدردير (١٢٠١هـ) في فقه المالكية، «كنز الراغبين شرح منهاج الطالبين» للمحلي (٨٦٤هـ) في فقه الشافعية، «الروض المربع شرح زاد المستقنع» للبهوتي (١٠٥١هـ) في فقه الحنابلة.

وللطالب أن يعتمدَ المتون مجرَّدةً من شروحها، ولو أنَّه اتخذ المتنَ للحفظ، وشرحَه للضبط لكان ذلك خيرًا له، وقِس عليه سائرَ ما يُذكر في الفنون الآتية.

ومن أصول التحقيق: «شرح مختصر الطحاوي» للجصَّاص (٣٧٠هـ)، «مدونة» سحنون (٢٤٠هـ)، «الأم» للشافعي (٢٠٤هـ)، «نهاية المطلب» للجويني (٤٧٨هـ)، «المغني» لابن قدامة (٦٢٠هـ).

وفي أصول الفقه:

من أصول الضبط: «نهاية السول في شرح منهاج الأصول» للإسنوي (٧٧٢هـ)، «البدر الطالع على جمع الجوامع» للمحلي .. أو المتون مجرَّدةً من هذه الشروح.

ومن أصول التحقيق: «الرسالة» للشافعي، «الفصول» للجصَّاص، «البرهان» للجويني.

وفي التفسير:

من أصول الضبط: «تفسير الجلالين»، «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٦٨٥هـ)، «التسهيل» لابن جزي (٧٤٥هـ).

ومن أصول التحقيق: «جامع البيان» للطبري (٣١٠هـ)، وهو أمثلُ الكتب الصالحة للتحقيق في هذا العلم.

وفي النحو:

من أصول الضبط: «منهج السالك إلى ألفية ابن مالك» للأشموني (٩٠٠هـ)، «التصريح بمضمون التوضيح» لخالد الأزهري (٩٠٥هـ) .. أو المتون مجرَّدةً من هذه الشروح.

ومن أصول التحقيق: «الكتاب» لسيبويه (١٨٠هـ)، «المقتضب» للمبرد (٢٨٥هـ)، «التذييل والتكميل في شرح التسهيل» لأبي حيان الأندلسي (٧٤٥هـ).

وكتاب سيبويه أعظمُ مثالٍ لأصول التحقيق المستجمعة للشروط، فقد استوفى الجمْعَ والتفصيلَ والتأثيرَ، مع كونه كتابًا متقدِّمًا، مؤسِّسًا.

وفي البلاغة:

من أصول الضبط: «مختصر المعاني» للتفتازاني (٧٩٣هـ) وهو شرحٌ لـ «تلخيص المفتاح»، «شرح عقود الجمان» للسيوطي (٩١١هـ) .. أو المتون مجرَّدةً من هذه الشروح.

ومن أصول التحقيق: «أسرار البلاغة» للجرجاني (٤٧١هـ)، وهو أمثلُ الكتب الصالحة للتحقيق في هذا العلم.

وفي متن اللُّغة:

من أصول الضبط: «مختار الصحاح» للرازي (٦٦٦هـ)، «المصباح المنير» للفيومي (٧٧٠هـ).

ومن أصول التحقيق: «تهذيب اللُّغة» للأزهري (٣٧٠هـ)، «أساس البلاغة» للزمخشري (٥٣٨هـ).

(٥)

■ مثالان مفصَّلان:

أمَّا المثال الأول ففي علم أصول الفقه، وقد ضربت من أمثلة ذلك «البدر الطالع على جمع الجوامع» للمحلي (٨٦٤هـ) أصلًا للضبط، و«البرهان» للجويني (٤٧٨هـ) أصلًا للتحقيق.

فـ «جمع الجوامع» متنٌ أصوليٌّ مختصرٌ متأخِّرٌ، جمع فيه تاج الدين السبكي (٧٧١هـ) من زهاء مئةِ مصنَّفٍ أصولَ مسائلِ علمِ الأصول مجرَّدةً من أدلتها، مع العناية بالخلاف الأصولي في غالب المسائل، وعزو الأقوال لقائليها .. و«البدر الطالع» شرحٌ ممزوجٌ مختصرٌ، عُني بحل ضمائر الجمع، وإبراز دفائنه، مع البرهنة لمسائله. وقد عُنِي العلماء بالمتن والشرح، فنَظَمَ المتنَ غيرُ واحد، وشرحه كثير من العلماء، كما اختصره بعضهم، وعلى شرح المحلي وُضِعت حواشٍ، كما اختصره بعضهم.

و«البرهان» للجويني (٤٧٨هـ) يُعَدُّ من الكتب الأصولية المتقدمة، وهو من عُمد الأصول التي كانت محلَّ عنايةِ العلماء واستمدادهم، وهو كتاب فيه نَشْرٌ للمسائل وأدلتها، مع آلةٍ اجتهاديَّةٍ عاليةٍ انبسطت آثارها من أول الكتاب إلى آخره، وكان هذا الكتاب يُنعَت بـ(لغز الأمة)[1]، لوعورةٍ فيه، ولذا لم يتصدَّ له من الشراح إلَّا القليل، ولم يقتصر الجويني على جمع المسائل بأدلتها، بل عُني فيها بتحرير العلم نفسه، ومناقشة مقرَّرات أقطابه، وشمل عطاؤه العلمي ما يتعلق بتحقيق المسائل، والأقوال، تصوُّرًا وثبوتًا، برهنةً وتزييفًا، ولم يقتصر فيه على مذهب الشافعية الذي ينتحله، بل ركب فيه مطيَّة الاجتهاد، وكانت منه المذاهبُ كلُّها على صفيحٍ واحدٍ.

هذا استعراضٌ موجَزٌ لطبيعة هذين الأصلين يتبين به سببُ اتِّخاذِ كلٍّ منهما أصلًا، فإذا استبان ذلك لم يبقَ إلا بيان كيفية التعامل معهما، فيُقال:

لما كان «البدر الطالع» أصلًا للضبط فإنَّ على الطالب أن يطلب منه ما يُضبَطُ لا ما يُحقَّقُ[2]، فيُعنى بالمسائل والدلائل دون بحثٍ في جذورها ومناطق التأثُّر والتأثير فيها، فإذا راجعَ غيرَه من شروح الجمع، فهو إنما يطلب منها ما يتعلق بسلامة تصور المسائل واستيفاء القيود ونحوها مما يُحكِم به ضبطَ المسائل، وكلَّما عَرَض له في الكتب الأصولية ما يتعلَّق

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٠: ٢٤٣).

(٢) ولا يعني ذلك أن شرح المحلي خالٍ من تحقيق المسائل، بل هو من الكتب الجليلة المحقَّقة المحرَّرة في علم الأصول، لكن مصنِّفه وضعه على هيئة ينال بها طالبه ضبطَ العلم حيث قدَّم المحلي علم الأصول في صورة مركَّزة مكثَّفة، فالتحقيق واقعٌ في طريقه، والضبط محصَّل من هيئته.

بهذا الجنس من المعارف ألحقه بنظائره من «البدر الطالع»، ليكون من جملة ما يكرره ويضبطه.

أما «البرهان» فلكونه أصلًا للتحقيق فإنَّ عليه أن يتعاملَ معه بتأنٍّ بالغٍ وتريُّثٍ شديدٍ، ينتقل فيه من ظواهره إلى بواطنه، طالبًا من مجموعه نظريةً في العلم، ومنهجًا في رسم المسائل، وطريقةً في تحرير الدلائل، ويبحث في كل مسألة من مسائله عن أثرِها وتأثُّرِها، أثرِها في مسائل الأصول والكتب المصنفة فيه، وتأثُّرها بها، ويقف مع موازنات الجويني (٤٧٨هـ) وقوفًا طويلًا ليشرف على أصول المدارك والمآخذ، وينظر في طبيعة تعامل الجويني مع الخلاف الأصولي والنصوص الأصولية، كما ينظر في محالِّ النقد التي تلقَّاها كتابه من خلال شرَّاحه أو ما تفرق في كتب الأصول، وأيضًا ينظر في النقد الذي وجَّهه الجويني إلى غيره من الأئمة والأصوليين، فيعقد الطالبُ لذلك مجالسَ موازنةٍ مفصَّلةٍ تتناول تصوُّرَ الاعتراض وصحَّةَ توجيهه، ويتَّبَعُ أدوات الجويني في تحقيق المسائل الأصولية ونقدها وطريقته في تفعيلها .. فمنهج «البرهان»، ومسائله، ودلائله، ونقداته، وأدواته، ومشكلاته = كلُّها تقع في محلِّ البحث والنظر عند طالب التحقيق.

أمَّا المثال الثاني ففي علم النحو، وقد ضربت من أمثلة ذلك «منهج السالك» للأشموني (٩٠٠هـ) أصلًا للضبط، وكتاب سيبويه (١٨٠هـ) أصلًا للتحقيق.

«منهج السالك» من أجلِّ شروح «ألفيَّة» ابن مالك (٦٧٢هـ)، والألفيَّة متنٌ نحويٌّ متأخِّرٌ، تضمُّ خلاصاتٍ مركزةً للمسائل النحوية في جُلِّ الأبواب، مع جملة صالحة من تصريف الأسماء، مع إشاراتٍ إلى الخلاف والأدلة،

والعناية بصياغةِ قواعدَ وشروطٍ وتقسيماتٍ في عباراتٍ وجيزةٍ ظاهرةٍ، أو أمثلةٍ وإشاراتٍ خفيَّة .. و«منهج السالك» شرحٌ متوسِّطٌ ممزوجٌ، حلَّ فيه الأشموني (٩٠٠هـ) رموزَ الألفية وضمائرَها، واستشهد لأحكامها، مع تنبيهاتٍ ولطائفَ أودعها كتابَه وحلَّى بها شرحَه.

أمَّا كتاب سيبويه (١٨٠هـ) فهو الكتابُ المؤسِّسُ لعلم النَّحو، ضمَّنه القولَ في النَّحو والتَّصريف، مع استعراضٍ واسعٍ لشواهد العربية وما عليه لغة العرب من شعرٍ ونثرٍ، سماعٍ وقياسٍ، باستقراءٍ واسعٍ استوفى فيه جهود النَّحويين قبله.

وقد كان لكتاب سيبويه أثرٌ واسعٌ على النحويين باختلاف مذاهبهم ومشاربهم حتى صار عمدة الدراسة النحوية في مختلف القرون، واعتنى العلماء بشرحه، وكشف مشكلاته، كما وضع طائفةٌ منهم كتبًا في شرح شواهده، وكتبًا في الاعتراض عليه، ووضع آخرون في الذبِّ عنه.

وقد نقل أبو جعفر النَّحَّاس (٣٣٨هـ) عن أبي الحسن عليِّ بنِ سليمان، الأخفشِ الأوسطِ (٢١٥هـ) قولَه بأن سيبويه قد جعل في كتابه مشتبهًا، ليكون لمن استنبطَ ونظرَ فضلٌ، ثم علَّق على ذلك بقوله: (هذا الذي قاله عليُّ بنُ سليمانَ حَسَنٌ، لأن بهذا يشرُف قدرُ العالم وتفضُل منزلته، إذ كان العلمُ يُنال بالفكرة واستنباط المعرفة، ولو كان كلُّه بيِّنًا لاستوى في علمه جميع من سمعه، فيبطلُ التفاضل، ولكن يُستخرَجُ منه الشيءُ بالتدبُّر، ولذلك لا يُمَلُّ، لأنه يزداد في تدبره علمًا وفهمًا)[1].

(١) خزانة الأدب للبغدادي (١ : ٣٧٢).

ولما حُدِّث المبرِّدُ (٢٨٥هـ) بقول أبي عمر الجرمي (٢٢٥هـ): (أنا مذ ثلاثين سنةً أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه) وكان محدِّثُه متعجِّبًا مستنكرًا، قال له المبرِّدُ: (أنا سمعت الجرميَّ يقول هذا، وذاك أنَّ أبا عمر كان صاحبَ حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقه في الدين والحديث، إذ كان ذلك - يعني كتاب سيبويه - يُتعلَّم منه النظر والتفتيش)[1].

قال الشاطبي (٧٩٠هـ) معلِّقًا: (المراد بذلك أنَّ سيبويه وإن تكلَّم في النحو، فقد نبَّه في كلامه على مقاصد العرب وأنحاء تصرفاتها في ألفاظها ومعانيها، ولم يقتصر فيه على بيان أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ونحو ذلك، بل هو يبين في كل بابٍ ما يليقُ به، حتى إنَّه احتوى على علم المعاني والبيان ووجوه تصرفات الألفاظ والمعاني)[2].

ولمثل هذا كان كتاب سيبويه (١٨٠هـ) من أجلِّ أصول التحقيق.

هذا استعراضٌ موجَزٌ لطبيعة هذين الأصلين يتبين به سببُ اتِّخاذِ كلٍّ منهما أصلًا، فإذا استبان ذلك لم يبقَ إلَّا بيان كيفية التعامل معهما، فيُقال:

منهج السالك للأشموني (٩٠٠هـ) لما اتُّخِذَ أصلًا للضبط فإنَّ على الطالب أن يجعل منه بابًا يلج منه لضبط مسائل النحو، ومصطلحاته، وحدوده، وتقسيماته، ويشفع إليه من مختلف شروح الألفيَّة ما يتعلق بهذه الأوعية الضابطة، دون إغراقٍ منه في الأبحاث اللَّفظيَّة والفنيَّة المتعلقة بنصِّ الألفيَّة، وسائرِ الهوامش التي يتعلَّق بها بعض الطلبة.

---

(١) مجالس العلماء للزجاجي (١٩١).

(٢) الموافقات (٥: ٥٤).

أمّا كتاب سيبويه (١٨٠هـ) فيجعلُ منه طالبُ العربيَّة منطلقَ تحريره في علومها، فلا يدع في الكتاب من أصلٍ ولا فرعٍ، ولا شاهدٍ من شعرٍ أو نثرٍ، إلا دَرَسه وتتبّع أثره، ويستقري به مشكلاتِ العربيَّة ويتطلَّب فحصَها منه ومن غيره، فيرصد وجوهَ الأسئلة ومواضعَ المشكلات، ويتَّخذ من نصوص الكتاب مادَّة درسٍ واستنباطٍ، يديم فيها النظر ويقلِّب فيها الفِكَر، ويسعى جاهدًا في استكشاف منهج سيبويه في دراسة العربيَّة عرضًا واستنباطًا واحتجاجًا، ويستعين على ذلك بما وُضِع عليه من دراساتٍ معاصرةٍ تناولت مناهجه وآثاره.

(٦)

هذان نموذجان أردتُّ بعرضهما تجلية فكرة الأصلَين، وبه يُعلَمُ أن ليسَ يكفي طالبَ العلم أن يطالع الكتب المهيَّأة للتحقيق مطالعة عابرة، وإذا نظرنا في واقع المحيط العلمي رأينا الكتب المهيَّأة للتحقيق إنَّما تُراجَع لأغراض بحثيَّة، أو لمراجعة مسألة، أو لجرد عابر يُرادُ منه اقتباس بعض الفوائد المتفرقة، وهذا ما يطمح هذا الفصل لدفعه، فلا بُدَّ أن يُجوِّد طالب العلم من تعامله مع هذا الجنس من المصنفات، فيكرِّر مطالعة ما اتَّخذه أصلًا منه ويديم النظر فيه، ثمَّ إنَّ تكرارَه له ليس تكرارًا مجرَّدًا، بل هو تكرارٌ موجَّهٌ على نحو ما تقدَّم بيانه في المثالين المفصَّلين.

وبذلك يدركُ طالب العلم أنَّ طريقتَه في التحصيل تختلف باختلاف مقاصده، وذلك يستحثُّه على ضبطِ مقاصد تحصيله، والجدِّ في اتخاذ

الوسائل التي تعينه على تحقيقها، كما أنّه بذلك يدرك أنَّ مسالك الإفادة من الكتب تختلف بحسب مضامينها والمقاصد المبتغاة منها، فليست الكتبُ مجرَّدَ خزانةٍ تُستخلَص منها النتائج فحسب، بل هي معاملُ تدريبٍ وتمرينٍ للطالب، يديم النظر فيها ويكثر مدارستها، فإنَّ إدامة النظر لَتُفضي إلى الضبط، (وإنَّ كثرةَ المدارسة لَتُعدي على العلم)[1]. والقصدُ هنا أن يكون ذلك مستحضَرًا لدى الطالب، ماثلًا بين عينيه، قائمًا به قلبُه، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى.

(٧)

كان الشافعيُّ (٢٠٤هـ) يدمن النظر في «موطَّأ» الإمام مالك (١٧٩هـ) ويقول: (ما نظرتُ في موطأ مالكٍ إلَّا ازددتُّ فهمًا)[2].

وكان المزنيُّ (٢٦٤هـ) شديدَ التعلُّق بـ «رسالة» الشافعي حتى قال: (أنا أنظر في كتاب الرسالة منذ خمسين سنة، ما أعلم أنّي نظرت فيه مرةً إلا وأنا أستفيدُ شيئًا لم أكن عرفته)[3].

كما كان أبو عثمان المازنيُّ (٢٤٧هـ) شديدَ التعلُّق بـ «كتاب» سيبويه (١٨٠هـ) حتى قال: (ما أخلو في كلِّ زمنٍ من أعجوبة في كتاب سيبويه)[4].

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلَّام الجمحي (١: ٦-٧).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم (٩: ٧٠).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢: ٩٩).

(٤) خزانة الأدب للبغدادي (١: ٣٧١).

وكان عبدالله بن محمد بن عيسى الأندلسي (يختمُ كتابَ سيبويه كلَّ خمسةَ عشرَ يومًا مرَّةً)[1].

وقال بعضهم لأبي هاشم الجبائي (٣٢١هـ): ما أحسنَ جَمْعَكَ لمعاني كتب أبي علي (٣٠٣هـ) - وهو الجُبَّائيُّ، والدُ أبي هاشم - واختصارَك لكلامه! فقال: (قد دُسْتُ كتبَه دَوْسًا، وأكلتُها وشرِبتُها دَرْسًا، فعرفتُها ظهرًا وبطنًا)[2].

وكان ابن تيميَّة (٧٢٨هـ) حفيًّا بـ«التعليقة» للقاضي أبي يعلى (٤٥٨هـ)، حتى كان يطلب من طلابه إحضارها إليه في السجن، فكتب إليهم مرَّةً في جملة ما طلبه منهم: (... وترسلون أيضًا من تعليق القاضي أبي يعلى الذي بخط القاضي أبي الحسين، إن أمكن الجميع، وهو أحدَ عشرَ مجلَّدًا، وإلَّا فمن أوَّله مجلَّدًا، أو مجلَّدين، أو ثلاثة)[3].

وكان الزَّرِيرانيُّ الحنبليُّ (٧٢٩هـ) يُدِيمُ النظر في «المغني» لابن قدامة (٦٢٠هـ)، حتى (ذكر أنَّهُ طالع «المغني» ثلاثًا وعشرين مرَّةً، وكان يستحضرُ كثيرًا منه أو أكثرَه)[4].

وكذلك كانت الناسكةُ أمُّ زينبَ فاطمة البغداديَّة (٧١٤هـ)، فقد قال عنها ابن كثير (٧٧٤هـ): (كانت من العالمات الفاضلات، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتقوم على الأحمدية في مؤاخاتهم النساء والمردان، وتنكِرُ أحوالَهم وأحوالَ أهل البدع وغيرهم، وتفعل من ذلك ما لا يقدر عليه

(١) الوافي بالوفيات للصفدي (١٧: ٥٣٧).
(٢) الحث على طلب العلم للعسكري (٣٤).
(٣) العقود الدرية لابن عبدالهادي (٣٤٩).
(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (٥: ٢).

الرجال، كانت تحضر مجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية، فاستفادت منه ذلك وغيرَه، وقد سمعتُ الشيخَ تقيَّ الدينِ يثني عليها، ويصفُها بالفضيلة والعلم، ويذكرُ عنها أنها كانت تستحضر كثيرًا من «المغني» أو أكثرَه، وأنه كان يستعِدُّ لها من كثرةِ مسائلها، وحسنِ سؤالاتها، وسرعةِ فهمها)[1].

واختصَّ تاج الدين السبكي (٧٧١هـ) بـ «شرح الوجيز» للرافعي (٦٢٣هـ)، وكان يقول: (هو كتابُنا، ونحن نَدأَبُ فيه ليلًا ونهارًا)[2].

كما اختصَّ أحمد فارس الشدياق (١٣٠٤هـ) بـ «القاموس المحيط» للفيروز آبادي (٨١٧هـ)، وأبدى احتفالَه به بقوله: (إنِّي معترفٌ بأن لصاحب «القاموس» عليَّ فضلًا كبيرًا، ومنه توجِب أن أكون لها ما عشتُ شكورًا، فإنه هو الذي ألجأني إلى الخوض في بحر اللُّغة الزاخر لاستخراج جوهرها الفاخر)[3].

وقرأ محمود شاكر (١٤١٨هـ) على بعض شيوخه «لسان العرب»، وكان لصيقًا به مذ بواكير طلبه حتى إنَّه قال: (قرأت وأنا في السنة الأولى الثانوية لسان العرب حرفًا حرفًا من أوَّله إلى آخره)[4].

إلى نماذجَ كثيرةٍ استوطنتْ كتب السير والتراجم، ومِن وراءِ كلِّ عالمٍ كتابٌ يستخفي بالنهلِ من معينه والعبِّ من حياضه، به تضلَّع علمُه وتضوَّع مسكُه .. فاتخذْ لك كتابًا تستخفي به من أعين الناس!

---

(١) البداية والنهاية (١٨: ١٤٠-١٤١).

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (١٠: ١٩٩).

(٣) الجاسوس على القاموس (٦).

(٤) ظل النديم لوجدان العلي (١٠٠). وانظر: مقالات الطناحي (٢: ٥٢٠)، وفيه: (أخبرني رحمه الله أنه قرأ «لسان العرب» كله، و«الأغاني» كله، وهو طالبٌ بالثانوي).

وكلَّما ارتشف طالب العلم سيرة أحد الأعلام المحقِّقين ممن قدَّموا إضافة نوعية للحقل العلمي طَمَحَ ببصر تحصيله إلى ما بلغوه، وَرَجَا أن يبلغ في لاحق دهره مراتبَهم، لكنَّه لو تصفَّحَ واقعَه لربَّما قطعَ بأنَّ نوع تكوينه العلمي لا يوصله إلى ما يرجو، بل غايةُ ما يمكنه الوصول إليه هو ضبطُ نتائج العلوم دون القدرة على تحقيقها وتحريرها، فكان من اللَّازم إذًا هذا التَّمييزُ بين مقاصد التحصيل، ليكونَ الطالب على درايةٍ بحقيقة تحصيله، ثم يتَّخذَ من الوسائل ما يوصله إليها، ويدمنَ قرعَ أبواب العلم لتُفتَح له مغاليقه، (ولهذا يُحتاجُ في العلوم إلى كثرة الدرس، لأنه في أوَّلِ الأمر يحصل منه الشيءُ الذي يُسمَّى حالًا، وهو كالرَّسم، ثم بعد ذلك بالتَّكرُّرِ يصير قُنيةً ومَلَكَةً)[1].

كثيرٌ هم طلَّاب العلم، لكن الجادَّ منهم قليل، والمحقِّقَ من الجادين أقل القليل .. والحديثُ عن التحقيق كثيرًا ما يكون بالجمل الفضفاضة والعبارات المجملة دون تبيان لحقيقته، فيقف الطالب متأملًا في سحائب الأحلام دون أن يكون لتلك السحائب هطولٌ في أودية مشاريعه، فتظلُّ علومُه ساكنةً فاترةً لا تصلح أن تكون وطاءَ تحرير، ولا منطلقًا لابتكار، ولا يملك الدَّفعَ عنها ولا الصيانةَ لها .. و(من يقضي زمنًا في طلب العلم، ثم ينفصلُ عنه وهو لا يستطيع أن يدفعَ عن أصوله شُبَهًا، أو يَضرِبَ له من العمل مثلًا = ذهب وقته ضائعًا، وبقي اسم الجهل عليه واقعًا)[2].

---

(١) الهوامل والشوامل - مسكويه (١١١).
(٢) الأعمال الكاملة لمحمد الخضر حسين - رسائل الإصلاح (٥: ٢١٣٧).

إذا نظرنا في سير المحقِّقين من العلماء وحاولنا الوقوف على إكسير التحقيق في سيرتهم وإنتاجهم وجدناه متمثّلًا في جملة معايير، من أخصّها: معيار (الفوات) .. وهذا معيارٌ أوّليٌّ يُراد به تمييز المحقِّقين، نُدرِكُ به وجود التحقيق وإن لم نقفْ تحديدًا على معالمه، ومفاده أن العالم المحقِّق هو العالم الذي تحصَّل له نمطٌ من مداولة العلم والتعاطي مع مسائله تفرَّد به حتى ظُنَّ فواتُه بفواته.

ولا أكتمكَ سرًّا إن قلتُ لك بأن هذا المعيارَ منتزَعٌ من إجابةٍ ذكيَّةٍ للإمام أحمد (٢٤١هـ) أجاب بها على من أنكر عليه جلوسَه عند الشافعي (٢٠٤هـ)، وتَرْكَه مجلس ابن عيينة (١٩٨هـ)، وذلك حين قال له: (اسكتْ! فإنْ فاتك حديثٌ بعلوٍّ تجده بنزول، ولا يضرُّك في دينك، ولا في عقلك، ولا في فهمك، وإن فاتك أمر هذا الفتى أخاف أن لا تجده إلى يوم القيامة)[١].

فالشافعي حقَّق نمطًا من التحقيق جعل الإمام أحمد يعيد ترتيب جدول دروسه خشية فوات هذا النمط بفوات الشافعي، وهكذا فلننظرْ في من يُظَنُّ أن بفواته غياب نمطٍ من أنماط المداولة العلمية، لنميز المحققين،

(١) انظر: آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم (٥٨-٥٩)، وحلية الأولياء لأبي نعيم (٩: ٩٩)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٥١: ٣٣١). وقريبٌ من هذا الخبر أنَّ إسحاق بن راهويه (٢٣٨هـ) قال: (كنّا بمكّةَ والشافعيُّ بها وأحمدُ بنُ حنبل بها، فقال لي أحمد بن حنبل: يا أبا يعقوب جالسْ هذا الرجل - يعني الشافعيَّ -. قلت: ما أصنعُ به وسنُّه قريبٌ من سنِّنا؟ أتركُ ابنَ عيينةَ والمقبريَّ؟! فقال: ويحَك! إنَّ ذاك يفوت، وذا لا يفوت. فجالستُه) آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم (٤٢-٤٣).

ثم نقف من بعدُ على حقيقة التحقيق ومعالمه، وإنما قلت (نمط من أنماط المداولة العلمية)، لأن العلم لا يفوت بفوات الأشخاص، فكلُّ العلم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ولكن الشأن في آليَّة التعامل العقلي والتداول المعرفي لمضامين الوحي، وذلك ما أراد الإمام أحمد (٢٤١هـ) أن يشير إلى امتياز الشافعي (٢٠٤هـ) فيه.

والشافعيُّ الذي بهر الإمام أحمد في فقهه بكتاب الله تعالى يتمثَّل جوهرُ إبداعه في كتاب «الرسالة» .. هذا الكتاب الذي دلَّ على مقامٍ عالٍ من التحقيق والإبداع العلمي يقطَعُ معه النَّاظرُ أنه أمرٌ احتكره الشافعي، وبرهانه أنَّ أحدًا لم يستطع أن يستقلَّ بوضع أصولٍ للفقه على نسقٍ متكامل استقلَّ فيه عن رسالة الشافعي، بل إمَّا أن يكون عمله واقعًا فيه أو منطلقًا منه أو مبنيًّا عليه.

والإمام أحمد نفسه بلغ علمه بالآثار وعللها، وخصوصًا علل الآثار الموقوفة، مقامًا لم يلحقه فيه لاحقٌ مذ فارقتْ آخرُ نسمةٍ من روحه آخرَ بقعةٍ من جسده، وعن ذلك قال ابن رجب (٧٩٥هـ) بعد أن بيَّنَ إمامة أحمد في معرفة صحيح الحديث من سقيمه: (وهذا وإن شاركه كثير من الحفاظ في معرفة علل الحديث المرفوعة، فلم يصل أحدٌ منهم إلى معرفته بعلل الآثار الموقوفة، ومَن تأمَّلَ كلامه في ذلك رأى العَجَب، وجزم بأنه قلَّ من وصل إلى فهمه في هذا العلم رضي الله عنه)[1].

*****

(١) مجموع رسائل ابن رجب - الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة (٢: ٦٣٠).

سيبويه (١٨٠هـ) ونمط ضبطه للغة العرب في كتابه، الطبري (٣١٠هـ) ونمط تصرُّفه في المخزون السَّلَفي التفسيري، عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ) ونمط تذوقه البياني، الغزالي (٥٠٥هـ) ونمط تأليفه العلمي وقولبته للمعارف، ابن تيمية (٧٢٨هـ) ونمط تحقيقه للمعرفة وتصريفه للعلوم، هؤلاء وغيرهم من الأعلام المحققين، يُحصِّل الطالب بالنظرِ في نتاجهم وتحسُّسِ بذور الإبداع في أراضي مدوناتهم ما يُمكِّنه من السير على منوالهم، ويخطو به خطوات واسعة نحو التحقيق العلمي، وذلك هو أوَّلُ مدارج التحقيق والإبداع، وهو أصدقُ ما يُمكن أن يُدَلَّ به طالب العلم على سبيل التحقيق، بأن يعايش ما أنتجه المحققون ويتغلغل بفكره في كتاباتهم، ولذا كان اتخاذ الأصل المرجعي للتحقيق من أعظم السبل الموصلة لذلك، والشأنُ كما قيل: صحبةُ الفحول تُفحِّل.





(لِلْعِلْمِ سَوْرَةٌ، وَلِانْفِتَاحِهِ بَعْدَ اسْتِغْلَاقِهِ فَرْحَةٌ، لَا يَضْبِطُهَا بَشَرِيٌّ وَإِنِ اشْتَدَّتْ حُنْكَتُهُ، وَقَوِيَتْ مُنَّتُهُ، وَفَضَلَتْ قُوَّتُهُ)

الجاحظ (٢٥٥هـ)



عَنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«يَا أَبَا الـمُنْذِرِ ـ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟»

قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «يَا أَبَا الـمُنْذِرِ ـ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟»

قُلْتُ: «اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ».

فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «وَاللهِ لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا الـمُنْذِرِ».

أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٨١٠).

(١)

سعةُ الاطِّلاع والاستكثارُ من المعلومات مطلبٌ لبلوغ مدارج العلماء، لكنَّ ذلك وحدَه لا يكفي طالب العلم للرسوخ في العلم والارتياض به، بل لا بُدَّ أن يتخلَّلَ أعطافَ التحقيق بتأمُّله وتقليبِه المعارف على صفائح عقله دون فتورٍ ولا مَلَلٍ، فجوهر المجاهدة في طلب العلم ليس في أطر النفس على قراءة أكبر قدر من الكتب، بل في أطرها على التحنُّث في محراب المعاني الغائرة والإشكالات المرهقة، ولا قرارَ لعلمِ طالبٍ لم يجعلْ من التأمُّلِ والاستنباطِ سُلَّمًا لتحصيل العلوم والمعارف، فـ (الاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين وعز الثقة)[١].

(١) رسائل الجاحظ (٣: ٢٩).

وقد يأنَسُ الطالب بسرعة اقتناص عقله ومصافحة بصره لجليِّ العلوم وظاهرِ المعاني، لكنْ لِيَعلَمْ أنَّ مِن وراء جليِّها خفايًا وبواطنَ يُضَنُّ بها على غير العقول المتأمِّلَة، وذلك أن المعانيَ - كما يقول الماوردي (٤٥٠هـ) - (ضربان: جليٌّ وخفيٌّ:

فأمَّا الجليُّ فهو يسبق إلى فهم متصوِّرِه من أوَّلِ وَهْلَةٍ، وليس هو من أقسام ما يُشكِلُ على ذي تصوُّرٍ.

وأمَّا الخفيُّ فيحتاج في إدراكه إلى زيادة تأمُّلٍ، وفضلِ معاناةٍ، لينجليَ عمَّا أُخفِي، وينكشفَ عمَّا أُغمِض، وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياضُ به، وبالارتياض به يسهل منه ما استصعب، ويقرب منه ما بعُد، فإنَّ للرياضة جَرَاءةً، وللدُّربة تأثيرًا)[1].

ثمَّ إنَّ التأمُّلَ من خواصِّ التكوين الذاتي التي فَضَل بها التكوينَ الجماعيَّ، وذلك أنَّ لطالب العلم في تلقِّيه طريقين متوازيين، وهما: التكوين الذاتي، والتكوين الجماعي .. ولا غنى له عن أحدهما، ولكلٍّ من هذين الطريقين خواص، لكنَّ التكوينَ الذاتيَّ الذي ينكفئُ فيه الطالبُ على نفسه ويكون به حِلسَ مكتبته أحظى بالتأمُّل، بخلاف التكوين الجماعي الذي يكون فيه أسيرَ مصدرٍ آخرَ يَفرِض عليه نمطًا زمانيًّا ومكانيًّا ومعرفيًّا لتلقِّي المعرفة وإدارتها.

وهذا التكوينُ الذاتيُّ التأمُّليُّ أكثرُ تصالحًا مع نَزَعات الذات، فإنَّ للذَّاتِ انجذاباتٍ طَبْعِيَّةً غيرَ مراعاةٍ في التكوين الجماعي، وذلك يؤخِّر من موقع التأمُّل في خارطة التكوين المعرفي، فإنَّ مقدِّماتِ التأمُّلِ تختلف

(١) أدب الدين والدنيا (١٠١).

باختلاف الطلبة من جهة الاستعداد الذهني والتهيُّؤ النفسي، ولا يحقِّقُ التَّوازنَ في رعاية هذه المعطيات مثلُ التكوين الذاتي، أمَّا التكوينُ الجماعيُّ والأمرُ المشتَرَكُ فيَعرِضُ فيه (من النقص والتفاوت لأجل القوى المختلفة والهمم المتباينة والأغراض المتضادة التي قد تعاوَرَتْه ما لا يَعرِضُ في غيره من الأمور التي ينفرد بها ذو القوَّة الواحدة، وتخلص فيها همةٌ واحدةٌ، ويختصُّها غرضٌ واحدٌ، فإنَّ مثلَ هذا يَنتَظِمُ ويَتَّسِقُ، ويظهرُ فيه فضلٌ بيِّنٌ على الأوَّل)[1].

(٢)

حكى الزجَّاجي (٣٤٠هـ) في «مجالس العلماء» خبرَ مجلسٍ من مجالس العلم والأدب تقلَّبت أوابده بين إمامَي النحوِ: أحمد بن يحيى المعروف بثعلبٍ (٢٩١هـ) ومحمد بن يزيد المبرِّدِ (٢٨٥هـ)، بإدارة محمد بن عبدالله بن طاهر (٢٥٣هـ) - وقد كان رجلًا لا يقبل من العلوم إلا حقائقَها - وكان كلَّما ألقى سؤالًا عليهما أجاباه، وكان المبرِّد ألحنَ بحجَّته، فقال ابن طاهر للمبرِّد في ختم المجلس: (نِعمَ العلمُ علمُكم، إلا أنَّك لا تجعل لأحدٍ فضيلةً). فأجابه بقوله: (لا أتقلَّد مقالةً متى لزمتني حجَّةٌ). ثم قال مقالةً تبيِّن كيف ينحتُ طالب المعرفة بتأمُّله صخورَ التحقيق .. قال: (لَرُبَّما روَّأتُ في الحرفِ سنةً لتَضِحَ لي حقيقتُه!)[2].

---

(١) الهوامل والشوامل - مسكويه (٦٥).
(٢) مجالس العلماء (٩٧).

قالها المبرِّدُ (٢٨٥هـ)، فاصطفاه ابنُ طاهرٍ (٢٥٣هـ) لنفسه، بينما ضمَّ ثعلبًا (٢٩١هـ) لولده!

بعد المبرِّدِ بقرونٍ يأتي القرافيُّ (٦٨٤هـ) بكتابه العجاب «الفروق»، ويبتدئه بذكر الفرق بين الشهادة والرواية، وأحسب أنه بهذا الابتداء أراد أن يقذف في روع القارئ أن هذا الكتابَ المتلقَّى كتابُ تأمُّلٍ، وليس كتابًا تُدركُ مضامينه بطرف العقل وحاشية الفكر .. كيف ذلك؟

قال في مطلع كلامه عن هذا الفرق: (ابتدأتُ بهذا الفرق بين هاتين القاعدتين لأني أقمتُ أطلبه نحو ثمان سنين فلم أظفرْ به)[1].

ما يقرب من ٢٩٠٠ يومٍ والمسألةُ مسرَّحةٌ في حيز النَّظر والتأمُّل!

وهكذا العلمُ، فإنَّ (تجشُّم القلب بالفكر لا يتقاعد عن تجشُّم البدن بالعبادات)[2].

بينما نرى هذه النماذج المشرقة وتنشرحُ لذكرِها وذكرِ أمثالها صدورُ التحقيق، نرى في الضَّفَّةِ الأخرى كثيرًا من الطلبة لم يأخذوا من العلم إلَّا فتاتَه، ولم تحتفل عقولهم بالنُّفُوذِ إلى أعواصه وأغواره، بل قنعوا بظاهرِ من القول، وباديْ من الرأي، (وما الآفةُ العظمى إلَّا واحدةٌ، وهي أن يجيءَ من الإنسان، ويجريَ لفظُه، ويمشيَ له = أن يُكثِّرَ في غير تحصيلٍ، وأن يُحسِّنَ البناء على غير أساسٍ، وأن يقولَ الشيءَ لم يقتله علمًا)[3].

---

(١) الفروق (١: ٦٧).

(٢) المستصفى للغزالي (٢: ٢٤٣).

(٣) دلائل الإعجاز للجرجاني (٣٢-٣٣).

التأمُّل مشروعُ فكرَةٍ، والاطلاعُ المجرَّدُ مشروعُ معلومَةٍ، وإنما يحصل التمايز بين الطلبة بقدر استحواذهم على الأفكار لا المعلومات، فلا شأنَ للمعلومات إلَّا بقدر ما يُمِدُّها به العقلُ من إدراكه وتأمُّله، وقليلٌ من العلم مع تأمُّلٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من كثيرٍ لا يديرُه الطالب على فهمِه وتأمُّلِه، ولذلك لما رأى الإمام مالكٌ (١٧٩هـ) تلميذَيه وابنَي أخته مشتغِلَينِ بعلم الحديث - وهو علمٌ يحرِّضُ طالبَه على جمع الروايات وتتبع طرقها بما قد يضرُّ بفقهها وتأمُّلها - قال لهما: (أراكما تحبَّان هذا الشأنَ، فإن أردتُّما أن ينفعكما الله به فأقلَّا منه وتفقَّها فيه)[١].

فآلَ الأمرُ إذًا إلى استثمارِ المعلومات لا استكثارِها، إلى تخيُّرِ هيئة المعلومات وتوخِّي موقعها وحسنِ التصرُّفِ فيها لا مجرَّدِ العلم بها.

وقلِّبْ طرفك في جنبات التراث المعرفي للعلماء بشتى طبقاتهم، ستجد السَّادةَ هم من كانت الأفكارُ هي المحرِّكَ الأكبرَ لعلمهم، وبها تقلَّدوا مناصب التحقيق، بخلاف من نصب نفسه لاجترار المعلومات المنثورة عند الشركاء دون استثمارها.

ومن أولئك السَّادة المتأمِّلِين الذين كان تأمُّلُهم فتيلَ تحقيقاتهم: ابنُ دقيق العيد (٧٠٢هـ)، فإنه لم يشتهر بكثرة النقل، ولكنَّ قدرتَه التأمُّلِيَّةَ أخضعت رقاب المدائح لعلمه، حتى عند من كان ينافرُه ولا يحبُّه.

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٣: ١٥٥).

قال الأدفوي (٧٤٨هـ) في ترجمته: (... أمَّا نقدُه وتدقيقُه فلا يُوازَى فيه، جرى ذكرُ ذلك مرَّةً عند الشيخ صدر الدين ابن الوكيل، وكان لا يحبُّه، وكان يتكلَّم في شيء يتعلَّقُ به، ويذكر أنه ليس كثيرَ النقل[1]، فشرعتُ أذكر له شيئًا إلى آخر الكلام، ذكرتُ له بحثًا، فقال: «لا يا سيدي، أمَّا إذا نقد وحرَّر فلا يُوَفِّيه أحدٌ»)[2].

لمثل هذا كان ابن دقيق العيد (٧٠٢هـ) يقول: (ما خرجتُ من بابٍ من أبواب الفقه واحتجتُ أن أعود إليه)[3]. وما ذلك إلا لأنَّه كان لا يغادر البابَ حتى يُرهِقَه تأمُّلًا، والتأمُّل خزانة العلم، لأنه يوطِّئ للعلم مكانًا راسخًا في عقل المحصِّل، وقلَّما ينسى المرء مسألةً تأمَّلها، وبقدر تأمُّلِه لها يزداد رسوخُها وتشتدُّ أواصرُها.

لستُ بطبيعة الحال أفرِض تقابلًا بين التأمُّل والجمع، ولا بين الأفكار والمعلومات، ولست أضدِّدُ بين مسارات التحصيل بما يجني على بعضِها

(١) من شواهد عدم اتساعه في النقل ما نقله التاج السبكي (٧٧١هـ) عن والده بقوله: (سمعت الشيخ الإمام يقول: حكى لي شيخنا ابن الرفعة أنه دخل على ابن دقيق العيد يومًا - وكان كثير الكتب - فوجد بين يديه فتيا، وهو يقلِّبُ الكتب ظهرًا لبطن، وقد سِيمَ من الكشف وأعوزه النقل وأضجره التعب، فقال لي: الله جاء بك، ما تقول في كيتَ وكيتَ .. فذكر له مسألةً من «التنبيه» قال: فأمسكتُ طويلًا. قال لي: ما بك؟ فقلتُ: السائلُ عظيمٌ لا يسأل إلا عن مُشكِل، وهذه في بادئ الرأي واضحة، فأنا أردِّدُ فكري في موضع الإشكال منها. فقال: لا والله، إنما هي فتيا وردت علي، وأعوزني النقل فيها. فقلت: هي في «التنبيه» وقرأتُ لفظَه عليه) ترشيح التوشيح (٤٦أ - ٤٦ب «مخطوط»). ويقابل ذلك قول الأدفوي: (في تصانيفه من الفروع الغريبة والوجوه والأقاويل ما ليس في كثير من المبسوطات، ولا يعرفه كثير من النَّقَلة) الطالع السعيد (٥٨١).

(٢) الطالع السعيد (٥٨١).

(٣) الطالع السعيد (٥٨٠).

لحساب بعضٍ، فما ابتُلي طلبة العلم في زماننا بمثل هذا التضديد الذي يُربِك التحصيل ويُقلِق الخطط، فكما أن التأمُّل غايةٌ، فكذلك جمعُ المعارف والمعلومات، بل إنَّ فاعليَّةَ التأمُّلِ مشروطةٌ بتحصيل المعلومات وجمعها، ولا يمكن للطالب أن يتحرَّكَ في أرضٍ فَضَاءٍ خاليةٍ منها، ومن هنا كان نقصُ المعلومات مَزِلَّةَ تأمُّلٍ، غير أنَّ الشأن هنا في الإشارة إلى أنَّ الارتياضَ بالعلم وحسنَ التصرُّف فيه لا يكون بمجرَّد تطويق المعلومات وامتلاك المصادر، بل لا يكون ذلك حتَّى تُوظَّفَ وتُستثمَرَ لبناء الأفكار والمفاهيم.

والمعلومات بمنزلة الألفاظ، والأفكار بمنزلة المعاني، و(المعنى هو المقصود، واللَّفظ وسيلةٌ إليه، فتعلُّمُ المعنى وتعليمُه = تعلُّمُ الغاية وتعليمُها، وتعلُّمُ اللَّفظ وتعليمُه = تعلُّمُ المسائل وتعليمُها .. وبينهما كما بين الغايات والوسائل)[1].

فالتحقيقُ العلمي إذًا يتعاظم بقدر استكمالِ الطالب لقوَّتي الجمع والتأمُّل، وبقدر فواتِ إحدى هاتين القوَّتين يدخل النقص على علمِ الطالب، وفضلُ ما بين هاتين القوَّتين كفضل ما بين القلبِ وحَجَبَتِه، وتبيانُ ذلك ما قالهُ شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة (٧٢٨هـ)، فبعد أن ذكرَ وظيفةَ كلٍّ من القلبِ - وهو آلة التأمُّل - والعينِ والأذنِ - وهما آلتا الجمع - وما لكلٍّ منها من العمل والقوَّة، وبيَّن أنَّ القلبَ إنما خُلِق لتُعلَمَ به الأشياء، وأنَّ مطيَّتَه التي يتوجَّه بها إلى الأشياء ابتغاءَ العلم بها هي الفكرُ والنَّظرُ، وأنَّ العينَ والأذنَ يحملان إلى القلب ما يعمل فيه بفكره ونظره = قرَّر ما به يُعلَمُ

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١: ٢٠٢).

فضلُ ما بين الجمعِ والتأمُّلِ، المعلوماتِ والأفكارِ، فقال: (فصاحبُ العلمِ في حقيقة الأمر هو القلبُ، وإنَّما سائرُ الأعضاء حَجَبَتُه تُوصِل إليه من الأخبار ما لم يكن ليأخذه بنفسه، حتى إنَّ من فقد شيئًا من هذه الأعضاء فإنه يفقد بفقده من العلم ما كان هو الواسطةَ فيه، فالأصمُّ لا يعلم ما في الكلام من العلم، والضريرُ لا يدري ما تحتوي عليه الأشخاص من الحكمة البالغة .. وكذلك من نظر إلى الأشياء بغير قلب، أو استمع إلى كلمات أهل العلم بغير قلب = فإنه لا يعقل شيئًا، فمدار الأمر على القلب)[1].

فليس المدارُ على جمع المعلومات، بل على تأمُّلِها وإعمال الفكر فيها، (ولن ينتفعَ بالنظر إلَّا من يُحسِنُ أن يتأمَّل)[2]، وإذا نال الطالب حظًّا وافرًا من الجمع والتأمُّل بلغ ذُرَى المجد العلمي.

وإذا أتى ذِكرُ الذُّرَى هبَّت رياحُ أبي العبَّاس ابنِ تيميَّة (٧٢٨هـ)، وإذا كان ابن دقيق العيد (٧٠٢هـ) لا يخرج من بابٌ حتى يقتله فهمًا وتأمُّلًا، فإنَّ ابنَ تيميَّة لا يخرجُ من بابٍ إلا وقد فتحَ بتأمُّلِه فيه علومًا وأبوابًا .. يقول عنه تلميذُه العالمُ الشابُّ ابنُ عبدالهادي (٧٤٤هـ): (لا تكاد نفسُه تشبَعُ من العلم، ولا تروى من المطالعة، ولا تَـمَلُّ من الاشتغال، ولا تكلُّ من البحث، وقلَّ أن يدخلَ في علمِ من العلوم، في بابٍ من أبوابه، إلَّا ويُفتَح له من ذلك البابِ أبوابٌ، ويستدرك أشياءَ في ذلك العلم على حُذَّاقِ أهله)[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (٩: ٣١٠-٣١١).
(٢) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري لأبي القاسم الآمدي (١: ٤١١).
(٣) طبقات علماء الحديث (٤: ٢٨٢).

ولو كان التأمُّل كتابًا لكان ابنُ تيميَّة (٧٢٨هـ) عنوانَه وأبوابَه، فكلُّ ما ورَّثه من كتبٍ ورسائلَ شاهدُ صدقٍ على فضيلة التأمُّل وعظيم أثره في علم العالم وتحقيقه، وأنت لن تجد دلالةً أقوى على شَرَف التأمُّل من أن تقدِّم ابن تيمية برهانًا على ذلك، فإنَّ المعارفَ عنده لا كالمعارف، وذلك لأن عقلَه التأمُّليَّ مع اتساع دائرة مطالعاته ومحفوظاته قد بلغ حدًّا من الإعجاز جعل من المعارف الناشئة عنه ذاتَ طابعٍ خاصٍّ وامتيازٍ عديمِ النَّظير، وهذا ما مكَّنه من تملُّك نواصي العلوم والغوص في أعماقها حتى بلغ من العلم مقامًا أهَّله لأن يستدرك على أهل كل فنٍّ ما حرَّروه وقرَّروه.

وهذا الامتياز وتلك الفتوح لا تكون بمجرَّد الجمع، ولا بمحض التأمُّل، بل باجتماعهما واتساعهما .. ولـمَّا اجتمع ابن دقيق العيد (٧٠٢هـ) بابن تيمية - وقد كان ذلك لما وفد ابن دقيق العيد القاهرةَ قبل وفاته بعامين سنة (٧٠٠هـ) - لم يلفت نظر ابن دقيق العيد في ابن تيمية شيءٌ كقدرته الفائقة على الحفظ والاستحضار، فلم يتكلم عن قدرته في الفهم والتأمل، لأنَّ من عادة المرء إذا سئل عن شخصية ما أن يتحدث عما فاته مما تحلَّى به المسؤول، ولما كان ابن دقيق العيد من أئمة النظر والفهم والتأمل شَخَصَ بتوصيفه إلى قدرة ابن تيمية النادرة على الحفظ والاستحواذ على المعلومات والمعارف، فقال: (رأيت رجلًا كلُّ العلوم بين عينيه، يأخذ ما يريد ويدع ما يريد)[1].

فبحفظٍ أذهل ابنَ دقيق العيد، وبتأمُّلٍ تشهدُ به مصنَّفاتُه بلغ ابنُ تيميَّة أنْ كان شيخَ الإسلام، نسيجَ وحدِه وفَرْدَ زمانه في العلم والمعرفة.

---

(١) المقفى الكبير للمقريزي (١: ٢٨٥).

نظيرُ ما تقدَّم في الموازنة بين مرتبتَي الأفكار والمعلومات ما يُقال في القدرة البلاغيَّة والبيانيَّة، فليس الشأن فيها متعلِّقًا بحفظ المفردات ودراية الأساليب، بل حتَّى تكون للبليغ قدرةٌ على حسن التصرُّف في الكلام وتوخِّي مواقع المفردات في نثره وشعره.

ولما ذكر الجرجاني (٤٧١هـ) أنَّ غَلَطَ الناس في شأن البلاغة كثيرٌ بيَّنَ ذلك وضربَ له مثلًا، فقال: (فمِنْ ذلك أنك تجد كثيرًا ممَّن يتكلَّمُ في شأن البلاغة، إذا ذكر أنَّ للعرب الفضلَ والمزيةَ في حُسْنِ النظمِ والتأليفِ، وأنَّ لها في ذلك شأوًا لا يبلُغُه الدُّخَلاءُ في كلامهم والمولَّدونَ = جعَلَ يُعلِّل ذلك بأنْ يقولَ: «لا غرْوَ، فإنَّ اللُّغَةَ لها بالطَّبعِ ولنا بالتكلُّف، ولن يبلغ الدخيل في اللُّغات والألسنة مبْلَغَ مَنْ نشأ عليها، وبُدِئَ مِن أوَّلِ خَلْقهِ بها»، وأشباهِ هذا مما يُوهِمُ أنَّ المزيَّةَ أتتْها من جانبِ العِلْم باللُّغة) .. فالجرجانيُّ إذًا ينكر أن تكون مزيَّة العرب كامنةً في جانب علمها باللُّغة، فبأيِّ شيءٍ امتازت؟

يجيب عن ذلك، فيقول: (اعلمْ أنَّا لم نُوجِب المزيَّةَ من أجل العلم بأنفُسِ الفروقِ والوجوهِ فنستند إلى اللُّغة، **ولكنَّا أوجبناها للعلم بمواضعها، وما ينبغي أن يصنع فيها**، فليس الفضلُ للعلم بأنَّ «الواو» للجمع، و«الفاء» للتعقيب بغير تَراخٍ، و«ثم» له بشرطِ التَّراخي، و«إنْ» لكذا، و«إذا» لكذا، ولكنْ لأَنْ يتأتَّى لكَ إذا نظَمْتَ شعرًا وألَّفْتَ رسالةً أنْ تُحسِنَ التخيُّرَ، وأن تَعْرِفَ لكلٍّ مِنْ ذلك مَوضِعَه)[1].

(١) دلائل الإعجاز (٢٤٩-٢٥٠).

وقد أدار الجرجاني (٤٧١هـ) هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتابه الفَرْد «دلائل الإعجاز»، وذكر له من التطبيقاتِ والـمُثُلِ ما يُبهِج، وهذا في كلامه من المرقِّصَات، فإنه أحسنَ فيه ما شاء.

ومن الشواهد العزيزة والإشارات الأثيرة في هذا السياق ما جاء في ترجمة الإمام البيهقي (٤٥٨هـ) مصنِّفِ «السُّنن الكبير»، و«معرفة السنن والآثار»، و«دلائل النبوة»، و«شعب الإيمان»، و«الأسماء والصِّفات»، وغيرها، فقد قال عنه الذهبي (٧٤٨هـ) مشيرًا إلى جوهر التميُّز في مشاريعه العلمية الإنتاجيَّة: (لم يقع له «جامع الترمذي»، ولا «سنن النَّسائي»، ولا «سنن ابن ماجه»، ودائرتُه في الحديث ليست كبيرة، بل بُورِكَ له في مرويَّاتِه، وحَسُنَ **تصرُّفُه فيها**، لحذقه وخبرته بالأبواب والرجال)[1].

فلم تكن دائرة البيهقي كبيرةً في الحديث، لكن لـمَّا كان له اقتدارٌ على حُسنِ التصرُّف في العلم بورك له فيه، وحُسنُ التَّصرُّفِ هذا لا يُؤتاه الطالب بكثرة ما يحصِّله، بل بخبرته بما حصَّله وحِذْقِه فيه، كما أشار الذهبي إلى ذلك حين تعليله حسنَ تصرُّفِ البيهقي بقوله: (لحذقه وخبرته بالأبواب والرجال).

أمَّا الخبرة فتُنالُ بطولِ ملابسة العلم، وإدامةِ النظر والتأمُّل فيه، وأمَّا الحذق فمنه ما يُنال بذلك، ومنه ما يُنال بالذكاء الذي يهبه الله لمن يشاء من عباده، وقد كان ابن حجر (٨٥٢هـ) يبدي تمنُّعَه من تدريس غير علم الحديث لأعذار يبديها لمن يطلب منه ذلك، كقوله لبعضهم: (جهدي أتفرَّغُ لإلقاء

---

(١) تاريخ الإسلام (١٩: ٩٥).

العلم الذي يُقال إنّني أعرفه). غير أن السخاوي (٩٠٢هـ) عقّب ذلك بقوله: (هذا مع كونه أستاذًا في كل فنٍّ بحُسْنِ ذكائه)[1]. فالذكاء يساعف صاحبَه بحسن التصرُّف في المادّة العلميّة التي يمتلكها، ولو كانت محدودةً.

ومن الأعلام الذين ارتاضوا بالعلم حتى رُزِقوا حسنَ التصرُّف فيه: أحمد فارس الشدياق (١٣٠٤هـ) أحد أعلام اللُّغة في العصر الحديث، فقد عَشِقَ اللُّغةَ، وكَلِفَ بها، فكانتْ أنسَه وصفوَه، وكتب في موضوعاتها كتبًا ومقالات، منها كتابه «سر اللّيال في القلب والإبدال»، وقد كشف في تضاعيفه عن واقع مصادره اللُّغوية، فأتى بما أدهش، لكن لا من جهة وفرتها وتنوعها، بل بعكس ذلك تمامًا!

وذلك أن الحديث ساقه لـ «القاموس المحيط»، فبيَّن أن صاحبَه لم يكن له همٌّ سوى جمع الألفاظ دون مراعاةِ نسق المشتقات وضمِّ كل فرع إلى أصله، ولذلك كانت عبارته مشتَّتَةً للنظائر، ثم قال: (فكان من همِّي في هذا التأليف أن أرُدَّ كلَّ فرعٍ إلى أصله، وأن أنسق معاني المادة نسقًا يبيِّنُ مأخذَها وعلاقتَها ومناسبتَها، وفي ذلك من العناء والجهد ما لا يخفى، وربَّما أحوجَ تنسيقُ المعاني وضمُّ المباني إلى تفسير فعلٍ مشهورِ الاستعمال بفعلٍ هو دونه في الشهرة).

وبعد أن ذكر أمثلةً لذلك قال: (ولو كانت عبارة «القاموس» واضحةً كعبارة «الصحاح» لاتَّسع المجال أكثرَ مما جُلْتُ فيه، وإنما لم أعدِلْ عنه إلى «الصحاح» لكونه أجمع للألفاظ، وليس عندي من كتب اللُّغة المطولة غيرهما)[2].

---

(١) الجواهر والدرر (٣: ١٠٢٤).
(٢) (١٤٥-١٤٦).

فالشدياق (١٣٠٤هـ) الذي انتهض للفيروز آبادي (٨١٧هـ)، وصنَّف «الجاسوس على القاموس»، لم يكن عنده من كتب اللُّغة المطولة إلا كتابان فقط، ولكنَّ حُسْنَ التصرُّفِ فيهما والتوسُّلِ بهما للنُّفُوذ إلى أغوارِ اللُّغة ودقائقِها مكَّنه من تملُّك ناصيتها.

وقد أشار الشدياق في مطلع «الجاسوس» لاختصاصه بالقاموس، ومضت الإشارة إلى ذلك في فصل (تحقيق العلم)، وتقدَّم نقل قوله: (إني معترفٌ بأن لصاحب القاموس عليَّ فضلًا كبيرًا، ومنه توجِب أن أكون لها ما عشتُ شكورًا، فإنه هو الذي ألجأني إلى الخوض في بحر اللُّغة الزاخر لاستخراج جوهرها الفاخر)[1].

فهذا من أسرار حسن تصرُّفه، إذ إنَّ اختصاصَه بالقاموس وكثرةَ ملابستِهِ وتأمُّلِهِ له كان له أثرٌ بالغٌ في قدرتِه اللُّغوية، ثم عطائِه وإنتاجِه اللُّغوي، حيث أدار كثيرًا من آرائه ونظراته على موادِّ القاموس ومخبَّآتِه.

فكما أن البيهقي (٤٥٨هـ) لم تكن دائرته في الحديث كبيرةً، ومع ذلك كان من أعلام المحدثين، فكذلك الشدياق، لم تكن دائرته في اللُّغة كبيرة، ومع ذلك كان من أعلام اللُّغَويين، والخبرةُ كفيلةٌ بأن تجعلَ من ضيِّقِ المصادر واسعَها بتأمُّله وحسنِ تصرُّفه.

---

(١) الجاسوس على القاموس (٦).

من مهارات التأمُّل الفاعلة في شتى المعارف مهارة استشكال المادة، وكثيرًا ما تَعرِضُ لطالب العلم في قراءاته بعضُ المعلومات والنتائج المشكلة، وهذا الإشكال إمَّا أن يدركه القارئ بتنافر موادِّ المعلومة الماثلة بين عينيه، أو ينصَّ عليه الناقل، وهذا النوع من المعارف من أجلِّ مثارات النظر، ومن أقبَلِ المحالِّ العلميَّةِ للارتياض بالتأمُّل.

طالب العلم حيالَ ذلك ربَّما سلَّم بما يعترضه من إشكالٍ وأذعن لبادي رأيِه أو لاستشكالِ غيرِه، فلم يظفرْ إلَّا بكون هذه القضية من المحارات، وهذا بحدِّ ذاته حصادٌ معرفيٌّ، لكنَّ الأمثَلَ أن يجعل القارئ من هذا الإشكال مُبتدَأً بحثٍ وتأمُّلٍ بتثوير مكوِّنات المادَّة المشكلة، فربما كان هذا الاستشكال مبنيًّا على خطإٍ في النقل أو نقصٍ فيه، ومثلُ هذه الموادِّ تبعثُ على القراءة والتنقيب، وتُحقِّقُ لطالب العلم فوائدَ كثيرةً.

وإذا نمَّى في حواسِّهِ وصناعاته المعرفية صناعةَ الاستشكال وتعقَّبَ بها المعلوماتِ وساءَلها = تحصَّل له بكثرة تفعيله لها وارتياضه بها مِن كَشفِ مخبَّآت المعارف ما لا يحصى، وهو ما يجعل كثيرًا من الطلاب يقف على فوائد في غير مظانِّها، فإذا ضمَّها إلى ما معه تهلَّلَ وجهُ تحصيله، وطَرِبَتْ عينُ معارفه.

وكما يكون الاستشكال للموادِّ المحصَّلةِ عند آخرين، فعلى الطالب كذلك أن يستشكلَ نتائجَه التي حصَّلها ويجدِّدَ استشكالها من حينٍ لآخر، ويُسائلَ دومًا مقرَّراتِه التي توصَّل إليها، وذلك ليُقوِّمَ معوجَّها ويُحكِمَ مُنآدَها، فلا يرد عليها اعتراضٌ إلا وقد أمكنه الانفصالُ عنه.

تأمُّلُ ساعةٍ خيرٌ من قراءة ليلة، والقراءةُ بلا تفكيرٍ لا توصل إلى شيء من العلم كما يقرِّر ابن باديس (١٣٥٩هـ)، وأن تقرأ كتابًا ثلاث مرات أنفع من قراءتك ثلاثة كتب كما يقول العقَّاد (١٣٨٣هـ).

وللعلم دقائق وأسرار (طريقُ العلمِ بها الرَّوِيَّةُ والفِكرُ)[١]، ومن ثَمَّ فإنه (ينبغي لطالب العلم أن يكون متأمِّلًا في جميع الأوقات في دقائق العلوم، ويعتادَ ذلك، فإنَّما يُدرِكُ الدَّقائقَ بالتأمُّل)[٢].

ولذلك كانت وصية الخليل (١٧٠هـ) أنْ (كُنْ على مدارسةِ ما في قلبِكَ أحرصَ منكَ على حفظِ ما في كُتبِكَ)[٣].

تأمَّلْ في علمٍ، في كتابٍ، في مسألةٍ.

تأمَّلْ لتخليق فكرة، لصناعة مدخل، لزرع إشكال.

تأمَّلْ، فإنَّ جوهر العلم لا يُنال بغير التحقيق فيه، والتحقيق في العلم لا يكون إلَّا باستعمال الفكر، وإمعان النظر، واستثمار العقل بتحديق بصيرته إلى صواب الغوامض بطول التأمُّل، (فأمَّا مَن سوَّلَت له نفسه دَرْكَ البغية بمجرَّد المشامَّة والمطالعة، معتلًّا بالنظر الأول، والخاطر السابق، والفكرة الأولى، مع تقسيم الخواطر، واضطراب الفكر، والتساهل في البحث والتنقير، والانفكاك عن الجد والتشمير = فاحكُم عليه بأنه مغرور

---

(١) دلائل الإعجاز للجرجاني (٧).

(٢) تعليم المتعلم للزرنوجي (٩١-٩٢).

(٣) الكامل للمبرد (١: ٥٠٣).

مغبون، وأخلِقْ به أن يكون من الذين لا يعلمون الكتابَ إلا أمانيَّ وإن هم إلّا يظنون)[1].

تأمّلْ في كلمات العلماء، فإنَّ فيها من جليل المعاني ودقيق الأنظار ما هو حقيق بالتأمُّل واستكداد الفهم، والشأن كما قال أبو الدرداء (٣٢هـ) رضي الله عنه: (ما نحنُ لولا كلماتُ العلماء؟)[2].

وقد حرَّرَ تقي الدين السبكي (٧٥٦هـ) القولَ في مسألةٍ، وبحثَها بما عدَّه من (نفائس المباحث)، ثم بيَّن أن الذي حرَّكه لهذا البحث والتحرير تأمُّلُه في كلامٍ للشافعي (٢٠٤هـ)، ثم قال: (ما أنفعَ تأمُّلَ كلام العلماء رضي الله عنهم)[3].

وإذا كان هذا مع كلام العلماء، فكيف هي الحال مع كلام رسول الله ﷺ المعطَى جوامعَ الكَلِم؟!

بل كيف هي الحال مع كلام الله تعالى الذي نزَّله ووصفه جلَّ في علاه بأنه (أحسن الحديث)؟!

واستمعْ إلى زَفْرَة ابن القيم (٧٥١هـ) حين تكلَّمَ عن قول الله تعالى في مطلع سورة غافر: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣] بكلامٍ امتدَّ لبضعة صفحات، واستنبط من هذه الآية جُمَلًا من العلوم والمعارف، ثم قال:

---

(١) شفاء الغليل للغزالي (٦).

(٢) مسند الدارمي (١: ٣٥٩ - رقم: ٤٠٢).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٠: ٢٧٥).

(هل خطر ببالك قطُّ أن هذه الآية تتضمَّن هذه العلوم والمعارف مع كثرة قراءتك لها وسماعك إيَّاها؟!

وهكذا سائرُ آيات القرآن .. فما أشدَّها من حسرةٍ وما أعظمَها من غبنةٍ على من أفنى أوقاته في طلب العلم، ثم يخرج من الدنيا وما فَهِمَ حقائق القرآن، ولا باشرَ قلبُه أسرارَه ومعانيَه، فالله المستعان)[1].

*****

هذا، وإنَّ للعلمِ فَرْحةً، لا تُنَال بحصد أكبر قدر من الفوائد والـمُلَح، ولا بالترنُّم - حين تُسألُ - ببضعة أبيات من هذه المنظومة أو تلك، وإنما تُنَال حين يترنَّحُ عقلُك من رَهَق التأمُّل في دهليز مسألةٍ مظلمةِ الآخِر، ويتهادى فكرُك ذليلًا خلفَ أذيال قضية مغلقة، حتى إذا ما أزِفَت ساعتُك انسدَلَ لك خيطُ الفتح، وانحلَّت عُقَدُ الإشكال .. هنالك الفَرْحة.

يسجِّل الجاحظ (٢٥٥هـ) ذلك، ويبين كيف تَنفَصِمُ عُرَى الحزم مع فيوض فَرْحة الكشف، فيقول: (للعلم سَورةٌ، ولانفتاحه بعد استغلاقه فرحةٌ، لا يضبطها بشريٌّ وإن اشتدَّت حُنكَتُه، وقَوِيَت مُنَّتُه، وفَضَلت قُوَّتُه)[2].

ما أضيقَ العلمَ لولا فُسحَةُ الفَرَحِ!

---

(١) بدائع الفوائد (١: ٣٣٨).

(٢) العثمانية للجاحظ (٢٦٧).


Scanned by CamScanner

إثارة العلم

(اعْلَمْ أَنَّكَ لَا تَشْفِي العِلَّةَ وَلَا تَنْتَهِي إِلَى ثَلَجِ اليَقِينِ حَتَّى تَتَجَاوَزَ حَدَّ العِلْمِ بِالشَّيْءِ مُجْمَلًا إِلَى العِلْمِ بِهِ مُفَصَّلًا، وَحَتَّى لَا يُقْنِعَكَ إِلَّا النَّظَرُ فِي زَوَايَاهُ، وَالتَّغَلْغُلُ فِي مَكَامِنِهِ، وَحَتَّى تَكُونَ كَمَنْ تَتَبَّعَ المَاءَ حَتَّى عَرَفَ مَنْبَعَهُ، وَانْتَهَى فِي البَحْثِ عَنْ جَوْهَرِ العُودِ الَّذِي يُصْنَعُ فِيهِ إِلَى أَنْ يَعْرِفَ مَنْبِتَهُ وَمَجْرَى عُرُوقِ الشَّجَرِ الَّذِي هُوَ مِنْهُ)

عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)



عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال:

«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ».

أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الْمُعْجَمِ الأَوْسَطِ» (٨٩٧).

(١)

من أجلِّ مَلَكات طالب العلم: ملكة الصناعة البحثيَّة، وهذه الملكة ركيزةٌ أساسيَّةٌ في خارطة تحصيله، وبها ينالُ رُتَبًا عاليةً من التحقيق والتحرير بوساطةِ ملاحقاته البحثية في مجاحر العلم ومكامن المعرفة.

الطالبُ في بحثه يثيرُ المادَّة، ويطاردُها، ويختبرُها بعرضها على نظائرها، ويجوِّدُها بوضعها في حاقِّ موضعها، بينما هو في قراءته وحفظه وفهمه أسيرٌ لها، تحرِّكه المادَّة وتقلِّبه.

ثمَّ إنَّ الصناعة البحثيَّة مَلَكةٌ جامعةٌ، ينال الطالبُ بالدُّرْبة عليها عِدَّةَ ملكاتٍ، لِـمَا أنَّ الصناعة البحثية تفعيلٌ للمادَّة وانفعالٌ بها، كما يتقلَّبُ فيها بين القراءة والجمع والتحليل والتركيب والمقارنة والتقويم، فلا يغادرُ المادَّةَ المبحوثةَ إلَّا وقد فُتِّحَت له أبوابُ جُمَلِها، وألقتْ بمفاتيحِها خَزَنةُ تفاصيلها.

وقد قال الإمامُ الجرجانيُّ (٤٧١هـ) - أحدُ أساطين البحث والابتكار في العلوم العربيَّة والإسلاميَّة -: (واعلم أنّك لا تَشفِي العِلَّة ولا تنتهي إلى ثَلَجِ اليقين حتى تتجاوزَ حدَّ العلم بالشيء مجمَلًا إلى العلم به مفصَّلًا، وحتى لا يُقنِعَكَ إلا النَّظَرُ في زواياه، والتَّغلغُلُ في مكامنه، وحتى تكونَ كمن تتبَّعَ الماء حتى عرف منبَعَه، وانتهى في البحث عن جوهر العُود الذي يُصنَع فيه إلى أن يعرفَ مَنبِتَه ومَجرَى عروقَ الشَّجَرِ الذي هو منه)[1].

(٢)

كثيرٌ من الكَتَبَة حين حديثه عن البحث العلمي يتناول ما يتعلق بالكتابة البحثية .. والكتابة البحثية بأنواعها وخطواتها وتقسيماتها شيءٌ، والصناعة البحثية شيءٌ آخرُ.

وهذا الفصلُ يتناول الحديث عن الصناعة لا الكتابة، فالكتابة البحثية وسيلةٌ ناقلةٌ، بينما الصناعة البحثية وسيلةٌ منتِجةٌ، وربَّما كان محصَّلُ الصناعةِ البحثيَّةِ سطرًا واحدًا، لكنَّ الباحثَ احتاج للوصول إلى هذا السطر أن يقرأ عشرات وربما مئات الصفحات، كما احتاج إلى أن يستثمرَ مختلفَ حواسِّه المعرفية.

فما في هذا الفصل إنَّما هو حديثٌ عن الصناعة البحثيَّة التي لا يخلو برنامج الطالب منها مهما كانت مرحلته، ومن ثَمَّ فليس الحديثُ مختصًّا

(١) دلائل الإعجاز (٢٦٠).

عن نوعٍ من الطلبة، بل هو شاملٌ لعموم الطلبة، فقد لا يتهيّأ طالب العلم للكتابة البحثية ولو بلغ من العلم منتهاه، لكنَّ خارطةَ ملكاته لا يمكن أن تخلو من ملكة الصناعة البحثية ما دام يبغي من العلم دفائنَه وجواهرَه.

هذا، وإنّ مما يفترضه هذا الفصل:

أنَّ من ضرورات الصناعة البحثيَّة العلمَ بمصادرِ المعرفة، ومظانِّ العلم، و(معرفةُ مظنَّة العلم نصفُ العلم) كما يقول الطناحي (١٤١٩هـ)[1].

وأنَّ القدرة البحثية فرعٌ عن القدرة المعرفية، فإذا اشتدَّ عُود هذه اشتدَّ عُود تلك، ومن عَرِي عن حظٍّ وافرٍ من المحفوظ والمعلوم وقلَّ نصيبُه من الخبرة بالعلم ومعاناة مسائله أتى ذلك على بحثه بالنقص، وذلك (أنَّ العقل وإن اشتدَّ مَغرِزُه، وثبتت أواخيُّه، وجاد نحتُه = فإنه لا يبلغ بنفسه درك الغاية دون كثرة السَّماع والتَّجرِبَة)[2].

كما يفترضُ أنَّ للمواهب الفطرية أثرًا بالغًا في جودة البحث وإبداع الباحث.

وقد قيَّدتُ في هذا الفصل خمسَ صناعاتٍ بحثيَّة، وهي: التمييزات المعرفيَّة الذهنيَّة، احتفال العقل بالسؤالات، توخِّي موقع المادَّة من عمود البحث، توسيل المعلومة، استجلاب الأفق المعرفي .. ولم أُرِد بهذه الخمسِ حصرَ الصناعات، وإنَّما أردت أن أثبتَ جملةً منها لأدلَّ على ما هو من جنسها.

---

(١) في اللغة والأدب (١: ٢٨٨).
(٢) العثمانية للجاحظ (٣١).

(٣)

■ الصناعة الأولى: التمييزات المعرفيَّة الذهنيَّة:

المراد بالتمييزات المعرفية: ملاحظةُ أنواع المعارف وأجناسها، وفرزُها.

وتقييدُها بـ (الذهنيَّةِ) ضرورةَ أنَّ الناظر لا بدَّ أن يستصحبها حال قراءته ومعالجته.

وهذه الصناعة من ضرورات تجويد جمع المادة وفرزها، ولها مرحلتان، قبليَّة وبعديَّة:

أمَّا القبْليَّة فعلى الطالب قبل الخوض في البحث قراءةً وتنقيبًا أن يُجهِد عقلَه في وضع تمييزاتٍ تُعِينه على إنزالِ كلِّ معلومةٍ محصَّلةٍ في موضعها اللَّائقِ بها من أوعية الموضوع المراد بحثه.

ومن مثارات الغلط البحثي أن يستعجلَ في البحث عن مطلوبه قبل أن يُديرَ في ذهنه التمييزات الصالحة لبحثه.

وأمَّا البعديَّة فمن الضرورة البحثيَّة نشوءُ تمييزاتٍ معرفيَّةٍ بعد الشروع في البحث، لأنَّ الباحثَ مهما أعدَّ من تمييزاتٍ، فلا بُدَّ أن يصادفَ من الموادِّ ما يحرِّكُ في ذهنه مزيدًا من التمييزات المعرفيَّة.

وأنا أضرب لهذه الصناعة مثلًا من الفقه:

في البدء لا بُدَّ أن يدرك الباحث أنَّ للفقه تمييزاتٍ كثيرةً تختلف باختلاف موضوعاته، فمنها التمييز بين المسائل والدلائل، المقدمات والنتائج،

الآثار والمؤثرات، مواضع الوفاق والخلاف، ثمَّ تحت هذه التمييزاتِ تمييزاتٌ أخرى تتفرَّع عنها، ففي الدَّلائل تمييزٌ بين ما هو أصلي وبين ما هو تبعي، وفي الخلاف تمييزٌ متعلِّقٌ برتبة الخلاف وطبقات الفقهاء المختلفين، وفي الآثار بين ما هو مؤثرٌ مستقلٌ، وبين ما هو مؤثرٌ مع مؤثراتٍ أُخَر، ونحو ذلك، ولكلٍّ من هذه التمييزات كلماتٌ مفتاحيَّةٌ متى صافحتْ عينَ الباحث دلَّته عليها، ومنها ما هو غامضٌ خفيٌّ.

من مسائل فقه الصيام: حكم صوم التطوع بنية منعقدة في النهار، وفيه خلافٌ بين الفقهاء، فأجازه الجمهور خلافًا لمالك، ثم إنَّ المجوِّزين اختلفوا في ثواب صوم التطوع بنيَّة نهاريَّة، أيبتدئ من وقت النية، أم ينال الصائم ثواب اليوم كله؟

فإذا رجع الباحث لمصادر الفقه الرئيسة، وطالع «المغني» لابن قدامة (٦٢٠هـ) فسيجد فيه قوله:

(يُحكَمُ له بالصومِ الشرعيِّ المثابِ عليه من وقت النية في المنصوص عن أحمد، وهذا قول بعض أصحاب الشافعي.

وقال أبو الخطاب في «الهداية»: يُحكَمُ له بذلك من أول النهار. وهو قول بعض أصحاب الشافعي، لأن الصوم لا يتبعَّض في اليوم ...

ولنا: أنَّ ما قبل النية لم ينو صيامه، فلا يكون صائمًا فيه؛ لقوله – عليه السلام –: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نوى». ولأنَّ الصومَ عبادةٌ محضةٌ، فلا توجد بغير نية، كسائر العبادات المحضة.

ودعوى أن الصوم لا يتبعَّض = دعوى محل النزاع، وإنما يشترط لصوم البعض أن لا توجد المفطرات في شيء من اليوم، ولهذا قال النبي ﷺ في حديث عاشوراء: «فليصم بقية يومه» ...

إذا ثبت هذا فإن من شرطه أن لا يكون طعم قبل النية، ولا فعل ما يفطره، فإن فَعَلَ شيئًا من ذلك، لم يجزئه الصيام، بغير خلاف نعلمه)[1].

الباحث الذي ينظر في هذه المادة نظرًا جُمْليًا بلا تمييزاتٍ حاضرةٍ سيخرج منها بأنَّ في المسألة قولين في مذهب الحنابلة، هما قولان للشافعيّة، واستدل هؤلاء بهذا الدليل، والآخرون بذاك، ثم ينقل ما وجده نقلَ مِسطَرة .. وأمّا الذي يقرأ هذه المادَّة مستحضِرًا التمييزاتِ السابقَ ذكرُها فسيخرج من هذه القطعة بجملة من الفوائد، منها:

- أنَّ في المسألة بين المجوِّزين موضعَ خلاف، وموضعَ وفاق، أمّا الوفاق فأنَّ صيامَ مَن فعل مفطِّرًا قبل عَقدِ النيَّة النهارية غيرُ مجزئٍ، ولا ثوابَ فيه، وأمّا الخلاف ففي حالِ ما إذا نوى في أثناء النهار ولم يكن قد أفطر قبل ذلك .. فهذه فائدة متعلقة بالوفاق والخلاف.
- أنَّ الخلافَ داخلَ مذهب الحنابلة بين قولين أحدُهما نصُّ إمام المذهب، والآخرُ قولٌ لأبي الخطاب (٥١٠هـ)، فليس القولان روايتين عن الإمام أحمد (٢٤١هـ)، وهذا يَنزِلُ بالقول الثاني رتبةً في التحقيق المذهبي .. فهذه فائدة متعلقة برتبة الخلاف المذهبي.

(١) (٤: ٣٤٢-٣٤٣) بتصرُّف.

- أنَّ ابن قدامة (٦٢٠هـ) نصَّ على أبي الخطاب (٥١٠هـ) من بين سائر الحنابلة، وهذا مثارُ بحثٍ، فلماذا نصَّ على أبي الخطابِ وحدَه وهذا القول قولٌ لشيخ أبي الخطاب كذلك وهو القاضي أبو يعلى (٤٥٨هـ)، والظاهر أنه ما دامَ شيخَه فهو قد أخذه عنه، لا سيَّما وأنَّ هذا القول لم يُنقَل عن حنبليٍّ قبل أبي يعلى، وهذا يقوِّي تأثُّرَ أبي الخطاب بشيخه في هذه المسألة، فإذا رجع الباحث لـ «الإنصاف» للمرداوي (٨٨٥هـ) وجد عن القاضي قولين، أحدهما كالمنصوص وذلك في «التعليقة»، والآخر كقول أبي الخطاب، وذلك في «المجرَّد»، فلما اختلف النقل عنه، وكان القاضي قد صنَّف «المجرَّد» قديماً[1]، وكان كتابُ «التعليقة» كتابَ بسطٍ وتدليلٍ، كان قولُه في «التعليقة» أقعَدَ، فلم ينقل عنه ابن قدامة القول الآخر.

وقد نقل المرداوي هذا القول أيضًا عن المجد ابن تيمية (٦٥٢هـ) وغيره، أمَّا المجدُ فمن الواضح سببُ عدم ذكر ابنِ قدامة لقوله فقد كان عمره حين توفي ابن قدامة ٣٠ سنة، وذلك أنه عاش بين (٥٩٠هـ - ٦٥٢هـ)، وابن قدامة عاش بين (٥٤١هـ - ٦٢٠هـ)، والظاهر أنه لم يصنف وهو في تلك السن كتبه الفقهية الذائعة، فضلًا عن أن تنتشر ويعتمد ابن قدامة النقل عنها، وأمَّا بقية من ذكرهم المرداوي فقد أتوا بعد ابن قدامة، فالأمر فيهم بيِّن. فبذلك يُدرِك الباحث سبب تخصيص ابنِ قدامة أبا الخطاب بالذِّكر.

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (٢: ٤٣).

ثم إنَّ هذا يجرُّ إلى فائدة أخرى للباحث وهي معرفة موقع هذا القول في طبقات أصحاب المذهب، فلم يَقُل بهذا القول من الحنابلة بين الإمام أحمد (٢٤١هـ) وابن قدامة (٦٢٠هـ) إلا القاضي أبو يعلى (٤٥٨هـ) وتلميذه أبو الخطاب (٥١٠هـ)، ثم إنَّ القاضي رجع عنه، فما أبعد هذا القولَ أن يكون مذهبًا، لا سيَّما مع مناهضته للمنصوص عن الإمام .. وهذه الفائدة متعلِّقة بطبقة الخلاف الفقهي، كما أنَّ لها دلالةً على بعض مناطق التأثُّر والتأثير.

- أنَّ الدليل الأصيل للقول الأول نقليٌّ، وهو حديث النيَّات، وأمَّا الدليل العقلي الذي ذكره - وهو أن الصوم عبادة محضة فلا تقع بغير نية فما قبل النية لا يثاب عليه الصائم - فتبعيٌّ، بينما دليل القول الآخر عقليٌّ، وهو أن الصوم لا يتبعض، وهذا ليس بقاضٍ في الترجيح، لكن القصد هنا بيان بعض التمييزات البحثية .. وهذه فائدةٌ متعلِّقةٌ برُتَب الدليل الفقهي.

ومِن وراء هذه الفوائدِ فوائدُ أخرى متعلقة بالنقد الفقهي وغيره، ليس هذا موضعَ بسطها، والغرض من ذلك تنبيهُ الباحثِ من خلال هذا المثال الجزئي على ضرورة التمييزات المعرفيَّة، وملاحظتها حين القراءة والبحث، فهي حاضنة الفوائد.

والتمييزاتُ المعرفيَّة تختلف باختلاف أغراض الباحثين، ولكلِّ علمٍ/ موضوعٍ من التمييزات ما يشارك فيه غيرَه من العلوم، كما أنَّ له تمييزاتٍ خاصةً به أو هي فيه أكثر حضورًا منها في غيره، كتمييز الباحث في

أصول الفرق العقدية ومذاهبها بين ما هو من مقالاتها، وما هو لوازمها، ثم في مقالاتها هناك ما هو من صميم مذهبها، وما هو من المقالات التي اضطرَّتْ إليها فرارًا من فساد بعض أبنيتها، وكتمييز الباحث الاجتماعي بين الوصف والتقييم، فالوصف مجرَّدٌ عن ملاحظة القِيَم، بخلاف التقويم الباعث على محاكمة الظواهر، ولكلٍّ من هذين الصنفين معلوماتُه وفوائدُه.

وأهلُ كلِّ فنٍّ يعلمون من القضايا الفاعلة والأوعية الحاوية في فنِّهم ما يمكِّنهم من سَبكِ تمييزاتٍ تنفخ في روح أبحاثهم حياةَ التحقيق، فليتلمَّس طالب العلم عند أهل العلوم تمييزاتِهم، وكلَّما اتَّسع اطلاعه على مختلف العلوم والمعارف اتسعت مداركُ عقله ومسالكُ بحثه .. قال الرافعي (١٣٥٦هـ): (اقرأ كلَّ ما تَصِلُ إليه يدُك، فهي طريقة شيخنا الجاحظ، وليكن غرضُك من القراءة اكتسابَ قريحة مستقلة، وفكر واسع، وملكة تقوى على الابتكار)[1].

وصناعة التمييزات تعين الباحث على التحليل والتركيب والتجريد، كما تعينه على التهميش والتركيز: تهميشِ ما لا يحتاجه، والتركيزِ على ما يحتاجه، وهذا من الأهمية بمكان، فبفقدان ذلك ربَّما أفنى الباحث وقته بما حقُّه التهميش، وأعرض عمَّا حقُّه التركيز، كما قال أبو عبيدة (٢٠٩هـ): (من شغل نفسه بغير المهم أضرَّ بالمهم)[2] .. والذهنيَّة البحثيَّة لا ينبغي أن تكون محضَ آلةٍ تجمعُ على غير قانون.

---

(١) رسائل الرافعي (٢٢).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي (٢: ٢٢٧).

وحين يُعبِّر بالتركيز في هذا السياق فهو تعبيرٌ مقصودٌ، يُراد به التركيزُ على المعلومات المهمة في إطار البحث المعيَّن، لا المعلومات المهمَّة بإطلاق، بيانُ ذلك أنَّ من المعلومات ما له دلالةٌ مهمَّةٌ لكنَّ حقَّه أن يُهمَّش في بابٍ ويُحتفَلَ به في آخرَ، وسبب ذلك (أنَّ المعلوماتِ وحداتٌ دلاليَّةٌ قابلةٌ للسير في اتجاهات مختلفة، أو قابلةٌ للتشكُّل في بُنًى أكبرَ منها، حسب احتياجات الفكر أو مقتضيات الرؤية)[1]، ولذلك كانت الحاجةُ البحثيَّةُ لصناعة التمييزات ماسَّةً، فكما أنَّها تمكِّنُ الباحث من استثمار المعلومات، فهي كذلك تمكِّنه من ضبط مسارها.

ثمَّ إنَّ هذه الصناعة البحثية فرعٌ عن تمثُّل المنهج ووجود النَّسَقِ العلميِّ الناظمِ لأفراد المعلومات، وإلا فلو عُدِم المنهجُ وفُقِد النَّسَقُ فلن يكون للتمييزاتِ المعرفيَّةِ شرعيَّةُ وجودٍ.

ومن ضرورات القول في هذا السياق أنَّ وضعَ التمييزات المعرفيَّة لا يكون بمحض هوى الباحث، فليس له أن يضعَ منها ما اتَّفق له في خاطره، ولا أن يكونَ وضعُ التمييزات سابقًا للنظر في المنهج، بل لا بُدَّ أن تكون التمييزاتُ لاحقةً له منقادةً لشرائطه، فليس كلُّ تمييزٍ يصلح أن يكون خيطًا ناظمًا للمعلومات المنثورة، لا سيَّما إذا كانت هذه التمييزات معبَّأةً بمكوِّناتٍ تفسيريَّةٍ، فاختلالُها يفضي إلى ليِّ أعناق المعارف وصرفِها عن وجهها، كصنيع د. محمد عابد الجابري (١٤٣١هـ) في مشروعه النقدي للعقل العربي حين ميَّزَ بين أبنية التراثِ ووزَّعها في دوائرَ ثلاثٍ، مستقلٍّ بعضُها

---

(١) قلق المعرفة لسعد البازعي (١٠٩).

عن بعضٍ، وهي: البيان، والبرهان، والعرفان، وفاضَلَ وافتعَلَ الصِّدَامَ بينها، ثم قرأ التراث بحبالٍ واصلةٍ بين مختلف مكوناته وبين ما وضعَ من تميزاتٍ، ومع ما لظاهر هذا الصنيع من جِدَةٍ وابتكارٍ، إلا أنَّه مجافٍ لمنطق التراث وواقعه، مُفضٍ إلى اختلال قراءته وتفسير مواقفه، جالبٌ لمقالاتٍ في غاية الفساد، بل والطرافة، (وبكل حالٍ فمعلومٌ أن التخيُّلات الفاسدة كثيرًا ما تعرض لبني آدم، بل هي كثيرةٌ عليهم)[1] كما يقول ابن تيمية (٧٢٨هـ). وقبله قال الغزالي (٥٠٥هـ): (إذا لم تكن النفس قد ارتاضت بالعلوم الحقيقية = اكتسبت بالخاطر خيالاتٍ تظنُّها حقائقَ تَنزِلُ عليها)[2].

هذا التمييز الثلاثي الذي أتى به الجابري لم يخضع لمعيار منهجي يكون أساسًا صالحًا للتمييز والتقسيم، ولذلك قال د. طه عبدالرحمن: (إن التقسيم الثلاثي: البرهان والبيان والعرفان = تقسيمٌ فاسد، ودليل فساده ازدواج المعايير المتَّبعة في وضعه، هذا الازدواج الذي لا يؤدي إليه إلَّا عدم تحصيل الملكة في العلوم الصُّورية والمنهجية)[3] .. وليس الغرضُ هنا تفصيلَ القول في ذلك، وإنَّما أردتُ التنبيهَ على أنَّ للتمييزاتِ في كلِّ علمٍ شروطًا وضوابطَ، وهي تُحصَّل من كتب أهله المحققين الذي أسَّسوا منهج النظر فيه وأحكموا القول في تطبيقاته، والشأن كما قال الإمام مالك (١٧٩هـ): (كلُّ علم يُسألُ عنه أهلُه)[4]. ومن سؤالِهم سؤالُ مصنفاتِهم.

(١) مجموع الفتاوى (١٩: ١٣٦).
(٢) ميزان العمل للغزالي (٢٢٤) ط. المعارف. وفي ط. الهلال (٥٧): (بالعلوم الحقيقة البرهانية).
(٣) تجديد المنهج في تقويم التراث (٥٥).
(٤) منجد المقرئين ومرشد الطالبين لابن الجزري (٤٥).

■ **الصناعة الثانية: احتفال العقل بالسؤالات:**

لهذه الصناعة نوعُ اتصالٍ بما قبلها، لكن هذه تضرب في عَظْم المشكلة البحثية، بينما تقف تلك دون ذلك، إذْ إنَّ صناعة التمييزات تُعَدُّ حاضنةً لفوائدَ يُرادُ منها أن تكون خادمةً لمشكلة البحث، فحين يميِّز الطالب في بحثٍ موضوعٍ ما بين أجناس فوائده وأنواعها على النحو المتقدم، فهو لا يعالج بذلك الموضوع معالجةً مباشرةً، بل إنما يتغيَّا بذلك أن يُكوِّنَ أوعيةً معرفيَّةً تعينه على جمعٍ راشدٍ للمادَّة بقصد تحليلها ودراستها، أمَّا صناعة السؤالات فليس من وظيفتها جمعُ المادَّة، وإنما الوصولُ إلى النتائج.

وبعبارةٍ موجَزَةٍ مقارِبَةٍ يمكن أن يُقالَ: صناعة التمييزات بحثٌ في المقدِّمات وإن كان لها أثرٌ في الوصول إلى النتائج، وصناعة السؤالات بحثٌ في النتائج وإن كان لها أثرٌ في إيجاد المقدِّمات .. فبينهما التقاءٌ وافتراق.

السؤالاتُ البحثيَّةُ هي السبيلُ إلى الوقوف على جوامع المعارف، فالعقلُ المحتفِلُ بالسؤالات حين يقصد إلى مصادر المعرفة يرى من المعلوماتِ المتناثرةِ وشائجَ متصلةً يشدُّ بعضها بعضًا، ويرى الجزئيَّات منتظمةً في سلك الكليَّات .. **السؤالاتُ تجمع أجزاء المعرفة لتصهرها في قوالب الإجابات.**

ولتقريب ذلك فلنأخذ قضية (التفسير اللُّغوي للقرآن الكريم) مثالًا، فحين النظر في هذا الموضوع يمكن أن نضع تمييزاتٍ عدَّةً لتكون أوعيةً

جامعةٌ لفوائده، من ذلك مثلًا: المفردات والأساليب، التفسير اللُّغوي عند اللُّغويين وعند غيرهم، ضوابط التفسير اللُّغوي، ظواهر التفسير اللُّغوي، ونحو ذلك.

أمَّا سؤالاتُ مثلِ هذا الموضوع فكثيرةٌ، مِن عُمَدها: ما مدى استفادة اللُّغويين من تفسير السلف في البحث اللُّغوي؟

هذا السؤال كان من الممكن أن يكون في ضمن التمييزات، إلا أنه إلى أن يكون سؤالًا أجدرُ وأحرى، لأنه ليس مجرَّدَ وعاءٍ معرفيٍّ تُجمَع فيه الفوائد وتُضَمُّ فيه النظائر، بل هو قضيةٌ مشكلةٌ تنحلُّ عُراها عروةً عروةً حتى يستقرَّ جوابها في آخر المطاف البحثي من مجموعِ التمييزات الموضوعة.

وقد كانت قضية التفسير اللُّغوي للقرآن الكريم موضوع أطروحة الدكتوراه للشيخ د. مساعد الطيار، وإذا تصفَّحتَ خطة البحث فلن تجد من أبحاثها هذا السؤال، لأن مثل هذا السؤال لا يستقلُّ بمبحث، بل هو سؤالٌ تجيبُ عنه الأطروحةُ كلُّها، وهذه خاصَّةُ السؤالات الكبرى - وليست كلُّ السؤالاتِ كبرى - وقد كشف الشيخ عن جواب السؤال في مقدمة أطروحته نظرًا لمركزيَّته، وأشار إليه في ثنايا بحثه، فقال: (كنت أظنُّ أن أجدَ لأعلام المفسِّرين ذكرًا كثيرًا في كتب اللُّغة كما هو الحال في ذكر أعلام اللُّغويين، ولكن من خلال ما قرأته من كتب اللُّغة وجدت أنه لم يكن لكثيرٍ من اللُّغويين عناية بنقل تفسير السلف، ولم يعتمدوا عليه في بيان مدلولات ألفاظ اللُّغة، ولا في بيان الألفاظ القرآنية التي يفسرونها)[1].

---

(١) التفسير اللغوي (٨).

ومثلُ هذا السؤال إنْ عَرِيَ عنه ذهن الباحث فلن يظفر بجوابه ولو قرأ في الموضوع ما قرأ، ولكنه إذا استصحبه تخلَّقت أجوبته في جدران بحثه طورًا بعد طورٍ.

ولذا فمن ضرورات الابتكار البحثي والإبداع المعرفي احتفالُ عقل الباحث بالسؤالات وقدرتُه على توليدها، ومن هنا كان عليه أن يَجِدَّ في تحصيل مسالك ذلك كما يحصِّل العلوم المصنَّفة، **فتحصيل السؤال والتمكُّن من توليده تحقيقٌ في نفسه، والظفرُ بمواقعه من أعظم وجوه الانتفاع المعرفي**، ولـمَّا ألف المبرِّد (٢٨٥هـ) «مسائل الغلط» وردَّ فيه على مسائلَ جاءت في كتاب سيبويه (١٨٠هـ)، انتهض ابنُ ولَّاد (٣٣٢هـ) للمحاماة عن سيبويه والرد على المبرِّد فألَّف «الانتصار»، وكان مما قاله في مقدمته: (ومع ردِّنا عليه فنحن معترفون بالانتفاع به، لأنَّه نبه على وجوه السؤال ومواضع الشكوك)[1]. فمع تعقُّبه للمبرِّد وانتصاره لسيبويه، إلا أنه معترفٌ باستفادته من المبرِّد حيث أرشده إلى مكامن الأسئلة.

ومن طرائق تحصيل السؤالات إدمانُ النظر في كتب المحققين في كل علم، وإطالةُ المكث عند معالجاتهم المعرفيَّة بِنِيَّة الوقوف على سؤالاتهم والارتياض بطرائق تحصيلهم لها وسوقهم إياها وجواباتهم عنها، وهذه لا تلوحُ من ظواهر كلامهم، بل حتَّى ينفذَ الطالبُ في بواطن تحريراتهم، وذلك متى ما تعامل معها بصفتها مرجعيَّاتٍ لا مراجع، (فالمراجع تتناول الاقتباسات المباشرة، أما المرجعيَّة فتتناول جذور الفكر نفسه وتُشكِّل

(١) الانتصار لسيبويه على المبرد (٤٣).

النموذج التفسيريِّ والتحليلي)[1]، وإذا أدمن الطالبُ قرعَ باب التحقيق فما أحراه أن يُفتَح له، فيكون مِن بعدُ قادرًا على بذر السؤالات في عقله ليحصد ثمارها في أبحاثه.

(٥)

■ الصناعة الثالثة: توخِّي موقع المادَّة من عمود البحث:

وهذا مما تَدِقُّ فيه الأنظار وتغمُضُ فيه المسالك، وذلك أن الباحث بعد رسمِه خارطةَ التَّمييزاتِ الصالحةِ لبحثه، وطلبِه المادَّةَ، ووضعِه إيَّاها في موضعها اللائق بها من تلك الخارطة = فإنَّ عليه بعد ذلك أن يسلكَ تلك الموادَ المميَّزةَ وينظِمَها في خيطِ بحثِه نظمًا دقيقًا، ويتوخَّى لكلِّ مادَّةٍ موقعَها الصحيحَ، ليستبينَ منزلتَها مما قبلها، وأثرَها فيما بعدها، وتخلُّفُ ذلك كفيلٌ باضطرابِ بحثه وتخبُّطِ نتائجه.

وهذه الصناعة من أجلِّ الصناعات البحثيَّة، وذلك أنَّها تُطلِعُ الباحث على مواقع التأثر والتأثير - وذلك من سبل تحقيق المعرفة وضبط معاقدها - وتعينُه على الوقوف على مسارات المواد المعرفية وضبط تحرُّكاتها، وكذلك تنمِّي حاسَّته النقدية، فيبصرُ بها زَيْفَ المعارف النادَّة عن مواقعها.

وهي صناعةٌ شاقةٌ تتطلَّب تقنياتٍ تفصيليَّةً تتنوَّعُ بتنوُّعِ موضوعات الأبحاث وأغراض الباحثين، وأنا أضرب لذلك مثلًا يدلُّ الفطِنَ على

---

(١) حوارات المسيري (١: ٢٥٣).

جوهر هذه الصناعة ويرشده إلى شريحةٍ عريضةٍ من مخبوء تقنياتها، وليكن هذا المثال في البحث التاريخي.

نشر الأديب النصراني د. لويس عوض (١٤١١هـ) مقالاتٍ في جريدة الأهرام سنة ١٣٨٤هـ تحدَّث فيها عن أبي العلاء المعري (٤٤٩هـ)، أراد بها أن يعرضَ الخلفيَّةَ التاريخيَّةَ لكتابه «رسالة الغفران»، ويبيِّنَ شيئًا من طبيعة عصره وأهم معتقداته ونحو ذلك، وختمها بذكر خبرٍ فيه أنَّ أبا العلاء دَرَسَ وهو صبيٌّ على راهبٍ شيئًا من الفلسفة وعلوم الأوائل بدَيْرٍ في «أنطاكية».

فدارت من أجل مقالاته هذه حماليقُ أقلامِ شيخ العربية أبي فهر محمود شاكر (١٤١٨هـ)، فكتب خمسًا وعشرين مقالةً جُمِعت في كتابٍ بعنوان: «أباطيل وأسمار» تعرَّضَ فيها لهذا الخبر وغيره، ولستُ بصدد عرض تفاصيل ذلك، وإنما الذي أنا بصدده الآن: كيف وظَّف أبو فهر هذه الصناعة في معالجة هذا الخبر؟

ابتدأ أبو فهر الحديثَ بذكر قضيَّة المنهج، وقسمه إلى شطرينِ: شطرٍ في تناول المادَّة، وشطرٍ في معالجة التطبيق، ثم قال:

(فشطر المادَّة يتطلَّب قبل كلِّ شيءٍ جمعَها من مظانِّها على وجه الاستيعاب المتيسِّر، ثم تصنيفَ هذا المجموع، ثم تمحيصَ مفرداته تمحيصًا دقيقًا، وذلك بتحليل أجزائها بدقَّة متناهية، وبمهارة وحذر، حتى يتيسَّر للدارس أن يرى ما هو زَيْفٌ جليًّا واضحًا، وما هو صحيحٌ مستبينًا ظاهرًا، بلا غفلةٍ، وبلا هوًى، وبلا تسرُّع).

ثم تحدث عن الشطر الثاني - وهو محل شاهد هذه الصناعة - فقال:

(أمَّا شطر التطبيق فيقتضي إعادة تركيب المادة بعد نَفيِ زَيفِها وتمحيص جيِّدها، باستيعابٍ أيضًا لكلِّ احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التسرُّع، ثمَّ على الدارس أن يتحرَّى لكلِّ حقيقةٍ من الحقائق موضعًا هو حقُّ موضعها، لأنَّ أخفى إساءة في وضع إحدى الحقائق في غير موضعها خليقٌ أن يشوِّه عمودَ الصورة تشويهًا بالغَ القُبْح والشناعة)[1].

ثم أخذ يطبِّق هذا المنهج في معالجة هذا الخبر عبر قاطرة تاريخية متقنة تجسَّدت فيها هذه الصناعة في أبهى حُلَلِها، حيث قام أبو فهر بمَسحٍ تاريخيٍ لثمانيةٍ وعشرينَ كاتبًا ترجم لأبي العلاء، ورتبهم ترتيبًا تاريخيًّا: الثعالبي، فالخطيب البغدادي، ثم الباخرزي، السمعاني، ابن الأنباري، ابن الجوزي، القفطي، ياقوت الحموي، ابن الأثير، سبط ابن الجوزي، ابن العديم، ابن خلكان، أبو الفداء، الذهبي، ابن الوردي، ابن فضل الله العمري، الصفدي، اليافعي، ابن كثير، ابن الشحنة، ابن حجر، العيني، ابن تغري بردي، السيوطي، عبدالرحيم العباسي، ابن العماد، البديعي، وختم بالعباسي الموسوي.

ثم أخذ يحلِّل موادَّ تراجمهم، مبيِّنًا مَن ذكر تلك القصة ومَن أهملها، ناصًّا على مَن ابتدأ ذكرها ومَن قلَّده، وكيف اختصر بعضهم الخبر حتى أحاله عن وجهه، وما أثر ذلك، وغير ذلك من متعلِّقات الخبر، ثم خلَصَ إلى قوله: (وبيِّنٌ جدًّا من هذا السياق المختصر لتسلسل القصة التاريخي أنه لم يذكره

---

(١) أباطيل وأسمار (٢٠).

ممن ترجم لأبي العلاء سوى تسعة من ثمانية وعشرين، وأنه قد انقضى ما بين الثعالبي إلى ابن الجوزي، أي إلى سنة ٥٩٧هـ ما بين معاصِرٍ لشيخ المعرة وغير معاصرين، وإلى ما بعد وفاة أبي العلاء بأكثر من مئة وخمسين سنة، والخبر غير معروف، مع إغراق بعض هؤلاء في النيل من شيخ المعرة ودينه، حتى إذا جاء القفطي (٥٦٨هـ - ٦٤٦هـ) انفرد وحده برواية الخبر بلا إسنادٍ إلى أحد، وفيه عللٌ قادحةٌ، فبأيِّ وجه بعد ذلك يأتي أستاذ جامعي، فيعمد إلى خبرٍ انفرد بروايته القفطي، والثمانية الباقون نقلوا عنه نقلًا مع بعض التصرُّف؟ وإذن فهو خبرٌ غريبٌ لا يُسلَّم)[1].

فلأجل هذه النتيجة، ولأجل إيقاع المادَّة في موقعها الصحيح من عمود الصورة البحثية، قام محمود شاكر (١٤١٨هـ) بهذه الرحلة البحثية الشاقة، مستخدمًا تقنية الملاحقة التاريخية للقبض على منابعِ القصَّةِ محلِّ البحث، فرسم موقعها من صورة البحث رسمًا متقنًا، وعَلِمَ موضعَ هذا الخبر من مجموع التراجم المتفرقة لأبي العلاء (٤٤٩هـ)، فاستبانت له الطريق، واستقام له تصوُّر موقع المادَّة، ملاحظًا موضعَها مما قبلها وتأثيرَها فيما بعدها.

وهذا المثال كما قدَّمتُ يدلُّ الفَطِنَ على جوهر هذه الصناعة ويرشده إلى شريحة عريضة من مخبوء تقنياتها، فليتتبع كلُّ طالبٍ مواقعَ قطرِ أبحاثه، والله الهادي.

---

(١) (٣٠-٣١) بتصرُّف.

■ الصناعة الرابعة: توسيل المعلومة:

بدلًا من جعل المعلومة غايةً فإنَّها تستحيل بهذه الصناعة لتكون وسيلةً ومفتاحًا، فالمعلومة هنا ليست مقصودةً لذاتها، بل هي سائقةٌ إلى غيرها من المعلومات والمعارف، سواء كانت تلك المعلومات متعلقة بالفنِّ نفسه، أو بفنٍّ آخر، فإنَّ المعلومةَ لا بُدَّ وأن يكونَ لها من العلائق ما يربطها بغيرها من مباحث العلم، ولا يمكن أن تكون منبتَّةً لا تعلُّقَ لها بشيءٍ تأثُّرًا أو تأثيرًا، وإذًا ففي جَوْفِ كل معلومة سبيلٌ إلى غيرها، ومن مليح ما يُذكَر هنا ما ترجم به الشوكاني (١٢٥٠هـ) لإبراهيم بن حسن بن شهاب الدين الكُوراني (١١٠١هـ) بقوله: (كان دأْبُه إذا عَرَضَتْ له مسألةٌ في فن أتقن ذلك الفنَّ غاية الإتقان)[1]. وما ذلك إلاَّ لإدراكه ما بين مسائل الفن من اتصالٍ شديدٍ يجعل بعضها فاعلًا في بعضٍ.

لتوسيل المعلومة صورٌ كثيرةٌ:

فمنها: أن يطالعَ طالب العلم معلومةً مهمَّةً في أحد الكتب، فيحتاج أن ينظر في متعلَّقاتها، فيتتبَّع إحالات ناقلها، ويقارن بين مختلف المصادر لتتشكل له وحدة معرفية متعلقة بتلك المعلومة، وليس من الضروري هاهنا أن يمتحنَ تلك المعلومة التي اتخذ منها منطلقًا ويبرهنَها، بل ربَّما اضطرَّه البحث إلى أن يتَّخذها مسلَّمةً وإن لم يَبِنْ له بعدُ وجهُ اعتبارها، فإنَّه إنَّما

---

(١) البدر الطالع (٤٢).

يبغي التوسُّلَ بها إلى ما وراءها، و(كلُّ العلوم لا بُدَّ للسالك فيها ابتداءً من مصادراتٍ يأخذها مسلَّمَةً إلى أن تتبرهن فيما بعد)[1].

ومنها: أن تكونَ المعلومةُ مسكونةً بنوعِ إجمالٍ، ويكونَ في مفرداتها بعضُ المفاتيح البحثيَّة، فيستثمرها الباحث لإقامة مشروع بحثي يتتبع فيه ذيولها.

وسأذكر لهذه الصناعة مثالًا تمرينيًّا متعلقًا بعلم أصول الفقه والتصنيف فيه، مثالًا يبين معناها وإن لم يكن مقطوعَ النتيجة، فالغرض الإبانة عن الصناعة للارتياض بها لا تقرير النتائج العلمية:

قال ابن فارس (٣٩٥هـ) في باب الحروف من كتابه «الصاحبي»: (هذا بابٌ يصلح في أبواب العربية، لكني رأيتُ فقهاءنا يذكرون بعض الحروف في كتب الأصول)[2].

هذه المعلومة تأتي في كتاب «الصاحبي» عَرَضًا، غير أنَّ من الممكن التَّوسُّلَ بها إلى بعض النتائج، فإن هذه النقل عن ابن فارس يعين على البحث في تأريخ دخول مبحث «معاني الحروف» في الكتب الأصولية عند

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢: ٦٩). ونحوه قولُ الغزالي (٥٠٥هـ): (ما من علم من العلوم الجزئية إلا وله مبادٍ تؤخذ مسلمة بالتقليد في ذلك العلم، ويطلب برهان ثبوتها في علم آخر) المستصفى (١: ٣٨).

وقال د. محمد عبدالله دراز (١٣٧٧هـ): (قد رأينا العلماء المتخصصين في فرع من العلوم الطبيعية أو العقلية يعتمدون النتائج التي وصل إليها المتخصصون في فرع آخر منها، كل في نطاق تخصصه، ولا ينتظرون أن يعيدوا كلهم ما جرَّبه أو برهنه بعضهم، وهذا هو الوضع السليم الذي تتقدَّم به المعارف الإنسانيَّة، إذ لو وجب أن يعيدَ كل عالم بحثَ كل مسألة بنفسه لما تقدمت العلوم خطوة واحدة) الدين (٧٧).

(٢) (١٢٣).

غير الحنفية، وذلك محصَّلٌ من خلال تحرير جانبين:

[١] زمن تأليف «الصاحبي».

[٢] مراده بقوله: (رأيت فقهاءَنا).

[م] = معطى **[ن] = نتيجة**

أولًا:

[م١] ابن فارس متوفى سنة ٣٩٥هـ.

[م٢] ذكر ابن فارس في مقدمة كتابه أنه عنون كتابه بـ «الصاحبي» لأنه لما ألفه أودعه (خزانة الصاحب الجليل كافي الكفاة عَمَرَ الله عِراصَ العلم والأدب والخير والعدل بطول عمره) يعني به الصاحب بن عبَّاد (٣٨٥هـ)، وهو الملقب بكافي الكفاة.

[م٣] ابن عبَّاد توفِّي سنة (٣٨٥هـ) بالرَّي.

= [ن١] ألَّف ابنُ فارس «الصاحبي» زمن حياة الصاحب ابن عباد، لأنه لما قال: (عَمَرَ ... بطول عمره) عُلِم أنه كان حيًّا زمن تأليفه، وذلك قبل عام ٣٨٥هـ.

ثانيًا:

[م٤] بعد مطالعة ترجمة ابن فارس (٣٩٥هـ) من عدة كتبٍ كنتُ باديَ الرأي أفترض أنه ألف «الصاحبي» في آخر حياته لما سافر إلى الري، لأن ابن عبَّاد كان فيها، وابن فارس إنما استوطن الري بأخرة كما في «إنباه الرواة»[1].

(١) (١: ٩٥).

فأردت أن أحصر تاريخ تأليفه للصاحبي بين مطلع انتقاله للري ومقطع وفاة الصاحب، ولما شرعتُ في البحث عن الخيوط المرشدة لسنة انتقاله للري وجدتُ معطًى انمحق معه افتراضي، وذلك أنه حُمِل للري ليقرأ عليه أبو طالب ابن فخر الدولة[1]، وأبو طالب هذا هو مجد الدولة رستم، وقد توفي والده فخر الدولة سنة (٣٨٧هـ)، قال الذهبي (٧٤٨هـ): (وملَّكوا بعده ابنه مجد الدولة أبا طالب رستم، وله أربع سنين)[2].

= [ن٢] وهذا يعني أن مجد الدولة كان عمره حين توفي الصاحب سنتين، فدل هذا على أنَّ تلقيَه العلمَ عن ابن فارس (٣٩٥هـ) كان بعد وفاة الصاحب قطعًا، وهذا يقتضي أنه سافر للري بعد وفاة الصاحب، فالبحث عن تأريخ انتقاله للري ليس بذي بال في تحديد زمن تأليف «الصاحبي»، لأنه انتقل للري بعد أن صنَّفه.

[م٥] وكنتُ بنيتُ على الافتراض الذي تبين غلطه أنه يعني بفقهائنا: المالكيَّة، وذلك لأنَّه كان شافعيًّا، فلما انتقل للري تحوَّل مالكيًّا، فإنه لما ذهب للري لم يجد ناصرًا لمذهب مالك فانتحله، وعن ذلك قال: (أخذتني الحمية لهذا الإمام أن يخلو مثل هذا البلد عن مذهبه)[3]. وجاء في «معجم الأدباء» أنه قال: (دخلتني الحمية لهذا البلد - يعني الري - كيف لا يكون فيه رجل على مذهب هذا الرجل المقبول القول على جميع الألسنة؟!)[4].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٦ : ٥٠١).

(٣) بغية الوعاة للسيوطي (١ : ٣٥٢).

(٤) (١ : ٤١١).

وبذلك يتبين أن ما في ترجمته من «إنباه الرواة»[1] نقلاً عن بعض المتأخرين من أن ابن فارس (٣٩٥هـ) (كان يناظر في الفقه، وكان ينصر مذهب مالك بن أنس) يُعَدُّ تأريخًا لحاله آخرَ حياته.

= [ن٣] فإذا جعلنا [ن٢] معطًى، وهو أنه انتقل للريِّ بعد أن ألف «الصاحبي»، وضممنا إليه [م٥] الدال على أنه تحوَّل للمذهب المالكي بعد انتقاله للري، علمنا أنه كان شافعيًا زمن تأليفه «الصاحبي»، فقوله (رأيت فقهاءَنا) يريد به الشافعيَّة.

المحصّلة:

تحرَّر مما مضى أن ابن فارس (٣٩٥هـ) ينقل عن فقهاء الشافعية تناولَهم لمعاني الحروف في كتب الأصول المدونة قبل سنة ٣٨٥هـ - كحدٍّ أقصى - وهذا يفيد في كونه يؤرِّخ لمرحلة لم يصلنا فيها من كتب الأصول الشافعية شيء.

قد يكون هناك من الشواهد ما هو أقربُ إلى تحقيق هذه النتيجة من نصِّ ابن فارس (٣٩٥هـ)، لكن القصدَ ها هنا ضربُ مثالٍ تمرينيٍّ للإبانة عن غرض هذه الصناعة، وكثيرٌ هي المعلومات التي تصلح أن تكون وسائلَ للبحث وفواتحَ للتحقيق[2].

---

(١) (١: ٩٤).

(٢) انظر مثالًا آخرَ لهذه الصناعة في مقدمة تحقيق العلامة عبدالخالق عُضَيمة (١٤٠٤هـ) لكتاب «المقتضب» للمبرد (١: ٧٥-٧٦)، حيث توسَّل بإحدى القصص إلى تحديد زمن تأليف «المقتضب».

■ الصناعة الخامسة: استجلاب الأفق المعرفي:

هناك شريحةٌ عريضةٌ من المواد المعرفية لا تُفهَمُ حقائقُها ولا تنحلُّ إشكالاتُها حتى ينسلَّ الباحث من واقعه ليعيش في واقعها، فيقرأ الموادَّ حينئذٍ في سياقها وظرفها الحاوي لها.

وهذا الاستجلاب يكون على أحد مستويين:

إمَّا على مستوى المعلومة الفَرْدة، فقد لا يمكن فهمها حتى يعرف الباحث سياقها.

أو على مستوى حزمة معرفية كاملة، وهذا المستوى هو محلُّ التفاضل بين الباحثين، فلا يمكن لواحِدِهم أن يقف على حقائقها حتى يطَّلِعَ على ظرفِها ويسير في مداراتِها.

وصناعة الاستجلاب هذه تسوق لطالب العلم كثيرًا من المعارف، وتمكِّنه من فهمها وتحقيقها، وانظر مثلًا كيف تجد «الرسالة» للشافعي (٢٠٤هـ) حين تقرؤها وأنت لا تعرف من الشافعي إلا اسمه، ثم انظر كيف تستحيل في عينك كتابًا آخرَ حين تكونُ على درايةٍ بالأفق المعرفي الذي كان يعيشه الشافعي وتقفُ على طبيعة القضايا المعرفية السابحة في فضائه .. هذه الصناعة البحثية تشرح لك لماذا كانت «رسالة» الشافعي من أعظم كتب أهل الإسلام.

وقريبٌ من ذلك كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ) في نقد المشروع الكلامي/ الفلسفي، فلا يكاد الناظر يدرك أغوار المعالجة التيميّة ما لم يتمكّن من استجلاب الأفق المعرفي الذي كان يعالجه، وكثيرًا ما يُلقي ابن تيمية (٧٢٨هـ) بمعالجات دقيقة في جوابات عارضة يعالج بها مشكلات كلاميّة كبرى، لكنّ تحرُّكَ طالب العلم في غير الأفق الذي يتحرّك فيه شيخ الإسلام يصرفه عن فُتُوحِ تلك الجوابات.

وفي حقل الدراسات الفكرية لن يتمكّن الباحث من فهم المناهج والمذاهب الفكرية حتى يستجلب آفاق أصحابها، فلا بدّ - كما يقول المسيري (١٤٢٩هـ) - (أن يُدرَسَ الفكرُ في سياق الممارسات التي يقوم بها حاملو هذا الفكر، فالحركة الرومانتيكية لا يمكنُ فهمُها حقّ الفهم إلّا في إطار الثورة الصناعية والثورة الفرنسية والتحولات الاقتصادية والسكانية الضخمة التي شهدتها أوربة في ذلك الوقت، والفكر الصهيوني لا يمكن فهمه إلا في إطار الرؤية العنصرية الاستعمارية التي هيمنت على المجتمعات الغربية في القرن التاسع عشر)[١].

ومن تطبيقات هذه الصناعة ما قام به الشيخ البحّاثة إبراهيم السكران في كتابه «الماجَرَيات»، وذلك أنّه تكلم فيه عن أثر استيلاء الأخبار والأحداث على وقت طالب العلم، وأخذ في تنظير ذلك بمباحثَ شائقةٍ ليس هذا محلّ عرضها.. ثم أخلصَ غالبَ مادّة الكتاب للحديث عن الماجريات السياسية، وانتخب خمسَ عيّناتٍ لدراستها، اشترط فيها أن تكون جادّةً، مستقلّةً، لها

(١) حوارات المسيري (١: ٢٥٥).

موقف نقدي من إشكاليَّة التعميم السياسي .. والذي يعنيني هنا أن من ضمن النماذج التي درسها واستعرضها: د. فريد الأنصاري (١٤٣٠هـ)، واللَّافت للقارئ أن هذه العينة نالت الحظَّ الأوفرَ من صفحات الكتاب، وسبب ذلك أن نتاج د. فريد الأنصاري لا يمكن دَرسُه على وجهه حتى يُستجلَبَ الأفق الزمني لواقع العمل الإسلامي الذي تحرَّك فيه، فاحتاج الكاتب أن يتحدث عن الحركة الإسلامية في المغرب، وبهذا الاستجلاب انحلَّت عرى الإشكالات المنثورة في كتابات الأنصاري.

ولذلك قال السكران حين حديثه عن تجربة الأنصاري في العمل الإسلامي، وفيه تقريرٌ وتنظيرٌ لهذه الصناعة البحثية: (في نظري أنَّ هذه التجربة هي المفتاح الرئيس لفهم مغزى ومرامي رسائل د. فريد الفكرية والتزكوية، بل الذي يبدو لي أنَّ مَن لم تُتَح له فرصة الاطلاع على خطوب ومخاشنات هذه التجربة فسيتعسر عليه استيعاب وإدراك أغراض المعالجات الجزئية في تلك الرسائل، فإنَّ عامَّةَ هذه الرسائل هي إجابات على إشكاليات عاشها الشيخ بعقله وقلبه في أجواء وعلائق التجربة الدعوية/ الحركية، وخصوصًا مخاضات الانفصال ومتولَّداتها. ومن لم يتصوَّر سياق الإشكال الذي تتحرَّك فيه الإجابات احتجبت عنه بواطن المعاني وحدود المرادات، بل ربَّما حمل الدلالات على مقتضى المخزون الذاتي من خبرات وإشكاليات القارئ نفسه، فظنَّ المراد هو المعنى القريب الذي أَلِفه، وعزبت عنه الدلالة المقصودة، فالأفق الإشكالي لأي كتاب هو مجهر القراءة لمغزى الإجابات، وهذا أمرٌ عامٌّ في العلوم والمعارف)[1].

---

(١) الماجَرَيات (٢٣٨).

فمفتاح فهم النتاج المعرفي لـ د. فريد لأنصاري (١٤٣٠هـ) متوقِّفٌ على النظرِ في تجربته الحركيَّة، واستعراضِ تاريخ الحركة الإسلامية في المغرب وأطوارها وأحداثها ومواقف الفاعلين فيها، وبتخلُّف ذلك يغيب عن الناظر كثيرٌ من مقاصدِه وأبعادِ تقريراته، والشأن كما قال أبو الطيِّب اللُّغوي (٣٥١هـ): (حريٌّ بمن عَمِيَ عن معرفة قومٍ أن يكون عن علومهم أعمى وأضلَّ سبيلًا)[1].

*****

وبعدُ، فلكلِّ علمٍ أوائلُ تفضي إلى أواخره، ولكل موضوعٍ مداخلُ تفضي إلى حقائقه، ولكُلِّ بحثٍ صناعاتٌ تمكِّن باحثَه من حصد جواهره، وفَرْقُ ما بين باحثٍ وآخرَ جودةُ مداخلِه، وإحكامُ صناعاتِه، وقدرتُها على إيصاله إلى منابع العلم وخزائنه.

وعليه فمداخلُ البحث وصناعاتُه متعدِّدَةٌ تعدُّدَ الموضوعات والباحثين، وتحتَ كلِّ مدخلٍ وصناعةٍ من فروع التقنيات ما لا ينحصر، وقد كان الغرضُ من هذ الفصل - كما بيَّنتُ في مطلعه - أن أُثبِتَ جملةً من الصناعات البحثيَّة لأدلَّ على ما هو من جنسها، ولم أشأ أن أجرِّد القول في الصناعات دون أن أشفعها بأمثلةٍ كاشفةٍ لئلَّا تكون الصناعةُ البحثيَّةُ مجرَّدَ رموزٍ عائمَةٍ، ولذا حرَصتُ على وضع هذه الأمثلة وأغضيتُ عن بعض ما قد يلحقها، إذ كان الغرضُ منها الارتياضَ لا التقريرَ، وعلى الله قصد السبيل.

(١) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي (٥).



(لَقَد طَّلَبْتُ العِبَادَةَ فِي كُلِّ شَيْءٍ،
فَمَا وَجَدتُّ شَيْئًا أَشْفَى لِنَفْسِي مِن
مُذَاكَرَةِ العِلْمِ)

أم الدرداء الصغرى (٨١هـ)



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ».

أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٦٩٩).

(١)

لما أنجزتُ كتابي البِكْرَ «غمرات الأصول» دفعتُ به إلى جمعٍ من أشياخي ولِدَاتي طَمَعًا في نوال ملحوظاتهم، غير أنَّ أحدَ الخُلَّصِ اقترح عليَّ أن نجلس لنقرأه معًا .. رَمَحَ اقتراحُه غايةَ رضاي، فهاتفتُ وراسلتُ بعض الأقران طالبًا منهم مشاركتنا.

وفعلًا .. جمعتْنا مجالسُ لم تتجاوز الخمسة، قرأتُ فيها عليهم كتابي، وقد كنتُ قرأتُه وحيدًا مرَّاتٍ ومرَّات، غير أنَّ قراءة المذاكرة في تلك المجالس كانت استئنافًا للمزيد من التحريرات، ونفخًا لروح جملةٍ من الأفكار، فالمذاكرة دفعت الكتاب من عين المؤلف الحانية إلى مشرحة الـمُذاكِرين الصارمة، تجتالني الحمية لكتابي تارةً، وأتطامن لانتقادات الـمُذاكرين تارات .. هذا يعترض على تقرير مسألة، وذاك يطعن في صياغة فكرة، والثالث يطالب بإيضاح غريب، والرابع يرجِّحُ حذفَ مقطع، والخامسُ

يقترح إضافة مبحث، وأنا أكدُّ ذهني وأستحثُّ رأيي وأعمِلُ قلمي مصوِّبًا، شارحًا، حاذفًا، مضيفًا ... إضافةً لفوائدَ تطوَّعتْ بالقدوم دون استثارةٍ مباشرةٍ، مع ثغراتٍ تكشَّفتْ حالَ شرح بعض الأفكار المنثورة.

كان من ضمن الجمع كاتبٌ زجَّ بمؤلَّفٍ حديثٍ له إلى المطبعة، وقد تمنَّى مع خَتْم تلك المجالس أن لو صنع بكتابه مثل ما صنعتُ لِـمَا رأى من عوائد المذاكرة وفوائدها.

(٢)

من العبارات الذائعة في الأوساط العلمية (حَيَاةُ العلمِ مذاكرتُه).

ويُروى نحوُها عن ابن مسعود (٣٢هـ)، وعلقمة (٦٢هـ)، وابن أبي ليلى (١٤٨هـ)[1] وغيرهم .. ولما تحدث السخاوي (٩٠٢هـ) عن تلميذه عبدالرحمن بن محمد المري المقدسي أثنى عليه وأبان عن أهليَّته، ثم قال: (لم أستكثر جلوس الطلبة بين يديه، وتلقيهم بطيب النفوس عنه ما تحقق لديه، فليتقدم لإفادة الطالبين وللزيادة من المذاكرة مع المحققين، فحياة العلم المذاكرة به)[2].

وإذا فحصنا مرتبة المذاكرة العلمية في واقع كثير من طلبة العلم وجدناها تحتلُّ مرتبةً متأخرةً في سلم أولوياتهم، فإنَّا نرى واحدَهم يراوح قدميه بين

(١) انظر: مسند الدارمي (١: ٤١٨، ٤٢١ - رقم: ٦٢٠، ٦٢١، ٦٣٧).
(٢) الضوء اللامع (٤: ١٢٦).

حضور الدروس والتلقي عن الأشياخ، وبين الانكفاء على نفسه متحفِّظًا لمتنه مستشرحًا لكتابه، وقلَّما تجد للطالب مجلسًا راتبًا يذاكر فيه العلم مع أقرانه وأشياخه، يلاحي فيه أفذاذ الطلبة، مستنطقًا بملاحاته مكنونَ علومهم، راجيًا بها تلقيحَ عقله وعقولهم، وهذا يفوِّت عليه كثيرًا من العوائد النافعة التي احتكرت تقديمها مجالسُ المذاكرة وأنا أسوق ها هنا أربعة أخبار تجلِّي مقام المذاكرة وتبيِّنُ منزلتها عند أعلام العلم وأساطين المعرفة:

■ **سعيد بن عبدالعزيز (١٦٧هـ):**

سعيدٌ من أعلام القرن الثاني، وكان من العلم والعمل بمكانٍ عليٍّ، ويكفي من ترجمته أنه يُقاسُ في الفضل بالإمام الأوزاعي (١٥٧هـ) مع أنه معدودٌ من تلامذته المتلقِّين عنه، بل كان أبو مسهر (٢١٨هـ) وهو ممن تلقَّى عن سعيدٍ يقدِّمُهُ على الأوزاعي، والأوزاعيُّ نفسُه كان إذا سُئل عن مسألة وسعيدٌ حاضرٌ يقول: (سلوا أبا محمَّد).

وقد كان للأوزاعي مذهبٌ فقهي متبوع، انتحله أهل الشام حتى المئة الرابعة، بل كان أهل المغرب يتمذهبون بفقهه قبل أن يدخل إليهم مذهب مالك (١٧٩هـ) رضي الله عن الجميع[1]، ثم اندثر مذهبه، وفَنِيَت معالمه، وكان لذلك أسبابٌ عدَّةٌ ليس هذا محلَّ بسطها، لكنَّ في أطمار

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٠: ٥٨٣). وقال الذهبي (٧٤٨هـ): (لقد كان مذهب الأوزاعي ظاهرًا بالأندلس إلى حدود العشرين ومئتين، ثم تناقص واشتهر مذهب مالك بيحيى بن يحيى اللَّيثي. وكان مذهب الأوزاعي أيضًا مشهورًا بدمشق إلى حدود الأربعين وثلاث مئة) تاريخ الإسلام (٧: ١٣١).

تاريخ أبي زرعة الدمشقي (٢٨١هـ) خبرًا عزيزًا عن سعيد بن عبدالعزيز (١٦٧هـ) يكشف جانبًا من جوانب هذا الفناء، وذلك أنَّ أبا مسهر (٢١٨هـ) حدَّث أن سعيد بن عبدالعزيز قام معاتبًا أصحاب الأوزاعي (١٥٧هـ) قائلًا لهم في زفرة مخنوقة: (ما لكم لا تجتمعون؟! ما لكم لا تتذاكرون؟!)[1].

يعاتبُ سعيدُ بنُ عبدالعزيز طلَّابَ الأوزاعي، وكأنَّه بذلك يستقلُّ جهدهم في حملِ علم أستاذهم وتدوينِه وتحريرِه.

نَعَم، ظلَّ للأوزاعي مذهبٌ زمنًا، لكنَّ دعائمَ البقاء لم تكن كافية في استشراف سعيد، وجاء السياق الزمني شاهدًا لصدقه، فانظرْ أيَّ أثرٍ لمذاكرةِ الطلبة علمَ العالم في بقائه واستقراره.

ما لكم لا تجتمعون؟! ما لكم لا تتذاكرون؟!

تأتي هذه الكلمات محاولةً لمِّ شَعَثِ طلاب الأوزاعي، لتعيدَ الحياةَ من جديدٍ إلى الميدان العلمي الذي كان يجمعهم بشيخهم، ولكنَّ واقع التدوين الفقهي لا يسعفنا إلَّا بآراء مفرَّقةٍ للأوزاعي بلا وعاءٍ يحفظُها، ولا خيطٍ يَنظِمُها، فلعلَّ وصيَّة سعيدٍ لم تظفرْ من الحظِّ بأزيدَ مما ناله فقهُ الأوزاعي .. كلاهما تخطَّفَتْه يدُ الإهمال!

وإذا نظرنا في المقابل إلى سير الأئمَّة الأربعة، وتصفَّحْنا أسباب شيوع فقههم واستقرار مذاهبهم = وجدنا من أكبر أسباب ذلك الجهدَ الذي بذله تلاميذهم، مذاكرةً لعلومهم، وضبطًا لأصولهم، وتدوينًا لمسائلهم.

---

(١) تاريخ أبي زرعة الدمشقي (١: ٣٦١).

■ أحمد بن حنبل (٢٤١هـ):

صاحب التاريخ الذي حمل إلينا خبر سعيد هو الإمام عبدالرحمن بن عمرو النَّصْري، شيخُ الشباب، أبو زرعة الدمشقي (٢٨١هـ)، وهو من كبار أعلام الشام، وكثيرًا ما يلتبس بأبي زرعة الرازي (٢٦٤هـ)، وهذا الالتباس من صالح هذا السياق، فالحديث عنه معبَرَةٌ لطيفةٌ لخبرٍ يتعلق بأبي زرعة الرازي.

هذان الإمامان - الدمشقي والرازي - من الأقران، وقد تلقَّى كلُّ واحدٍ منهما عن الآخر، وإن كان الدمشقيُّ أسنَّ من الرازي، فقد وُلِد قبله، وتوفي بعده بسبعَ عشرةَ سنةً، والحظوة بالكنية حالَ تجرُّدها من النسبة لصالح الرازي، وذلك لعلوِّ كعبه واتِّساع عطائه، مع كون الدمشقيِّ أسبقَ في التكنية بها، بل إنه سبب تكنية الرازي بها، وذلك أن المراوزةَ أهلَ الريِّ لما قدموا دمشق التقوا بأبي زرعة الدمشقي، وأعجبهم علمُه، فلمَّا عادوا إلى الريِّ كنوا صاحبهم الرازيَّ بها[1]، وقد علم بذلك أبو زرعة الدمشقيُّ، وعن ذلك يقول: (قدم علينا جماعة من أهل الري دمشق قديمًا، منهم أبو يحيى فرخويه، فلما انصرفوا - فيما أخبرني غير واحد، منهم أبو حاتم الرازي - رأوا هذا الفتى قد كَاسَ[2] - يعني أبا زرعة الرازي - فقالوا له: نكنيك بكنية أبي زرعة الدمشقي. ثم لقيني أبو زرعة الرازي بدمشق، وكان يذكرني هذا الحديث، ويقول: بكنيتك اكتنيت)[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣: ٣١٤).
(٢) من الكِيَاسة، وهي العقلُ والتوقُّد.
(٣) سير أعلام النبلاء (١٣: ٦٧-٦٨).

الرازيُّ كالدمشقي ممن تلقى العلم عن الإمام أحمد (٢٤١هـ)، وقد روى عنه الدمشقيُّ كثيرًا في تاريخه، غير أنَّ للرَّازيِّ مزيدَ اختصاصٍ به، حتى إنَّ الإمام أحمد كان يحفل بمجالسه معه، وهنا حَجَرُ الزاوية، فقد روى ابن عساكر (٥٧١هـ) في تاريخ دمشق أن عبد الله بن أحمد بن حنبل (٢٩٠هـ) قال: (لما قدم أبو زرعة - يعني الرازيَّ - نزل عند أبي، فكان كثيرَ المذاكرة له، فسمعت أبي يومًا يقول: «ما صليتُ غيرَ الفرض، استأثرتُ بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي»)[1].

فانظرْ أيَّ مقامٍ للمذاكرة في خارطة اهتمامات الإمام أحمد. وقد قال وهبُ بنُ منبِّه (١١٤هـ): (مجلسٌ يُتَنَازَعُ فيه العلمُ أحبُّ إليَّ من قدره صلاةً، لعلَّ أحدهم يسمع الكلمةَ فينتفع بها سنةً أو ما بقي من عمرهم)[2].

■ عبدالرحمن بن القاسم (١٩١هـ):

لما دخل أسد بن الفرات (٢١٣هـ) مصرَ ذهب إلى ابن القاسم صاحب الإمام مالك (١٧٩هـ) ليعرض عليه فقه أبي حنيفة (١٥٠هـ) وذلك ليجيبه ابن القاسم في كل مسألة بقول مالك، فإن لم يكن لمالك قولٌ فيها فبقياسِ قولِه إن كان مالكٌ تكلَّم في مثلها، وإلَّا اجتهد فيها برأيه حسب فقهه وإدراكه لأصول مالك.

قال ابن الفرات: (كنت أكتب الأسئلة بالليل في قنداق من أسئلة العراقيين على قياس قول مالك، وأغدو عليه بها، فأسأله عنها، فربما اختلفنا

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٨: ١٧).

(٢) مسند الدارمي (١: ٣٣٩ - رقم: ٣٣٤).

فتناظرنا على قياس قول مالك فيها، فأرجع إلى قوله، أو يرجع إلى قولي)[1].

هذه المهمَّة تستوجب من ابن القاسم (١٩١هـ) نوعَ تفرُّغٍ لصعوبة استعراض كافة أبواب الفقه على هذه الطريقة، وقد كان ابن القاسم يختم في كل يوم ختمتين، فاجتزأ منهما بواحدة، وقال لأسد بن الفرات (٢١٣هـ): (كنتُ أختِمُ في اليوم والليلة ختمين، فقد نزلتُ لك عن واحدةٍ رغبةً في إحياء العلم)[2].

■ محمد بن الحسن الشيباني (١٨٩هـ):

من الأئمة الذين كانوا يعرفون لمجالس المذاكرة قدرَها وفضيلتَها محمَّدُ بن الحسن الشيباني، صاحبُ أبي حنيفة (١٥٠هـ)، فقيهُ العراق وفخرُ أهل الكوفة، مالئُ عينِ وقلبِ الشافعي (٢٠٤هـ)، فقد ذكر الربيع بن سليمان (٢٧٠هـ) أن رجلًا سأل الشافعيَّ مسألةً فأجابه، فقال له الرجل: يا أبا عبدالله، خالفك الفقهاء. فقال الشافعي: (وهل رأيتَ فقيهًا قط؟! إلا أن تكون رأيتَ محمد بن الحسن، فإنه كان يملأ العين والقلب، وما رأيت مبَدَّنًا قط أذكى من محمد بن الحسن)[3].

وقد تلمذ له الشافعيُّ وتخرَّج به حتى قال: (أمنُّ الناس عليَّ في الفقه محمد بن الحسن)[4].

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٣: ٢٩٦).

(٢) ترتيب المدارك (٣: ٢٩٧).

(٣) تاريخ مدينة السلام للخطيب البغدادي (٢: ٥٦٦).

(٤) تاريخ مدينة السلام (٢: ٥٦٧).

ويقدر إعجاب التلميذ بشيخه كان الشيخ معجبًا بتلميذه، فقد كان محمد بن الحسن (١٨٩هـ) حفيًّا بالشافعي (٢٠٤هـ)، يعرف له قدرَه وسموَّ عقله، حريصًا على مجالسته ومذاكرته، ولو أدَّاه ذلك إلى تفويت عزائمه وتأجيل روابطه، ومن ذلك ما قصَّه أبو حسَّان الزيادي، فقد قال: (ما رأيتُ محمد بن الحسن يعظِّمُ أحدًا من أهل الفقه إعظامَه للشافعي، ولقد جاءه يومًا فلقيه وقد ركب محمد بن الحسن، فرجع محمد إلى منزله، وخلا به يومه إلى الليل، ولم يأذن لأحد عليه)[1].

كذلك يَزِنُ الرجالُ أشباهَهم، فلم يفوِّت محمد بن الحسن فرصة مذاكرة الشافعي، فخلا به ولم يأذن لأحد بالدخول عليه.

هذه أربعة أخبار تتعلق بمقام المذاكرة العلمية: معاتبةُ سعيد بن عبدالعزيز طلابَ الأوزاعي في تركهم المذاكرة، واستغناءُ أحمد بن حنبل بمذاكرة أبي زرعة عن نوافل العبادة، واجتزاء عبدالرحمن بن القاسم بأحد ختمتَيه لصالح مذاكرة الفقه مع أسد بن الفرات خدمةً لفقه الإمام مالك، وهجرُ محمد بن الحسن عزمَه إلى حاجةٍ له لما رأى الشافعيَّ مقبلًا عليه وخلوُّه به ليلةً لمذاكرته وضنُّه بها على غيره.

والأخبار في مذاكرة أهل العلم وطلابه كثيرة، وما زالت المذاكرةُ سمتًا للمحصِّلين من العلماء والطالبين حتى صارت ختمًا يُطبَع في تراجمهم، فلا تكادُ تفارقُ طرفَك الأوصافُ المضافة إلى المذاكرة حين تطالع سِيَرهم: حسن المذاكرة، حلو المذاكرة، جميل المذاكرة، جليل المذاكرة، مليح

---

(١) طبقات الفقهاء للشيرازي (٦١).

المذاكرة، لطيف المذاكرة، عَذْب المذاكرة، طيِّب المذاكرة، كثير المذاكرة، واسع المذاكرة، حاضر المذاكرة، قوي المذاكرة، متين المذاكرة، مفيد المذاكرة، ممتع المذاكرة، حميد المذاكرة، لَيِّن المذاكرة .. ومن أظرفها ما جاء في ترجمة أبي عبدالله ابن زمرك (٧٩٣هـ) من أنه (شَرِه المذاكرة)[١].

(٣)

ينبغي أن تكون المذاكرةُ هجِّيرى طالب العلم، وشغلَه الشاغلَ متى سنحت له الفرصة، فبالمذاكرة يتعاظم علمه وتتقد قريحته، ومهما دقَّت الفائدة أو جلَّت فلا يستكثرْ أن يذاكر بها أحدًا، واعجبْ لحال المنذر أبي الحكم الأموي الأندلسي، فقد كان كلَّما لقي رجلًا من إخوانه قال له: (هل لك في مذاكرة باب من النحو؟).

وما زال يهتف بكل أحد بهذه الكلمة حتى عُرِفَ بها، وصار يلقَّب بـ(المذاكرة)![٢]

ونحوه البلقيني (٨٠٥هـ) الذي بهر النَّاسَ باستحضاره وحِدَّةِ ذهنه ووفورِ عقله، فقد كان - كما أخبر عنه تلميذه ابن حجر (٨٥٢هـ) - (لا يفتر من الاشتغال، إمَّا مطالعةً وإمَّا تصنيفًا وإمَّا إقراءً، حتى كان يطالع الدَّرْسَ ويحرِّره ويلقيه على أول من يلقاه فيذاكره به ويباحثه فيه، ثم إذا توجَّه إلى الخشابية يلقيه على من يرافقه في الطريق، ثم إذا حضر ألقاه وبحثوا معه فيه،

(١) انظر: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمقَّري (٢: ٨).
(٢) إنباه الرواة للقفطي (٣: ٣٢٣-٣٢٤).

ثم إذا رجع ذاكرَ به مَن لم يكن عساه حضره، فلا ينساه بعد ذلك)[1] .. وكيف يَنسى والمذاكرةُ خزانة العلوم والمعارف؟

وإنَّما كانت المذاكرة خزانةً لأنَّ في المذاكرة ذكرَ المعلومة واستثارتَها والإيرادَ عليها والمحاجَّةَ دونها، وفي تعدُّدِ طرق التفاعل مع المعلومة توطيدٌ لأركانها، وفي المذاكرة بثٌّ للمعلومة واستقبالٌ لها، وفي تنوُّعِ تحرُّكات المعلومة ترسيخٌ لها .. وأمَّا إذا حُرِمَت المعلومةُ نصيبَها من المذاكرة فإن مآلها إلى الضَّيَاع.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٤٠هـ): (تزاوروا وتذاكروا هذا الحديث، فإنكم إن لم تفعلوا يَدرُسْ علمُكم)[2].

وقال الزهري (١٢٤هـ): (إنَّما يُذهِبُ العلمَ النسيانُ وتركُ المذاكرة)[3].

ومن شواهد أفول العلم مع غياب حاجب المذاكرة ما حدث لأبي القاسم بهاء الدين القفطي الشافعي (٦٩٧هـ) فقد قال: (أعرف عشرين علمًا، أُنسِيتُ بعضها لعدم المذاكرة)[4].

قال الماوردي (٤٥٠هـ): (المعاني شواردُ تَضِلُّ بالإغفال، والعلومُ وحشيَّةٌ تنفر بالاسترسال، فإذا حفظها بعد الفهم أَنِسَتْ، وإذا ذاكر بها بعد الأنس رَسَتْ .. وقد قال بعض الحكماء: مَن أكثرَ المذاكرةَ بالعلم لم ينسَ ما عَلِم، واستفاد ما لم يعلم)[5].

---

(١) ذيل الدرر الكامنة (١٣٣-١٣٤).
(٢) مسند الدارمي (١: ٤٢٢ - رقم: ٦٣٩).
(٣) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (١: ٣٦٨).
(٤) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨: ٣٩٢).
(٥) أدب الدين والدنيا (٩٥).

وقد كان للهالك أبي رَيَّةَ (١٣٩٠هـ) ولدٌ نابهٌ أسماه مصطفى صادق، على اسم شيخه الرافعيِّ (١٣٥٦هـ) تيمُّنًا ومحبَّةً، وقد كان حريصًا عليه، حفيًّا به، يعدُّه لمقام عليٍّ في العلم والمعرفة، وكان كما يصفه مع حداثة سنِّه (نسيج وحده كمالًا وخلقًا، وذكاءً وعلمًا)، وكان أبو رَيَّة كثير السؤال والاستشارة لشيخه الرافعي فيما يتعلق بابنه مصطفى، إنْ في تحديد مقروءاته، أو في توجيهه لبعض رياضات العلم، ومما جاء في جوابات الرافعي قولُه: (دَعْ لمصطفى شأنه، فهو بصيرٌ بما يحتاج إليه، ولكن إن استطاع أن يضمَّ إليه في الدرس تلميذًا مجتهدًا نشيطًا فذلك أنفعُ، كيلا يعتريه الملل، ويجد من يناقشه، فإنَّ المناقشةَ من أنفع الوسائل في تثبيت المسائل في الذهن، وقلَّما ينسى الإنسان مسألةً ناقش فيها)[1].

وقد توفي مصطفى صادق أبو رية وعمره إحدى وعشرين سنة، وتفطَّر كبد والده لذلك حتى قال عنه بعد أن أرَّخ لوفاته بفجر يوم الخميس أول شهر رمضان سنة ١٣٥٩هـ: (بأفول بدره غاب معه كوكب سعادتي في هذه الحياة)[2].

(٤)

مع ما في المذاكرة من عوائِدَ علميَّةٍ فإنَّ فيها إيناسًا يعرفه من جرَّبه، وهي من وسائل تنمية محبة العلم في قلب طالب العلم، وقد كان أبو العباس عبدالله بن طالب القاضي (٢٧٥هـ) يجمع في مجلسه المختلفين في الفقه، ويُغرِي

(١) رسائل الرافعي (٢٢٦).
(٢) رسائل الرافعي (٢٧٦) هامش (١).

بينهم ليتذاكروا وتظهر الفائدة، وربَّما أمرهم بذلك، حتى قيل عنه: (لم يكن شيءٌ أحبَّ لابن طالب من المذاكرة في العلم)[1].

ومثله شريكه في الاسم والكنية، أبو العباس عبدالله بن أحمد التونسي (٣٥٢هـ)، فقد جاء في ترجمته أنه (كان يفصِّل المسائلَ كما يفصِّل الجزارُ الحاذقُ اللحمَ، وكان يحب المذاكرة في العلم ويقول: «دعونا من السماع ألقوا علينا المسائل» وربَّما دخل عليه أصحابه وهو مُلْتاثٌ، فإذا أخذوا في المذاكرة زال الْتِياثُه، وظهر نشاطُه)[2].

ويبلغ حب المذاكرة بالمرء مبلغًا لا يُدرَكُ كنهه ولا يُحاط بوصفه، فيحدِّث السخاوي (٩٠٢هـ) عن شيخِه وقرَّةِ عينِه ابن حجر (٨٥٢هـ) أنه كان عظيم المحبة للمذاكرة، فيقول: (أمَّا شدَّةُ رغبته في العلم، ومحبَّتُه في المذاكرة به، والمباحثة فيه = فوراءَ العقل)[3].

بل يبلغ حبُّ المذاكرة مبلغًا يجعل من مثل يحيى بن معين (٢٣٣هـ) يتكلم في مثل الشافعي (٢٠٤هـ)!

وبصرف النظر عن حقيقة ما تكلم به ابن معين في الشافعي فإنَّ من الثابت عنه الغضَّ من قدره، وقد أدار المعلِّميُّ (١٣٨٦هـ) النظرَ في سبب ذلك، وكان مما ذكره أنَّ ابن معين كان يرى العلمَ كلَّ العلمِ في جمع الأحاديث وتتبعها، وكان يجتمع هو وأحمد (٢٤١هـ) وأقرانهما لمذاكرة ذلك،

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٤: ٣٠٩).
(٢) ترتيب المدارك (٦: ١١-١٢).
(٣) الجواهر والدرر (٣: ١٠٤٢).

ولم يكن له حظٌّ من الفقه، بخلاف الشافعي (٢٠٤هـ) الذي لم يكن مكثرًا من الحديث لكنه عرف طرق الاجتهاد وتمكن من العلم بالكتاب والسنة وبلغ ما به استطاع أن يدفع عن أهل الحديث لائمة أهل الرأي، فكان الإمام أحمد (٢٤١هـ) يميل إلى مجلسه حيث وجد فيه ضالَّته المنشودة، وهو القائل: (كانت أقضيتنا أصحابَ الحديث في أيدي أصحاب أبي حنيفة ما تُنزَع حتى رأينا الشافعي)[1].

ولإقبال أحمد على الشافعي تولَّدت في نفس ابن معين (٢٣٣هـ) شِبْه نُفرَةٍ عن الشافعي، وكان يلوم أحمد على ذلك، فكان أحمد مع ملامة ابن معين يُعلِي من قدر الشافعي، ويحرِّض أقرانه على الحضور عنده والإفادة منه.

قال المعلمي (١٣٨٦هـ): (فكان ذنبُ الشافعي إلى ابن معين أنَّه سَلَبَهُ صاحبَه ورفيقَه وأنيسَه وصديقَه الذي كان لا يكادُ يفارقُه حضرًا وسفرًا منذ شَرَعَا في طلب الحديث، وبذلك فوَّت عليه ما كان يجده في الاجتماع والمذاكرة من فائدةٍ ولذَّةٍ)[2].

فالغيرة على قرين المذاكرة أفضَتْ بإمامٍ عالي القدر إلى أن يكبوَ جوادُ إنصافِه فيتكلَّمَ في إمامٍ من كبار رجالات أهل الإسلام .. فما أشدَّ غيرة الأئمة على مجالس المذاكرة وأقران المباحثة!

والحاصل أن المذاكرة مع أقران العلم والمعرفة من مباهج هذه الدنيا ورياضها الزَّاهرة، ولا سيَّما إذا كان أطرافُ المذاكرة من أولئك الذين

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٧: ٢٠٣).
(٢) آثار المعلمي - مجموع الرسائل الحديثية (١٥: ٣٢٣).

تستفزُّهم مشكلاتُ المعرفة وتغريهم مضايقُها، فترى واحدَهم يقضي ما بين المجلسين ملاحقًا أطرافَ المعارف من أَلِفِ مكتبته إلى يائِها طلبًا لحلِّ إعضالٍ وإزالةِ إشكالٍ، وهذا الانفعال بالمعرفة من أعظم ما يربطُ طالبَ العلم بالعلم ويُعِينُه على التحقيق فيه، ومن هنا كان أنس العالم يزيد بزيادة شركائه.

قال الغزالي (٥٠٥هـ): (لذَّةُ العالم في علمه، وفيما ينكشف له في كل لحظة من مشكلات الأمور ... وهذا لا يعرفه من لم يذق لذَّة انكشاف المشكلات. ثمَّ إنَّها لذَّةٌ لا نهاية لها، لأنَّ العلومَ لا نهاية لها، ولا مزاحمَة فيها، لأنَّ المعلومات تتسع للطلاب، وإن كثروا، بل استئناسُ العالم يزيد بكثرة شركائه - إذا كان يقصد ذات العلم، لا حطامَ الدنيا ورئاستَها، فإنَّ الدنيا هي التي تضيق بالمزاحمة - بل يزداد سعةً بكثرة الطلاب)[1].

(٥)

ليتخذْ طالب العلم قرينًا للمذاكرة يشاكله علمًا وفهمًا واهتمامًا، قرينًا لا يفني وقته معه في مقدِّمات ينبغي أن تكون مطويَّةً حال المذاكرة، فإنه إنْ فعل ذلك انقلب عليه ظهرُ مجنِّ المذاكرة، وصارت المذاكرة مملةً موحشةً قليلةَ النفع، وانظر كيف كان الإمام أحمد (٢٤١هـ) حفيًّا بمذاكرته لأبي زرعة (٢٦٤هـ)، وما ذلك إلا لما بينهما من المشاكلة العلميَّة، حتى إنَّ أبا زرعة كان فيما بعدُ (يُشبَّه بأحمد بن حنبل) كما ذكر ذلك محمد بن إسحاق الصاغاني (٢٧٠هـ)[2].

---

(١) ميزان العمل (١٩١).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٣: ٧٠).

وليس المراد بالمشاكلة هنا التوازي في القدر العلمي، بل المراد المواطأةُ في أصل الملكة والاستعداد مع الدراية بمقدمات العلم ومصادره ومصطلحات أهله.

كما أن على طالب العلم أن يراعي في قرين المذاكرة اعتدالَ طبعه واستقامة سلوكه، فـ (إيَّاكَ والمذاكرةَ مع متعنِّتٍ غيرِ مستقيمِ الطَّبعِ، فإنَّ الطبيعةَ متسرِّيَةٌ، والأخلاقَ متعدِّيَةٌ، والمجاورةَ مؤثِّرةٌ)[1].

وكما يذاكر الطالبُ قرينَه، فكذلك الأشياخ يذاكرون النابهين من تلاميذهم، ومن الشواهد البديعة في ذلك ما كان بين الشاطبيِّ (٧٩٠هـ) وتلميذِه أبي جعفر القصَّار، فقد نقل ابن الأزرق الغرناطي (٨٩٦هـ) عن شيخه أبي إسحاق إبراهيم بن فتوح (٨٨٦هـ) (أن الشيخ الإمام أبا إسحاق الشاطبي كان يطالع تلميذَه الأستاذَ المحقِّقَ أبا جعفر ببعض المسائل حين تصنيفه لـ «الموافقات»، ويباحثه فيها، وبعد ذلك يضعها في الكتاب)[2].

وما ذلك إلا لعلم الشاطبي بفضل عطاء المذاكرة، وأثرها في تحرير المسائل، وإطلاعِها المذاكِرَ على ما في المسألة من مواطن القوة ليستثمرها ومواطن الضعف فيتلافاها.

وهذا الخبر يجرُّ إلى شاهدٍ آخرَ يبيِّنُ أثر المذاكرة في تحرير التأليف، هو متعلقٌ بتعليقة أبي إسحاق التونسي (٤٤٣هـ) على «الموَّازية»، وذلك ما كانت بين أبي إسحاق وبين أبي القاسم السيوري (٤٦٠هـ) زمالةٌ

---

(1) تعليم المتعلم للزرنوجي (٩١).

(2) روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام (٢: ٧٤٦-٧٤٧).

علميَّةٌ، وكان أبو القاسم (٤٦٠هـ) يثني على تعليقة أبي إسحاق (٤٤٣هـ) على «الموَّازية» بخلاف ما وضعه على «المدوَّنة»، ويحكي سبب ذلك لتلاميذه في أحد دروسه - فيما يحكيه عنه ابنُ غازي (٩١٩هـ) في تعليقته على صحيح البخاري - فيقول: (مات شيوخُنا وبقينا بلا مذاكرة، قلتُ لصاحبي أبي إسحاق: «عسى أن نجتمعَ للمذاكرة في موضع يكون منتصِفًا بين دارَينا» ففعلنا). قال المازري (٥٣٦هـ): (فحكى لي ابن المبيض الذي قرأت عليه «الجوزقي» أنهما اجتمعا بداره حتى أكملا قراءة «الموازية»).

قال السيوري: (فلما شاركني في الكلام على «الموازية» سبقني للتأليف عليها، فلذلك كان تعليقه عليها خيرًا من تعليقه على «المدونة»)[1].

فكان لمذاكرة أبي إسحاق لـ «الموَّازية» مع السيوري أثرٌ بالغٌ في تجويد تعليقته حتى امتازت على كتبه الأخرى.

*****

---

(١) إرشاد اللبيب إلى مقاصد حديث الحبيب لابن غازي (٧٢-٧٢). وما قاله المازري نقله عنه ابن غازي رامزًا له بـ (ز) على عادته في النقل عن المازري في كتابه هذا. انظر: مقدمة المحقق (٤٢).

وأصل ما ينقله ابن غازي عن المازري هو من شرحه لكتاب الجوزقي، وهو مفقود، فحفظ ابن غازي في «إرشاد اللبيب» جملة صالحة منه. انظر: منهج الخلاف والنقد الفقهي عند الإمام المازري لـ د. عبدالحميد عشاق (١: ١٤٢، ١٦٢).

هذا، وقد أثبِتَ اسم السيوري في الإرشاد أوَّلًا: البروي، والظاهر أنه غلطٌ من المحقق.

روى أبو منصور الأزهري (٣٧٠هـ) بإسناده إلى الرياشيِّ (٢٥٧هـ) قال: سمعتُ الأصمعيَّ (٢١٦هـ) يقول: (خيرُ العلمِ ما حاضرتَ به)[١].

وكان زياد بن جارية التميمي إذا خلا بأصحابه استنهضهم، وقال: (أخرجوا مخبّآتكم)[٢].

وأنتَ ..

استثِرْ مخبّآتِ أقرانك، وأذقْهم حلاوةَ المباحثة .. ذاكرْ معهم محفوظاتِك، ذاكرْ معهم مقروءاتِك، بحوثَك ومكتوباتِك.

كنْ شرارةَ المذاكرة في كلِّ مجلس، وأغرِ جُلَساءَك بمسائل العلم فـ (العلومُ أقفالٌ، والسؤالاتُ مفاتيحُها)[٣] كما يقول الخليل (١٧٠هـ).

ذاكرْ بما علمتَ لتطَّلعَ على ما لا تعلم وتستدركَ به ما فاتك، (فإنَّه لا يُستكمَلُ علمُ الأشياء بالعقل الفَرْد)[٤].

وخذْها من أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (٧٤هـ): (تذاكروا الحديث، فإنَّ الحديثَ يهيِّجُ الحديثَ)[٥]. والمسألة تهيِّج المسألة، والفائدة تهيِّج الفائدة.

---

(١) تهذيب اللغة (١: ١٤).

(٢) تاريخ أبي زرعة الدمشقي (١: ٣٥٧).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١: ٣٢٠). وقبله قال الزهري (١٢٤هـ): (العلمُ خزائن، وتفتحه المسألة) مسند الدارمي (١: ٤٠٣ - رقم: ٥٦٤).

(٤) الأدب الصغير لابن المقفع (٤٠).

(٥) مسند الدارمي (١: ٤١٦ - رقم: ٦١٣). وجاء عن ابن مسعود رضي الله عنه (٣٢هـ): (تذاكروا الحديث، فإنه يُهيِّج بعضه بعضًا) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (١: ٣٥٣).

احتشدْ بجمع المشكلات لتنثرها في مجالس المذاكرة، بل اطرحْ ما تظنُّه صوابًا لتدركَ إشكاله، (فإنَّ معرفةَ الإشكال علمٌ في نفسه وفتحٌ من الله تعالى)[1].

ويرحمُ الله السيِّدةَ العالمةَ الفقيهةَ أمَّ الدرداء الصغرى (٨١هـ) .. أتاها عون بن عبدالله بن عتبة في نفرٍ من أصحابه وأخذوا يذاكرونها العلم، ثم قال لها عونٌ: أمللناكِ يا أمَّ الدرداء .. فقالت لهم: (ما أمللتموني .. لقد طلبتُ العبادة في كل شيء، فما وجدتُّ شيئًا أشفى لنفسي من مذاكرة العلم)[2].

---

(١) الفروق للقرافي (١: ٢٨٥).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (١: ٣٥٦).



(العَالِمُ كُلَّما بَذَلَ عِلْمَهُ لِلنَّاسِ وَأَنْفَقَ مِنْهُ تَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُهُ، وَازْدَادَ كَثْرَةً وَقُوَّةً وَظُهورًا، فَيَكْتَسِبُ بِتَعْلِيمِهِ حِفْظَ مَا عَلِمَهُ، وَيَحْصُلُ لَهُ بِهِ عِلْمُ مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ)

ابن القيِّم (٧٥١هـ)



عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«إِنَّ اللهَ قَالَ لِي: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ».

أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٩٩٣).

(١)

كثيرًا ما يأتي ذِكرُ التعليمِ وفضلِه حين الحديث عن زكاةِ العلم، وفضيلةِ الإرشاد، وضرورةِ بثِّ العلم في الناس ليرتفعوا به عن حضيض الجهل .. وهذا بابٌ من الفضل جليل، لكنَّ التعليمَ مع ذلك يُعَدُّ أحد (طرق العلم للمعلم قبل المتعلم، إذا عرف كيف يصرِّف مواهبَه، وكيف يستزيد وكيف يستفيد، وكيف ينفُذُ من قضيَّةٍ من العلمِ إلى قضيَّةٍ، وكيف يخرج من بابٍ منه إلى باب)[١].

فكما أنَّ التعليمَ أداةٌ ناقلةٌ للمعارف يُرسِل بها المعلِّم ما تلقَّاه وحصَّله إلى غيره، فهو أداةٌ لاستقبال العلم وتحصيله، وذلك أنَّ التعليم ضربٌ من التفاعل العلمي، ومن شأن التفاعل العلمي استكمالُ الصورة العلمية لمختلف الأطراف، فالمرءُ حالَ تحصيله العلمي الذاتي لا يتكشَّفُ له ما غاب عن ذهنه من العلوم حتَّى يشفعَ إلى ذهنِه أذهانَ غيره، فإنَّ لكلِّ ذهنٍ تركيبتَه الخاصَّةَ التي تتحكَّم في نوعِ ومستوى المعارف التي يحصِّلُها ويعالجُها، ومن هنا كان في إدارة المعرفة بين عدَّةِ أطرافٍ استكمالٌ للصورة العلمية المنطبعة في ذهنيَّة المحصِّل - مُلقِيًا كان أو متلقِّيًا - وتوفيقٌ بين مختلف أنواع المعرفة ومستوياتها.

(١) آثار محمد البشير الإبراهيمي (٣: ٢٦٨)

(٢)

التعليمُ وإن كان معدودًا من مذاكرة العلم إلّا أنه يمثّل نمطًا خاصًا من المذاكرة، وذلك أنَّ المذاكرة غالبًا ما تكون بين طرفينِ مشترِكَي الرُّتبةِ، ولذا كان من شرط قرين المذاكرة - كما تقدَّم في الفصل الماضي - المشاكلةُ في العلم والفهم والاهتمام، أمّا التعليم فالأمر فيه بخلاف ذلك، فإنَّ المعلمَ غالبًا ما يكون في المادَّة التي يلقيها أعلى رتبةً من المتلقِّي، وهذا يعطيه ولايةَ تقديم المعلومة وإدارةَ عرضها، فهو وإن اشترك مع تلاميذه في مداولة المعرفة ومذاكرة العلم إلا أنَّ نصيبَه في تقديمها أوفر، وهذا يضطرُّه إلى استيفاء أركان المادَّة العلمية لعرضها وتقديمها في صورة مكتملة، غيرَ أنَّ هناك مسافةً فاصلةً بين المادَّة المعدَّة والمادَّة الملقاة تمثّل امتحانًا لمدى صدق اكتمال الصورة العلمية، وهي التي تجعل من التعليم مذاكرةً للعلم وذريعةً إلى تحصيله.

ففي مَعمَلِ التحضير لمجلس التعليم يجتهد المعلِّمُ في استيفاء المادَّة جمعًا وتحليلًا، فإذا ما مَثَل لطلابه وتلقَّفتْه سؤالاتهم إذا بثغرات المادَّة الملقاة تتكشَّف، وهذا التكشُّفُ هو ما يعين على تجويد المادَّة العلمية، فهذه السؤالات الكاشفة إمدادٌ لذهن المعلم بمدادِ مجموعةِ أذهانٍ تختلف عنه في التكوين المعرفي، وطريقة التفكير، ونوع المشكلات الواردة .. والعلمُ بشِعَابِه، واختلافِ مناهجِه، وتنوُّعِ أدواتِه، وتَفَاوُتِ مستوى موادِّه عُسْرًا ويُسْرًا = يجعل لكل محصِّلٍ - معلمًا كان أو تلميذًا - طبيعةً علميَّةً خاصَّةً تُفارِقُ بينه وبين أقرانه ومعلِّميه .. هذه المنطقة من المفارَقة هي التي تُنجِب تلك السؤالات.

وقد يُظَنُّ بادئَ الأمرِ أنَّ تلك الثغرات تنحصر في قصورِ جمعِ المادَّة العلميَّة، وليس كذلك، فكما أنَّ الثَّغَراتِ تتناول القصور في جمع المادَّة فهي تتناول أيضًا نقصَ الوعي بالمادَّة نفسها، فما يجنيه المعلِّم إذًا من تعليمه يقع في جانبين: جانبٌ يتعلَّق بقصور جمع المادَّة، وآخرُ يتعلَّق بالقصور في الوعي بالمادَّة، وأفراد ذلك لا تنحصر، فمنها: القصور في تصوُّر المادَّة، والقصور في جمعها ومنعها - ما يدخل فيها وما يخرج منها -، والقصور في إدراك أصولها ولوازمها، وغيرها كثير، فالتعليم يقدِّم للمعلم تصوُّرًا أنضجَ حول مادَّته العلمية بتجويدِ مكوِّناتها ومَلْءِ فراغاتها.

(٣)

ها هنا أمرٌ لا بُدَّ من تثبيته، وهو أنَّ ما يجنيه المعلم من تعليمه مرهونٌ بمستوى المتلقِّين، فبقدر حذقِ الطلبة، وسلامةِ تكوينهم، وتمكُّنِهم من إثارة السؤالات وتجويدها = ينتفع المعلِّم بتعليمهم ومذاكرتهم وتلقِّي سؤالاتهم.

قال السخاوي (٩٠٢هـ): (قال ثعلب: إنما يتَّسِعُ علمُ العالم بحسب حِذْقِ مَن يسأله، فيطالبه بحقائق الكلام وبمواضع النكت، لأنه إذا طالبه بحقائق الكلام احتاج إلى البحث والتنقير والنظر والفكر، فيتجدَّدُ حفظُه، وتتَّسِعُ معرفتُه، وتقوى قريحتُه)[1].

(١) الجواهر والدرر (٢: ٦٩٧). والمتيقَّن من كلام ثعلب: (إنما يتَّسِعُ علمُ العالم بحسب حِذْقِ مَن يسأله)، والأشبه فيما بعده أنه من تعليق السخاوي، والله أعلم.

أمّا لو كانت أذهانُ التلاميذ كالَّةً عن العمل، وسؤالاتُهم نافرةً عن معاقد المشكلات، فقلَّما ينتفع المعلِّم بتعليمهم ومذاكرتهم، ومَن غَفَلَ عن ذلك من المعلمين، أو جَزِعَ من تلقِّي سؤالات طلابه، واقتصر في تعليمهم على تلقينهم دون تثوير أذهانهم واستنطاقها = كان هو الخاسرَ الأوَّلَ.

قال الخليل (١٧٠هـ): (إذا لم تعلَّمِ الناسَ ثوابًا، فعلِّمْهم لتدرُسَ بتعليمهم علمَك، ولا تجزعْ بتفريع السؤال، فإنه ينبِّهُك على علم ما لم تعلم)[١]. وهو القائل: (اجعل تعليمَك دراسةً لك)[٢].

فلم يدركْ فضلَ التعليم وعوائدَه التحصيليَّةَ مَن لم يستنطقْ بتعليمه عقولَ طلابه، ولا مَن تنكَّبَ سؤالاتِهم ولم يرفعْ بها رأسًا، بل إنَّ مِن حصافةِ المعلِّمِ استعدادَه لسؤالات طلَّابه، واستشرافَه لمشكلاتهم، لا مجرَّدَ تلقِّيها، بل ينبغي أن يكون هو السَّابقَ لهم بحسن تحضيره وإحكام إعداده، كما كان يصنع ابنُ عرفة (٨٠٣هـ)، فقد حُكِيَ أنه عُوتِبَ على كثرة اجتهاده وتعبه في النظر، فقال: (كيف أنام وأنا بين أسدين: الأُبِّي بفهمه وعقله، والبُرْزُلي بحفظه ونقله؟!)[٣].

فهذه القدرة المعرفيَّة لتلميذَي ابنِ عرفة هي التي أقضَّت مضاجع راحته وساقَتْهُ لكثرة الاجتهاد، وقد كان بوسعه أن يُلزِمَ طلابه بنمط من التعلُّم يستقلُّ فيه المعلِّمُ بإلقاء ما أعدَّه دون الْتياثِه بمشكلات طلابه،

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (١: ٣٢١).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (١: ٤٢٦).
(٣) كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج للتنبكتي (٢: ١٢٥).

لكنه مُدرِكٌ لعظيم أثر تلك المقدرة المعرفية التي تحلَّى بها طلابه في تجويد علمه ونظره.

ومن سادة المعلِّمين الذين كان مجلسُ تعليمِهم مجلسَ مذاكرةٍ بامتياز: الإمامُ أبو حنيفة (١٥٠هـ)، فلم يكن درسُه تلقينيًّا، بل كان يثيرُ المسائلَ، ويدير النَّظرَ فيها مع طلابه، فيسمع ما جال في عقولهم، ويُسمِعهم ما عنده، ثم يناظرهم حتى يستقروا على رأيٍ، وكان لا يملُّ ولايضجَرُ، بل كان - كما وصفه صفيُّه وتلميذُه أبو يوسف (١٨٢هـ) - (صبورًا على تعليم العلم، شديدَ الاحتمال لما يناله فيه)[١] .. وبهذه المذاكرة والمناظرة التي كان يديرها أبو حنيفة تخلَّق مذهبه وتكامل.

وهنا لم يقتصر الأمر على مجرد فتح النوافذ لسؤالات الطلبة، فإنْ أتت وإلَّا فلا، بل كان أبو حنيفة هو السابقَ لإنبات بذور السؤالات في عقول طلابه.

قال الموفَّق المكي (٥٦٨هـ) شارحًا ذلك بعد أن ذكر كبار أصحاب أبي حنيفة: (وضع أبو حنيفة رحمه الله مذهبه شورى بينهم، لم يستبِدَّ فيه بنفسه دونهم، اجتهادًا منه في الدين، ومبالغةً في النصيحة لله ورسوله والمؤمنين، فكان يلقي مسألةً مسألةً، يُقلِّبُهُم، ويسمعُ ما عندهم، ويقول ما عنده، ويناظرهم شهرًا أو أكثرَ من ذلك حتى يستقرَّ أحدُ الأقوال فيها، ثم يُثبِتُها القاضي في الأصول، حتى أثبتَ الأصولَ كلَّها)[٢].

---

(١) أخبار أبي حنيفة وصاحبيه للصيمري (٥٥).
(٢) مناقب أبي حنيفة (٢: ١٣٣-١٤٣).

ويقول د. إحسان عباس (١٤٢٤هـ): (إلى طريقة أبي حنيفة في تدريس الفقه يعود الفضل في قدح زناد الفكر لدى تلامذته وفي مقدمتهم أبو يوسف، فقد كان يشركهم في الرأي، ويستمع إليهم، ويأخذ بآرائهم إذا وجدها صائبة، ويرخي لهم العنان في المناقشة بين يديه، ويطلعهم على طريقته في القياس والاستحسان، ويعطي لهم الحرية في الاجتهاد، حتى لَيُمكِنُ القول إن ما يسمى المذهب الحنفي إنما هو وليد الاحتكاك بين أفكارِ عددٍ من التلامذة النجباء يوجِّههم أستاذٌ عبقريٌّ)[1].

ومنه يُعلَم أنَّ الطالبَ على ما راضَهُ به معلِّمُه، فعلى حسب ما يلقيه في ذهنه من بذور الصناعات والملكات المعرفية يكون حصادُه، فإذا كان المعلِّمُ فقيرَ العطاء كان طالبُه أحرى بذلك، فلا يُرجَى من تعليمه الانتفاعُ، ولا الوقوفُ على مضايق المعضلات أو التحذُّقُ بحل المشكلات.

(٤)

من جليل عوائد التعليم إضافةً إلى ما تقدَّم: حلُّ مشكلات المعلِّمِ نفسِه، فكما ينتفع المعلِّم بما يثيره الطلبة من إشكالاتٍ طرأتْ عليهم، فيكون ذلك حافزًا له على تجويد التحضير استعدادًا لِـمَا قد يَرِدُ عليه، كما يحفزه لمزيدٍ من البحث والنظر إذا ورده إشكال لم يكن جوابُه حاضرًا في مجلس الدرس = ففي مقابل ذلك فإنَّ المعلمَ ينتفع بتعليمه في حلِّ مشكلاته نفسِه، بحيث يكون حَلُّ المشكلة المعرفيَّة كامنًا في مجرَّد التحدُّثِ بها وتعليمِها!

(١) بحوث ودراسات في الأدب والتاريخ (١: ٨٠).

يقرِّرُ ذلك ابن القيم (٧٥١هـ) في كلامٍ مشرقٍ مبيِّنًا عوائدَ التعليم وفوائده للمعلِّم، فيقول:

(العالمُ كلَّما بذل علمَه للناس وأنفق منه تفجَّرت ينابيعه، وازداد كثرةً وقوَّةً وظهورًا، فيكتسب بتعليمه حفظَ ما علمَه، ويحصل له به علمُ ما لم يكن عنده، وربَّما تكون المسألة في نفسه غيرَ مكشوفةٍ ولا خارجةٍ عن حيِّزِ الإشكال، فإذا تكلَّم بها وعلَّمها اتَّضحتْ له وأضاءتْ وانفتحَ له منها علومٌ أُخَر. وأيضًا فإنَّ الجزاءَ من جنس العمل، فكما علَّم الخلقَ من جهالتهم جزاه الله بأنَّ علَّمَه من جهالته، كما في صحيح مسلم [٢٨٦٥] من حديث عِيَاض بن حمار عَن النَّبِي ﷺ أنه قال في حديثٍ طويلٍ: «... وأنَّ الله قال لي: أَنفِقْ أُنفِقْ عَلَيْك». وهذا يتناول نفقةَ العلم: إمَّا بلفظه، وإمَّا بتنبيهه وإشارته وفحواه)[1].

ومن شواهد ذلك ما كتبه الفيلسوف والاقتصادي البريطاني جون ستيوارت مل (١٢٩٠هـ) في سيرته الذاتية حين ذكر قصة تعلمه اللاتينية، حيث كان يتعلَّمها، ثم يشرح لشقيقته ما تعلَّمه، ثم تذهب شقيقتُه إلى والدها لتكرر الدروس عليه، ثم التحق بالدرس بعض أشقائه وشقيقاته، ومع تصريحه بأن هذا الدور لم يكن يعجبه إلا أنه سجَّل شهادةً مهمَّةً في هذا السياق حيث قال: (صرتُ بسبب التعليم مسؤولًا عن دروس تلامذتي بقدر ما كنت مسؤولًا عن دروسي نفسها تقريبًا، لكنني استفدت من هذا النظام فائدةً عظيمةً، لأنني صرت أدرِّس على نحوٍ أكثر اشتمالًا وأحتفظ

---

(١) مفتاح دار السعادة (١: ٣٦٣-٣٦٤).

زمنًا أطول بما كان ينبغي عليَّ تعليمُه، ولعلَّ اشتمال تلك المهمة على شرح النقاط الصعبة للآخرين كان مفيدًا لي في ذلك الوقت أيضًا)[1].

ومما يتَّصِلُ بهذا الشاهد، ويشيرُ إلى أثر التعليم في تقحُّم مشكلات المعرفة ما كتبه جلال أمين في سيرته الذاتية حول وظيفة التدريس وأثرها في تحرير المادَّة العلمية وتجويدها، وكذا في الابتكار والإنتاج العلمي، فقد قال بعد أن عدَّد جملة من مزاياها: (أتاحت لي وظيفة التدريس مزايًا أخرى كانت ذات أهمية كبيرة لي، فقد وجدتُ أنَّ أفضلَ طريقةٍ لفهم المشكلة المعقَّدة أن يضطرَّ المرءُ لتدريسها، إذْ إنَّ الطلبة رقباء ممتازون على درجة فهم الأستاذ لما يقول، وهذا يجبر الأستاذ على فعل المستحيل حتى يصبح قادرًا على مواجهة أي سؤال لتوضيح ما يقوم بشرحه ... تتَّصِلُ بذلك ميزة أخرى، هي الابتكار والاهتداء إلى أفكار جديدة، فالمحاولة المستمرة للتعمق في الفهم استعدادًا لمواجهة التلاميذ كثيرًا ما تقود الأستاذ إلى أفكار جديدة قد يكون بعضها ذات قيمة، والحقيقة أنني مدينٌ للتدريس بكثير من مقالاتي وكتبي، فإذا كان لبعضها بعضُ النفع فهو بلا شك نابعٌ في الأصل من خوفي من أن أقول كلامًا غير مفهوم)[2].

---

(١) سيرة ذاتية (١٢).

(٢) ماذا علمتني الحياة (٢٨٨).

إذا تقرَّر ما مضى عُلِمَ منه أنَّ التحصيلَ بالتعليم ليس قاصرًا على الأشياخ المنتهين، بل إنَّ لطالب العلم نصيبَه من ذلك ما دام التعليمُ ذريعةً إلى التعلُّم والتحصيل، ولا حجرَ عليه في التصدُّر لذلك ما دام غرضُه تحقيقَ قدرٍ من الإفادة والاستفادة مع تأهله لما تصدَّر له، فليس الأمرُ إذًا حكرًا على العلماء البالغين من العلم ذروتَه، بل هو مشاعٌ لكلِّ مَن له حظٌّ من العلم، وقد قال الإمام مالك (١٧٩هـ): (لا ينبغي لأحدٍ عنده علمٌ أن يتركَ التعليم)[١].

وقد يُجابَه طالب العلم حين يبغي الـمُثُولَ للتعليم ببعضِ عباراتٍ عن السلف فيها الذمُّ للتصدر، وما فيه من سَلْب التوفيق، وأن الحَدَثَ إذا تصدَّر فاته خير كثير، وانقل ما شئتَ وراءَ ذلك ... لكن عليه ألَّا ينكسرَ أمام ذلك، فإنَّ ذمَّ التصدُّر المبكِّر وإن كان معنًى معتبرًا، وكلام السلف والعلماء حيال ذلك صحيحٌ لا غبار عليه، إذ لا شكَّ أنَّ التصدُّرَ مزلَّةُ قدم، إلَّا أنَّ المراد منه ليس كما يتصوَّرُه بعضهم من حَجْزِ الطالب عما له به انتفاعٌ من الكتابة والتعليم ونحوها من نوافذ العلم والتحصيل، وإنما المرادُ منه التصدُّرُ الذي يترأَسُ به الطالب فيكون ترؤُّسه حائلًا بينه وبين التحصيل، ولذلك صرَّح بعضهم بهذا المعنى، كما قال سفيان الثوري (١٦١هـ): (من ترأَسَ سريعًا أضرَّ بكثيرٍ من العلم، ومن لم يترأَسْ طلب وطلب حتى يبلغ)[٢].

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٢: ٢٦).
(٢) مسند الدارمي (١: ٤٠٥ - رقم: ٥٧١).

فالتصدُّرُ الذي يترأَسُ به طالب العلم وينأى به عن تحصيل العلم والاستزادة منه هو التصدر المذموم، لا التصدُّرُ الذي يكون سبيلًا لتحصيل العلم والاستكثار منه.

ولم يرد في نصوص الشرع حظر التصدُّر المبكِّر، بل إنَّما حظر التصدُّرَ الفاقدَ لشرط الأهلية، وعلى ذلك جرت البيئات العلمية في مختلف القرون، وما يُذكر في دواوين الطلب وآداب العلم من آثارٍ دالَّةٍ على ذم التصدُّر فمعناها زيادةً على ما تقدَّم استعمالُ التريُّث لا حسمُ المسارعة إلى الخيرات متى ما توفَّر شرطُها، ونظير ذلك ما جاء في صحيح مسلم [٤٣٢] من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيَلِني منكم أولو الأحلام والنهى». فليس المرادُ به تأخيرَ المتأهلين من الصغار، ولا تقديمَ كل ذي حلم ونهية من الكبار، بل القصد رعايةُ المقصود من أمر الشارع، وهو أن يكون للإمام من ينبهه إذا غفل ويخلفه إذا احتاج.

ثمَّ إنَّ على طالب العلم أن يفقه أنَّ للتصدر مراتبَ، كما هو الحال في الاجتهاد، فشرعنة أصل التصدُّر لا يعني أن تبلغ هذه المشروعية به غاية المراتب، وكما أنَّ الاجتهادَ يتجزَّأ فكذلك القولُ في التصدُّر، فالتأهُّلُ للتعليم لا يعني التأهُّلَ للفتيا، والتأهُّلُ لتعليم صغار الطلاب لا يعني التأهُّلَ لتعليم كبارهم، والتأهُّلُ للكتابة لا يعني التأهُّلَ للمحاضرة، وهلمَّ جرًّا.

ووزن طالب العلم لمرتبتِه يفتقر إلى جملة معطيات، من أخصِّها: مصالحةُ النفس ومكاشفتُها في الخلوات، فربما رأى مَن يحيطُ به من الأشياخ أهليتَه وهو يرى خلاف ذلك، فليتريَّث .. وربما رأى مَن حوله عدم أهليَّته

فليمتحن رؤاهم ولينظر في بواعثها، فإذا رآها منطقيَّةً لانَ لها وسلَّم قياده لإرشادها، ومصالحةُ النفس من أعونِ ما يديرُ به طالب العلم حالَه، فليتَّقِ الله في خطواته، ولا يجامِلْ نفسه على حساب دين الله تعالى.

ومن معطيات وزنه لمرتبتِه: شهادةُ أهل الفضل المتجرِّدين من حظوظ النفس، وكلما كان لطالب العلم مَن يسدِّد سيره ويكافحه بعيوبه كان محكَمَ المشية، واثِقَها.

قال ابن المقفع (١٤٢هـ): (على العاقل أن يُؤنِسَ ذوي الألباب بنفسه ويُجرِّئَهم عليها حتى يصيروا حَرَسًا على سمعه وبصره ورأيه، فيستنيمَ إلى ذلك، ويُريحَ له قلبَه، ويعلمَ أنهم لا يغفلون عنه إذا هو غَفَلَ عن نفسه)[١].

*****

كان أبو الحسن الجِلاوي (٧٨٢هـ) من المعلِّمينَ الحاذقينَ الجامعينَ لعدة علوم، وكان حريصًا على طلابه، عظيمَ العناية بهم، ومما جاء في ترجمته أنه كان (مجتهدًا في تكميل الطالب)[٢]. وهذه جملةٌ عزيزةُ الوجود، حُلْوَةُ الطعم، عَذْبةُ المذاق!

والجِلاويُّ لما كان هذا شأنه كان عظيمَ المحبَّة للتعليم، بل كان (يرى أنَّ التعليمَ أفضلُ من التصنيف)، وليس هذا منه تزهيدًا في آثار التصنيف

---

(١) الأدب الصغير (٢١).

(٢) كفاية المحتاج للتنبكتي (١: ٣٥٠).

وثمراته، إذ لا شكَّ أنَّ التصنيف أبقى أثرًا، والتاريخُ العلميُّ شاهدٌ على ذلك، لكني أحسِب أنه كان يريد بذلك الإشارةَ إلى أن التعليمَ أفضلُ من جهة كونه تفاعلًا علميًّا بين الطلاب والشيوخ، وهذا منتفٍ في التصنيف، والتَّفَاعلُ بين الطلبة وأشياخهم يجلب لكلٍّ منهم فوائدَ، ويفضي بهم إلى مسالكَ من التحقيقِ والتحريرِ ما كان لهم نوالُها لولا أنْ دفعتْهُم إليها مجالسُ التعليم، ولذا كان الجِلاويُّ (٧٨٢هـ) مهمومًا بتكميل طلابه، فلهذه الفائدة التي اختصَّت بها مجالس التعليم كان التعليم أفضلَ من هذه الحيثيَّة.

ومَن جرَّب التعليمَ وذاقَ عوائدَه كان ضنينًا بمجالسه أن تشبَّ عن طَوْقه، عظيمَ التمسُّك بطلابه وتعليمهم، وانظر إلى أبي إسحاق إبراهيم بن فتوح (٨٦٦هـ) - مفتي غرناطة، وشيخ علماء الأندلس في زمانه - كيف كان مدركًا لعظيم أثر التعليم وجليل عوائده، حتَّى قال: (لو استغنيتُ عن المعونة بالوظائف لتركتُها إلَّا وظيفة التدريس لِـمَا لي فيها من الانتفاع بمذاكرة الطلبة)[1] .. فكَمْ لكثيرٍ من التلاميذ من مِنَنٍ على أشياخهم بفضل توقُّدِ أذهانهم وحُسنِ سؤالاتهم.

حاصلُ الأمر أن التعليم من أشرف مقامات التحصيل والمذاكرة العلمية، ولو لم يكن منه إلا تثبيتُ علم المعلِّم لكفى، فكيف وهو وسيلة إلى كشف مشكلات العلم والإشراف على دقائقه، فعلى طالب العلم أن يأخذ بحظه من التعليم بما يليق بمثله حسب وزنه العلمي ومرتبته المعرفية، ﴿ومن يُؤْتَ الحكمةَ فقد أوتي خيرًا كثيرًا﴾.

---

(١) روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام لابن الأزرق (٢: ٩١٥).



(مَا أَغْفَلَنَا عَمَّا يُرَادُ بِنَا!)

أبو بكر القفال (٤١٧هـ)



عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا».

أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٧٢٢).

(١)

من القواعد العظيمة الأثر في شريعة الله تعالى ما اصطلح عليه الفقهاء بقولهم: (الغُنمُ بالغُرم) .. وأصلُها ما جاء في المسند والسنن من قول النبي ﷺ: «الخراج بالضمان».

وهذه القاعدة تجسيدٌ لمعنى التلازم بين النماء والدرك، والفائدة والخسارة في الأحكام الفقهية، فكلُّ من كان معرَّضًا للخسارة فهو مستحقٌّ للربح، والمبيعُ لما كان تلفُه داخلًا في ضمان المشتري فإن غلَّتَه ونماءَه تكون من حظِّه وغُنمِه.

ولا يكادُ ينفكُّ أمرٌ من أمور الدنيا والآخرة عن تسلُّط متلازمة الربح والخسارة عليه، فالعبادة التي يسعى الناسك لتحصيل حلاوتها ربما استحالت جحيمًا عليه فيما لو داخل العُجبُ قلبَه وسيطر عليه.

وكذلك العلم .. فإنَّ محصِّلَه لما كان من أعلى الناس مقامًا في الجنة لو استقام قلبُه وتجرَّد قصدُه، فإنه معرَّضٌ لأنْ يكون مبتدأً تسعيرِ النار لو فسدت نيته.

والعامل بما علم لما كان مضاعَفَ الأجر باجتماع العلم والعمل مفضَّلًا على العامل على جهل، فإنه مضاعَفُ الوزر بهجره العملَ بما عَلِمَ قاصرٌ عن رتبة الهاجر عن جهل، فقليلُ العلم من هذه الجهة أسلمُ من كثيره، ولذلك قال أبو الدرداء رضي الله عنه (٣٢هـ): (ويلٌ لمن لا يعلم ولا يعمل مرَّةً، وويلٌ لمن يعلم ولا يعمل سبعَ مرَّات)[1].

ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ الطالبَ الساعيَ لنوال لذة العلم لِيبلُغَ به مدارجَ الإيمان ربَّما كان هذا العلم الذي يقصده من أكبر العوائق الصادَّة له عن صلاح قلبه!

لماذا هذه التقدمة؟

إذا فَقِه طالب العلم حقيقةَ ما يطلبه، ولأيِّ شيءٍ أعلى الله تعالى مقامَه = أيقن أنه إلى علمٍ قليلٍ يستحثُّ جوارحَه للعمل وقلبَه إلى القرب من الله تعالى أحوجُ منه إلى كثيرٍ يُثقِلُ جوارحَه ويُبعِدُ قلبَه.

وقد قال الإمامُ مالكٌ (١٧٩هـ): (لا أحبُّ الكلامَ إلا فيما تحتَه عمل، لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام إلا فيما تحته عمل)[2].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (١: ٥٥٦).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢: ١٨٩).

ومدَّ حبلًا إلى العلوِّ فنقل عن القاسم بن محمد (١٠٨هـ) أنه قال: (أدركتُ الناسَ وما يعجبهم القول، إنَّما يعجبهم العمل)[1].

وهذا من تمامِ الفقه عن الله تعالى، وكمالِ رعاية العلم، فالعلم إنما شَرُف لشَرَفِ ثمرته العملية القائمة بالقلب والجوارح، فـ (الذي يفوق الناس في العلم جديرٌ أن يفوقهم في العمل)[2] كما يقول الحسن البصري (١١٠هـ)، فإذا لم يؤَدِّ ثمرتَه المنوطةَ به انحلَّ شرفُه وارتفع عنه فضلُه .. بل زاد من تدقيق الحسن لهذا المقام أنْ جعل من العلمِ مَهرَبًا للعاطلين عن العمل!

وذلك أنه دخل المسجد يومًا، فقعد إلى جوار حلقة يتكلمون، فأنصتَ لحديثهم، ثم قال: (والله ما هؤلاء إلَّا قومٌ ملُّوا العبادة، ووجدوا الكلامَ أهونَ عليهم، وقلَّ ورعُهم وتكلَّموا)[3].

وإذًا، فالبدء بفرض القلب وواجب الروح فرضُ طالب العلم وواجبُه، وتعرُّفُ سلوك الطريق وقطعُ عقبات القلب من أجلِّ أولوياته، ثم لينظر بعد ذلك فيما فيه صلاح العباد، وقد قال بعض السلف: (ما تعلمتُ العلم إلا لنفسي، وما تعلمتُه ليحتاج الناس إليَّ).

فعقَّب مالكٌ (١٧٩هـ) على هذا القول مسلسِلًا هذا الصنيع كعادته في ضبط معالم الأمر الأول، فقال: (وكذلك كان الناس، لم يكونوا يتكلَّفون هذه الأشياء، ولا يسألون عنها)[4].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (٢: ١٧).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (١: ٥٦٨).
(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم (٢: ١٥٦-١٥٧).
(٤) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (١: ٢٧٣)

جرى ذكر معروف الكرخي (٢٠٠هـ) في مجلس الإمام أحمد (٢٤١هـ)، فقال أحد الجلوس عن معروف: (قصير العلم).

وَيْلُمِّ ذا القائلِ .. ربَّما كان حديثَ العهد بمجلس أحمد!

انتهره أحمد وقال له: (أمسِكْ) .. ولَكَأنَّما انسدلتْ أمام ناظرَي أحمدَ سيرةُ معروفٍ وزهدُه وورعُه وفَرَقُ قلبِه من ربِّه، فشقَّ عليه أن يُلمَزَ في مجلسه بقصر العلم وقد كان من شأنه ما كان.

ثم نطق بلسان الإمامة بعد تجرِبَةٍ طويلةٍ مع العلم وأهله، تجرِبَةٍ حدَّثَ عن طرفٍ منها بقوله: (سافرتُ في طلب العلم والسُّنَّة إلى الثغور، والشامات، والسواحل، والمغرب، والجزائر، ومكة، والمدينة، والحجاز، واليمن، والعراقين جميعًا، وأرض حوران، وفارس، وخراسان، والجبال، والأطراف)[1]. وبعد ذلك كلِّه يقول: (وهل يُرادُ من العلم إلاَّ ما وصل إليه معروف؟!)[2].

يا لله! ما قال رضي الله عنه: لم يكن قصير العلم، والحال أنَّ معروفًا لم يكن واسع العلم بالمعنى الذي يقصده اللَّامز، لكن ما هكذا يُقاس الرجال، ولا هكذا يُعايَرُ العلم، فأراد أن يقذف في روعه أن العلم لا يُقوَّمُ بطولٍ ولا قِصَر، ولا بضيقٍ واتِّساع، بل بما قام بالقلب من الإيمان واليقين، فقال بهذا الفقه تلك القَولةَ الخالدةَ الأسيفةَ: (وهل يُرادُ من العلم إلَّا ما وصل إليه معروف؟!).

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١: ١٠٩).
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٩: ٣٤٠).

وقد كان عَلَمُ الزهَّادِ أبو محفوظ معروفٌ الكرخيُّ (٢٠٠هـ) على دراية بحقيقة العلم، ولذا سجَّل خلاصة مطالعاته في صحيفة الحياة بما انتهى إليه علمه من أحوال العلم وطلابه، فقال: (إذا أراد الله بعبدٍ شرًّا أغلق عنه باب العمل، وفتح عليه باب الجدل)[1].

وبهذا الفقه بلغ أنْ قال فيه إمام الدنيا أحمد بن حنبل (٢٤١هـ) ما قال، فعلمُ الطالب إن شُغِلَ بكَمِّ المسائل عن كَيفِ القلب أُغلِقَ دونَه بابُ العمل، وإذا لم يتحرَّك علمُه بالعمل تحرَّكَ بالتباهي والجدل، ولا آفةَ أمحقُ بالعلم وبركته من أن يكون محلًّا للتباهي والجدل.

ثم يأتي ابن الجوزي (٥٩٧هـ) ليقرِّرَ أنَّ العلمَ وحدَه قاصرٌ عن إصلاح القلب، فيقيِّدُ خاطرُه أن (الاشتغالَ بالفقه وسماعَ الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب إلا أن يُمزَجَ بالرقائق والنظر في سير الصالحين)!

وليس هذا منه مجرَّدَ خاطرٍ عابرٍ سَنَحَ له وقيَّده، بل الشأن كما قال: (وما أخبرتُك بهذا إلا بعد معالجة وذوق) .. ثمَّ بيَّنَ كيف لا يكون ذلك كافيًا في صلاح القلب، بل تعجَّب أصلًا من تحقُّقِ صلاحه معه، فقال: (لأني وجدت المحدثين وطلاب الحديث همة أحدهم في الحديث العالي وتكثير الأجزاء، وجمهور الفقهاء في علوم الجدل وما يُغالَبُ به الخصم .. وكيفَ يَرِقُّ القلب مع هذه الأشياء؟)[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (٩: ٣٤٠).
(٢) صيد الخاطر (٢٢٨).

نَعَم، كيف يرقُّ قلب طالب العلم وهو لا يشفع إلى علمه بالمسائل النظرية العلمَ بأحوال قلبه وما به صلاحُه، وهو إن اقتصر على النظريِّ من العلم فإنه بذلك قد نال علمًا، لكن لِيُوقنْ أن مثالَه (مثالُ مَن اقتصر مِن سلوك طريق الحج على علم خرز الرَّاوية والخف، ولا شك في أنَّه لو لم يكنْ لتعطَّل الحج، ولكنَّ المقتصر عليه ليس من الحج في شيء)[1]، فـ (في الناس من حَصَل له العلم، وغَفَل عن العمل بمقتضاه، وكأنَّه ما حصَّل شيئًا)[2].

ولو صحَّ قلبُ طالب العلم لكان حرصُه على العمل أعظم في عينيه من حرصه على العلم، ولَكَان فواتُ نصيبه من العمل أثقلَ عليه من فوات شيء من العلم، وذلك أن العملَ ثمرةُ العلم وغايتُه، فما أحسن ما قاله عبدالله بن إدريس (١٩٢هـ) - (نسيج وحده) كما يصفه الإمام أحمد[3] - لما سمع أبا عبيد القاسمَ بنَ سلَّام (٢٢٤هـ) يتلهَّف على بعض الشيوخ، فقال له: (يا أبا عبيد، مهما فاتك من العلم فلا يفوتنَّك العمل)[4].

وكذا قال له عبدالرحمن بن مهدي (١٩٨هـ) لما دخل أبو عبيد «البصرة» ليسمع من حمَّاد بن زيد (١٧٩هـ)، ففوجئ بموته، وشكا ذلك إلى ابن مهدي، فقال له: (مهما سُبِقتَ به، فلا تُسبقَنَّ بتقوى الله عز وجلَّ)[5] .. بمثل هذا كانت تجري وصايا الأئمَّة.

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي (٦: ٦٥٥).

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزي (٣٨٥).

(٣) تاريخ مدينة السلام للخطيب البغدادي (١١: ٧٢).

(٤) تاريخ مدينة السلام (١٤: ٣٩٩).

(٥) تاريخ مدينة السلام (١٤: ٣٩٨).

إن كان لطالب العلم همٌّ فليجمعه أولًا في همّ صلاح القلب، وليبلُغ تفكيرُه في ذلك مبلغَ أنفاسه، فإنه معيار صحة طلبه واستقامة قصده .. فيا ضيعةَ العمر إن كان العلم مجلبةً لقسوةٍ ينأى بها الطالب عن مدارج الخائفين!

كان إبراهيم الأمير – أحدُ أمراء إفريقيَّة في القرن الثالث – يقول: (على بابي رجلان: أحدهما يخاف الله ولا يخافني، والثاني يخافني ولا يخاف الله .. فأمَّا الذي يخاف الله ولا يخافني فهو ابنُ طالب، والثاني فلانٌ، فذلك عظيم الحرمة عندي، وهذا الذي يخافني صغيرٌ عندي).

فإذا تصفَّحنا سيرة أبي العباس عبدالله بن طالب القاضي (٢٧٥هـ)، وفتَّشنا عن السبب الذي بلغ به أن قال عنه ذلك الأمير ما قال، وجدنا أبا جعفر القصريَّ (٣٢١هـ) يحكي لنا خبرًا عنه فيه بلاغ، قال رحمه الله: (كان ابن طالب يذكر تَنَازُعَ أصحابنا في المسائل، فربما ذكر في المسألة خمسة أقوال أو ستة، ثم تسيل دموعه، ويضع خده على الأرض، ويقول: «يا فتى، أردتَّ أن يقال فقيه، فهل معك عمل صالح تنجو به من عذاب الله؟ وإلا فما يغني هذا عنك؟!»)[1].

كما قال عنه القصريُّ: (ما رأيتُ أكثرَ دموعًا عند ذكر رسول الله ﷺ منه)[2].

---

(١) ترتيب المدارك للقاضي عياض (٤: ٣٢١).

(٢) المصدر السابق.

هذا السُّمُوق الإيماني هو الذي رفع الله تعالى به من شأن ابن طالب، وجعله له في قلوب عباده مهابةً.

وإذا ما ظَعَنَّا عن «القيروان» قاصدين «خراسان» نلقى هناك أبا بكر القفال المروزي (٤١٧هـ)، شيخ الخراسانيين، لم يكن في زمانه أفقه منه، ولا يكون بعده مثلَه كما يقرر ناصر العُمَري (٤٤٤هـ)، وكان يُقال عنه: مَلَكٌ في صورة إنسان![1] .. تعلَّق بالعلم، وأجراه منه مجرى دمه، فلم يكن له اشتغالٌ بغيره، وزاد على ذلك أنه كان على فقهٍ تامٍّ بحقيقة العلم، وخُذْها من سيرته.

تصدَّر كغيره من أئمة العلم لإفادة طلاب العلم، والجلوس لتفقيههم، غير أنَّ له حالًا قليلةَ التحقُّق في غيره، فقد كان في سياق درسه وهو يشرح مسائل العلم ويقيِّد عنه طلابُه فوائدَه يتوقَّف .. يتوقَّفُ لسانه عن الكلام، وتتولى عيناه مهمة المواصلة، لكن المواصلة حينئذٍ تكون بالدموع!

لا موعظةَ تمهِّد لهذه الدموع، لا موقفَ يستدعيها، لا مشهدَ يستدرُّها، ولكنه قلب العالم حين يرتاض بخشية الله تعالى فتأتيه الدموعُ على غير ميعاد .. ينقل القاضي حسين (٤٦٢هـ) للعالَمِين هذا الموقف المتكرر المدهش، فيقول عنه: (كان في كثير من الأوقات يقع عليه البكاء في الدرس).

وإذا ناله ذلك أطرق برأسه متفكِّرًا، متأمِّلًا، وطلابُه ما بين مشاركٍ بالدمع ومراقبٍ بالعين، ثم تأتي ختمة الإطراق، فيرفع رأسه، ويستقبل بوجهه طلابَه، وعيناه تفيضُ من الدَّمع، ثم يقول: (ما أغفَلَنا عما يُرادُ بنا!)[2].

---

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٥: ٥٥).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧: ٤٠٧).

ما الذي قام في قلبك أبا بكر حتى قلتَ ما قلت؟

ما الذي أيقظ علمك بالخشية وجعل منه علمًا لا كالذي نطلبه؟

أي غفلة تلك التي أنبتت زفرة الأسى وأنت تتعبد الله في مجلس علم؟!

أين السبيل أبا بكر لهذا الإطراق وذلك الدَّمع؟

*****

قال الشاطبي (٧٩٠هـ): (العلمُ الذي هو العلمُ الـمعتبرُ شَرعًا - أعني الذي مدح الله ورسوله ﷺ أهله على الإطلاق - هو العلمُ الباعثُ على العمل، الذي لا يُخَلِّي صاحبَهُ جاريًا مع هواهُ كيفما كان، بل هو الـمقيِّدُ لصاحبه بمقتضاه، الحاملُ له على قوانينه طَوْعًا أو كَرْهًا)[1].

كثيرٌ من الحقائق مُرُّ المذاق، لكن لا بدَّ من تجرُّعه: علمٌ لا يوصلُ إلى الله تعالى، ولا يوجبُ رقَّةَ القلب، ولا يُجرِي دمعَ العين من خشية الله تعالى = إن لم يَضُرَّ في الآخرة لم ينفعْ، وليس هو بالعلم الذي جاءت النصوص بالحثِّ عليه، ولا بالذي نال أهله درجة الوراثة من أنبياء الله ورسله، و(من أوتِيَ من العلمِ ما لا يبكيه لَخليقٌ أن لَّا يكونَ أُوتِيَ منه علمًا ينفعه) كما يقول (ذو الخُشُوعِ الغَيبيِّ، والدُّمُوعِ السَّنِيِّ) عبد الأعلى التَّيْمِي[2].

---

(١) الموافقات (١: ٨٩).

(٢) مسند الدارمي (١: ٣٣٠ - رقم: ٣٠٠). وانظر: حلية الأولياء (٥: ٨٨).

يستطيل الزمان على طالب العلم والقلبُ هو القلب، إن لم يتأخَّر عما كان عليه، ومتى كان القلبُ على هذه الحال من التقهقر الإيماني كان ذلك دليلًا على دَخَنٍ في قصدِ الطالب، وانحرافٍ في مسار نيَّتِه، (فإنَّ مَن طلب العلم للآخرة كَسَرَهُ علمُه، وخشع قلبُه، واستكانت نفسه، وكان على نفسه بالمرصاد)[1].

لم تَجرِ على وجنتيه دمعةٌ حين نظره في مسألة من مسائل العلم، ولا اقشعرَّ بدنه حين قلَّب النظر في نصوص الوحي محاولًا الاهتداء بدلائل القلب قبل دلائل اللسان .. يتذكَّرُ ذلك، ويتلمَّظُ من فرط حسرته، فيستحثُّ ذهنَه لتأويلاتٍ مهدِّئَةٍ، من جنس أنَّ العلمَ في حد ذاته عمل، والفضل للمتعدِّي، «ولولا نَفَر»، «وكلٌّ ميسَّر»، «وكلانا على خير» .. فيأتي بها وبأشباهها مكشوفة مفضوحة، يَقنَعُ بها عقلُه ويستحيي من قبولها فؤادُه، والشأن كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] .. فإن لم يخشَ الطالب من الله فلينظر في هذا العلم الذي يطلبه، أيُّ علمٍ هو؟ فليس هو بالذي سأل نبيُّنا المزيدَ منه، ولا الذي بشَّر بأن الحيتان تستغفر لمعلِّمه، ولا الذي من سلك سبيله سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة.

---

(١) الكبائر للذهبي (٥٣).



(لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ العِلْمِ أَنْ يُضَيِّعَ نَفْسَهُ)

ربيعة الرَّأي (١٣٦هـ)

جاء في الصحيحين [خ: ١٠٠، م: ٢٦٧٣] من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبِضُ العلمَ انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكنْ يقبِضُ العلمَ بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالـمًا اتَّخذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا، فأفتوا بغير علمٍ، فضَلُّوا وأضَلُّوا».

قَبْضُ العلم إذًا لا يكون بانتزاعِه من العباد، ورفعِه من صدور الرجال، بل بموت أهله وقبض حَمَلته، وقد جاء عن بعض السلف في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ١٤] أنَّ نقصَها بموت العلماء وذهاب الفقهاء، وقد تلقَّى العلماء هذا التفسير بالقبول[١].

الأَرْضُ تَحيَى إِذَا مَا عَاشَ عَالِمُهَا
مَتَى يَمُتْ عَـالِمٌ مِنْهَا يمُتْ طَرَفُ
كَالأَرْضِ تَحْيَا إِذَا مَا الغَيْثُ حَلَّ بِهَا
وَإِنْ أَبَى عَادَ فِي أَكنافِهَا التَّلَفُ[٢]

---

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (١: ٤٨٧).
(٢) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٧: ٢٥٦).

وطالبُ العلم إذا استحضر ذلك كان طلبُه للعلم طلبًا لبقاء هذا العلم وديمومته، طلبًا لبقاء أنوار الرسالة الإلهيَّة في الأرض، وفي ذلك استبقاءٌ للدنيا واستحياءٌ لأهلها، فإنه لا بقاءَ لها إلَّا ما دامت شمسُ الرسالة تضيءُ أطرافَها، فـ(الدُّنيا كلُّها ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلَّا ما أشرقتْ عليه شمسُ الرسالة وأُسِّسَ بنيانُه عليها، ولا بقاءَ لأهل الأرض إلَّا ما دامت آثارُ الرُّسُلِ موجودةً فيهم، فإذا دَرَسَتْ آثارُ الرُّسُلِ من الأرض وانمحَتْ بالكليَّةِ خَرَّب الله العالمَ العلويَّ والسفليَّ وأقام القيامة)[1].

وقد أفرد الإمام البخاري (٢٥٦هـ) في صحيحه كتابًا للعلم، وعقد فيه بابًا ترجمه بـ: (باب رفع العلم وظهور الجهل)، ومعلومٌ ما للبخاري من عظيم الفقه في وَضْعِ كتابِه وصُنْعِ تراجِمِه وانتقاءِ ما يورده تحت كل باب من أبوابه، وقد كان من بديع ما صنعه - وما أجلَّ صنائعَه! - أنْ صدَّرَ هذا الباب بقول ربيعة الرَّأي (١٣٦هـ): (لا ينبغي لأحدٍ عندَه شيءٌ من العلم أن يُضيِّعَ نفسَه).

قد كنتُ على علمٍ بمقالة ربيعة، لكنَّ جلالةً أخذتْ بتلابيب قلبي لما رأيتُ موقعَها من صحيح البخاري، هي رسالةٌ منه لكلِّ طالبِ علمٍ أن كنْ حافظًا للعلم بطلبك، وضامنًا لبقائه باجتهادك، فلا تضيِّعْ نفسَك، فإنَّ في تضيعها تضييعًا للناس، بل تضييعًا للدُّنيا بأسرها .. فاللَّهُمَّ لا تَعُقْنا عن العلم بعائق، ولا تَـمْنَعْنا عنه بمانع.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩: ١٠١).

وبعدُ، فهذا هو سِفر الارتياض، ونجازُه أن يعلم طالب العلم أنَّ مبتدأ الأمر ومنتهاه: توفيقُ الله تعالى، فكلُّ ما مضى ذكرُه من آلات العلم وصناعاته ورياضاته إنما هي محضُ أسباب، إذا جلَّلَها توفيقُ الله تعالى حَيَتْ، وإذا وُكِلَ فيها الطالبُ إلى نفسه خَوَتْ .. فلا الظروفُ المحيطةُ بالطالب من اختلائه بالعلم وانصراف الصَّوارف عنه وتهيُّؤِ الأسباب المعينة له على التحصيل، ولا مقوماته الذاتية من ذكاء وحفظ وغيرها = ليس شيءٌ من ذلك بنافعِه إذا تخلفت عنه الرِّعاية الإلهية والمعونة الربَّانية.

جهر بذلك نوحٌ ﷺ لقومه فقال: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]. وعلَّمه الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٤٩].

وهكذا فليكن وارثُ الأنبياء، معتمِدًا في تحصيله العلمي على الله وحدَه، متخلِّصًا من حَوْلِه وطَوْلِه وقُوَّتِه، إذْ لا حولَ له ولا طولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله.

إذا لم يكن عــونٌ مــن الله للفتى
فــأوَّلُ مــا يجني عليه اجتهادُه

ضُحَى يوم الأبعاء ٨/ ٥/ ١٤٣٧هـ
في مجلة البيان العامرة
«الرياض»

الجرائد

- جريدة الأعلام.
- جريدة المصادر.

جريدة الأعلام

■ الصحابة:

■ سائر الأعلام:

جريدة المصادر

١. أباطيل وأسمار، محمود شاكر، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة (١٤٢٦هـ).

٢. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المنهاج، الطبعة الأولى (١٤٣٢هـ).

٣. أخبار ابن وهب وفضائله، ابن بشكوال، تحقيق قاسم علي سعد، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى (١٤٢٩هـ).

٤. أخبار أبي حنيفة وصاحبيه، الصيمري، عالم الكتب، الطبعة الثانية (١٤٠٥هـ).

٥. الاختيار لتعليل المختار، الموصلي، دار البشائر «دمشق» (١٩٩٦م).

٦. أخلاق الوزيرين، أبو حيان التوحيدي، محمد بن تاويت الطنجي، دار صادر (١٩٩٢م).

٧. الأخلاق والسير، ابن حزم، تحقيق إيفا رياض، دار ابن حزم، الطبعة الثالثة (١٤٣٠هـ).

٨. آداب الشافعي ومناقبه، ابن أبي حاتم، تحقيق عبدالغني عبدالخالق، مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة (١٤٣٥هـ).

٩. أدب الدين والدنيا، الماوردي، دار المنهاج، الطبعة الأولى (١٤٣٤هـ).

١٠. الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع، دار بيروت للطباعة والنشر.

١١. أدب الطلب ومنتهى الأرب، الشوكاني، تعليق محمد صبحي حلاق، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ).

١٢. إرشاد اللبيب إلى مقاصد حديث الحبيب، ابن غازي، تحقيق عبدالله التمسماني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية «المغرب» (١٤٠٩هـ).

١٣. أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، المقري التلمساني، تحقيق مصطفى السقا - إبراهيم الأبياري - عبدالحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٣٥٩هـ).

١٤. الاستقامة، ابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، توزيع مكتبة السنة، الطبعة الثانية (١٤٠٩هـ).

١٥. أعيان العصر وأعوان النصر، الصفدي، حققه جماعة من الباحثين، دار الفكر «دمشق»، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ).

١٦. آفة أصحاب الحديث والرد على عبدالمغيث، ابن الجوزي، تحقيق فريق من الباحثين، دار الألوكة للنشر، الطبعة الأولى (١٤٣٦هـ).

١٧. الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد الغزالي، عناية أنس الشرفاوي، دار المنهاج، الطبعة الثانية (١٤٣٣هـ).

١٨. اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، تحقيق د. ناصر العقل، دار إشبيليا، الطبعة الثانية (١٤١٩هـ).

١٩. الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، صححه أحمد أمين - أحمد الزين، مكتبة الحياة.

٢٠. إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب والوثائق القومية، الطبعة الرابعة (١٤٣٤هـ).

٢١. الانتصار لسيبويه على المبرد، ابن ولاد، تحقيق د. زهير عبدالمحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (١٤١٦هـ).

٢٢. بحوث وتحقيقات، عبدالعزيز الميمني، أعدها للنشر محمد عزير شمس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى (١٩٩٥م).

٢٣. بحوث ودراسات في الأدب والتاريخ، د. إحسان عباس، دار الغرب، الطبعة الثانية (٢٠١٢م).

٢٤. البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق د. عبدالله التركي، دار عالم الكتب، الطبعة الثانية (١٤٢٤هـ).

٢٥. بدائع الفوائد، ابن القيم، تحقيق علي العمران، دار عالم الفوائد، الطبعة الثالثة (١٤٣٣هـ).

٢٦. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، الشوكاني، تحقيق محمد حسن حلاق، دار ابن كثير، الطبعة الثانية (١٤٢٩هـ).

٢٧. البرهان في أصول الفقه، الجويني، تحقيق د. عبدالعظيم الديب، الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ).

٢٨. البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي، تحقيق د. وداد القاضي، دار صادر، الطبعة الخامسة (١٤٣١هـ).

٢٩. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، الطبعة الثانية (١٣٩٩هـ).

٣٠. بين الكتب والناس، العقاد، دار المعارف، الطبعة الرابعة (١٩٨٥م).

٣١. تاريخ أبي زرعة الدمشقي، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني، مجمع اللغة العربية بدمشق.

٣٢. تاريخ الإسلام، الذهبي، تحقيق د. بشار عواد، دار الغرب، الطبعة الثانية (٢٠١١م).

٣٣. تاريخ مدينة السلام، الخطيب البغدادي، تحقيق د. بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة (١٤٣٣هـ).

٣٤. تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق عمر العمروي، دار الفكر (١٤١٥هـ).

٣٥. تجديد المنهج في تقويم التراث، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة (٢٠٠٧هـ).

٣٦. تذكرة السامع والمتكلم، ابن جماعة، عناية محمد بن مهدي العجمي، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الثالثة (١٤٣٣هـ).

٣٧. ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض، تحقيق جماعة من الباحثين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية «المغرب»، الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ).

٣٨. ترشيح التوشيح، تاج الدين السبكي، مخطوط مرفوع على الشبكة العنكبوتية:

(http//:www.al-mostafa.info/data/arabic/depot/gap.php?file=m.013581pdf).

٣٩. تعليم المتعلم في طريق التعلم، الزرنوجي، دار ابن كثير، الطبعة الثالثة (١٤٣٥هـ).

٤٠. التفسير اللغوي للقرآن الكريم، د. مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية (١٤٢٧هـ).

٤١. تنبيه الألباب على فضائل الإعـراب، أبو بكر الشنتريني، تحقيق د. عبدالفتاح الحموز، دار عمار، الطبعة الأولى (١٤١٦هـ).

٤٢. تهذيب الأخلاق، مسكويه، تصوير دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ).

٤٣. تهذيب اللغة، الأزهـري، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الصادق للطباعة والنشر.

٤٤. الجاسوس على القاموس، الشدياق، مطبعة الجوائب (١٢٩٩هـ).

٤٥. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الطبعة الحادية عشرة (١٤٣٥هـ).

٤٦. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، تحقيق د. محمد عجاج الخطيب، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة (١٤١٦هـ).

٤٧. جدد حياتك، محمد الغزالي، دار القلم، الطبعة العشرون (١٤٢٨هـ).

٤٨. الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولى.

٤٩. الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، السخاوي، تحقيق إبراهيم باجس، دار ابن حزم، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ).

٥٠. حبر على ورق، مارون عبود، منشورات دار الثاقفة العربية (١٩٥٧م).

٥١. الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، أبو هلال العسكري، تحقيق أبي عبيد محمد صالح فرحات، دار الفاروق، الطبعة الأولى (١٤٣١هـ).

٥٢. حلية الأولياء، أبو نعيم، دار الفكر (١٤١٦هـ).

٥٣. حوارات المسيري، تحرير سوزان حرفي، دار الفكر، الطبعة الثانية (١٤٣١هـ).

٥٤. الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل (١٤١٦هـ).

٥٥. خزانة الأدب، عبدالقاهر البغدادي، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة (١٤١٨هـ).

٥٦. درء القول القبيح بالتحسين والتقبيح، الطوفي، تحقيق د. أيمن شحادة، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ).

٥٧. دلائل الإعجاز، الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، مكتبة المعارف - مكتبة الخانجي، الطبعة الخامسة (١٤٢٤هـ).

٥٨. الدين، د. محمد عبدالله دراز، دار القلم «الكويت».

٥٩. الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، تحقيق أبو اليزيد العَجَمي، دار السلام، الطبعة الثانية (١٤٣١هـ).

٦٠. ذم الهوى، ابن الجوزي، تحقيق أيمن البحيري، مؤسسة الكتب الثقافية.

٦١. ذيل الدرر الكامنة، ابن حجر، تحقيق د. عدنان درويش، معهد المخطوطات العربية (١٤١٢هـ).

٦٢. الذيل على طبقات الحنابلة، ابن رجب، تحقيق د. عبدالرحمن العثيمين، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ).

٦٣. رحلتي الفكرية، عبدالوهاب المسيري، دار الشروق، الطبعة الخامسة (٢٠١٣هـ).

٦٤. الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز «ملحقة بـ: دلائل الإعجاز»، الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، مكتبة المعارف - مكتبة الخانجي، الطبعة الخامسة (١٤٢٤هـ).

٦٥. رسائل ابن حزم، تحقيق د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية (٢٠٠٧م).

٦٦. رسائل الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى (١٣٩٩هـ).

٦٧. رسائل الرافعي، جمع وترتيب محمود أبو ريَّة، دار إحياء الكتب العربية (١٣٦٩هـ).

٦٨. روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام، ابن الأزرق الغرناطي، تحقيق سعيدة العلمي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية «طرابلس»، الطبعة الأولى (١٤٢٩هـ).

٦٩. روضة المحبِّين، ابن القيم، تحقيق محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى (١٤٣١هـ).

٧٠. سر الليال في القلب والإبدال، الشدياق، تحقيق د. محمد الهادي بن الطاهر المطوي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى (١٤٢٧هـ).

٧١. السنة، المروزي، تحقيق د. عبدالله البصيري، دار العاصمة، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ).

٧٢. سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق جماعة من الباحثين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية (١٤٣٥هـ).

٧٣. سيرة ذاتية، جون ستيوارت مل، ترجمة الحارث النبهان، دار التنوير، الطبعة الأولى (٢٠١٥م).

٧٤. شرح مختصر الروضة، الطوفي، تحقيق د. عبدالله التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة (١٤٣٤هـ).

٧٥. شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل، الغزالي، تحقيق د. حمد الكبيسي، رئاسة ديوان الأوقاف بالعراق.

٧٦. الصاحبي، ابن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية.

٧٧. صناعة الكُتَّاب، أبو جعفر النحاس، تحقيق د. بدر أحمد ضيف، دار العلوم العربية، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ).

٧٨. صيد الخاطر، ابن الجوزي، عناية حسن السماحي سويدان، دار القلم، الطبعة الثانية (١٤٣٠هـ)

٧٩. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، السخاوي، دار الجيل (تصوير).

٨٠. الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، الأدفوي، تحقيق سعد محمد حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية (٢٠٠٠م).

٨١. طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى، تحقيق د. عبدالرحمن العثيمين، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ).

٨٢. طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، تحقيق د. محمود الطناحي- د. عبدالفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى (١٣٨٣هـ)

٨٣. طبقات الفقهاء، الشيرازي، تصحيح ومراجعة خليل الميس، دار القلم «بيروت».

٨٤. طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر الزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الثانية (١٩٨٤هـ).

٨٥. طبقات علماء الحديث، ابن عبدالهادي، تحقيق أكرم البلوشي - إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية (١٤٣٥هـ).

٨٦. طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلَّام الجمحي، تحقيق محمود شاكر، دار المدني.

٨٧. ظل النديم، وجدان العلي، مركز تفكر للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى (١٤٣٦هـ).

٨٨. عبدالرحمن بدوي فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام، د. سعيد اللاوندي، مركز الحضار العربية، الطبعة الأولى (٢٠٠١م).

٨٩. العثمانية، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل، الطبعة الأولى.

٩٠. العقود الدرية، ابن عبد الهادي، تحقيق علي العمران، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى (١٤٣٢هـ).

٩١. العلم، ابن عثيمين، إعداد فهد بن ناصر السليمان، دار الثريا للنشر، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ).

٩٢. غبار السنين، عمر فروخ، دار الأندلس، الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ).

٩٣. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، المطبعة السلفية، الطبعة الأولى.

٩٤. الفروق، القرافي، تحقيق عمر القيام، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية (١٤٢٩هـ).

٩٥. فضائل أبي حنيفة وأخباره ومناقبه، ابن أبي العوَّام، عناية لطيف الرحمن البهرائجي القاسمي، المكتبة الإمدادية، الطبعة الأولى (١٤٣١هـ).

٩٦. في اللغة والأدب، د. محمود الطناحي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى (٢٠٠٢م).

٩٧. فيض الخاطر، أحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٤٢م).

٩٨. فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، دار المعرفة للطباعة والنشر «بيروت»، الطبعة الثانية (١٣٩١هـ)

٩٩. قلق المعرفة، د. سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى (٢٠١٠م).

١٠٠. الكامل، المبرد، تحقيق د. محمد الدالي، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الثانية (١٤٣٤هـ).

١٠١. الكبائر وتبيين المحارم، الذهبي، تحقيق عبده علي كوشك، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى (١٤٣٤هـ).

١٠٢. كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب، ابن الأثير، تحقيق د. النبوي عبدالواحد شعلان، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ).

١٠٣. كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، أحمد بابا التنبكتي، تحقيق أ. محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية «المغرب» (١٤٢١هـ).

١٠٤. الماجريات، إبراهيم السكران، دار الحضارة، الطبعة الأولى (١٤٣٦هـ).

١٠٥. ماذا علمتني الحياة، جلال أمين، دار الشروق، الطبعة السادسة (٢٠٠٩م).

١٠٦. مجالس العلماء، الزجاجي، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ).

١٠٧. مجموع الرسائل الحديثية، المعلمي، تحقيق علي العمران، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى (١٤٣٤هـ).

١٠٨. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم.

١٠٩. مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، تحقيق طلعت الحلواني، نشر الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية (١٤٢٥هـ).

١١٠. المحرر الوجيز، ابن عطية، تحقيق جماعة من الباحثين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (قطر)، الطبعة الثانية (١٤٢٨هـ).

١١١. المدخل إلى السنن الكبرى، البيهقي، تحقيق أ. د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة أضواء السلف، الطبعة الثانية (١٤٢٠هـ).

١١٢. مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر.

١١٣. المستصفى، الغزالي، تحقيق د. محمد الأشقر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (١٤٣١هـ).

١١٤. المسند، الدارمي، دار التأصيل، الطبعة الأولى (١٤٣٦هـ).

١١٥. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب، الطبعة الأولى (١٩٩٣م).

١١٦. المعجم المختص، الذهبي، تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ).

١١٧. المغني، ابن قدامة، تحقيق د. عبدالله التركي - د. عبدالفتاح الحلو، دار عالم الكتب، الطبعة السادسة (١٤٢٨هـ).

١١٨. مفتاح دار السعادة، ابن القيم، تحقيق عبدالرحمن بن حسن بن قائد، دار عالم الفوائد، الطبعة الثانية (١٤٣٦هـ).

١١٩. مقالات الطناحي، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الثانية (١٤٣٤هـ).

١٢٠. المقفى الكبير، المقريزي، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية (١٤٢٧هـ).

١٢١. مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة، الموفق بن أحمد المكي، مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند (١٣٢١هـ).

١٢٢. منجد المقرئين ومرشد الطالبين، ابن الجزري، تحقيق علي العمران، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ).

١٢٣. منهاج المتعلم، الغزالي، حققه أحمد عناية، دار التقوى، الطبعة الأولى (١٤٣١هـ)[1].

١٢٤. منهج الخلاف والنقد الفقهي عند الإمام المازري، د. عبد الحميد عشاق، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث «دبي»، الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ).

(١) هذا الكتابُ منسوبٌ للغزالي، وقد جعله د. عبدالرحمن بدوي في كتابه (مؤلفات الغزالي: ٤١٩) من الكتب مجهولة الهوية.

١٢٥. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، أبو القاسم الآمدي، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، الطبعة الخامسة (٢٠٠٦هـ).

١٢٦. الموافقات، الشاطبي، تحقيق مشهور آل سلمان، دار ابن القيم - دار ابن عفان، الطبعة الثانية (١٤٢٧هـ).

١٢٧. الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم، الطناحي، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ).

١٢٨. موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمعها علي الرضا الحسيني، دار النوادر، الطبعة الأولى (١٤٣١هـ).

١٢٩. ميزان العمل، الغزالي، تحقيق د. سليمان دنيا، دار المعارف، الطبعة الثانية.

١٣٠. ميزان العمل، الغزالي، تحقيق د. علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى (١٩٩٥م).

١٣١. الهوامل والشوامل، مسكويه - أبو حيان التوحيدي، نشره أحمد أمين - السيد أحمد صقر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٣٧٠هـ).

١٣٢. الوافي بالوفيات، الصفدي، مجموعة محققين، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، توزيع مؤسسة الريان (٢٠٠٨م).

١٣٣. الوجه الجميل في علم الخليل، شعبان الآثاري، تحقيق هلال ناجي، عالم الكتب، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ).

١٣٤. وحي القلم، الرافعي، تحقيق محمد علي كاتبي، دار القلم، الطبعة الأولى (١٤٣٠هـ).



أرتياض العلوم

لا يفتقرُ كثيرٌ من طلبة العلم إلى برنامج يُنظِّمُ مسيرَهم، أو خطَّة تُدرِّجُ تلقِّيَهم، غير أن الصناعة العلمية ليست متعلقةً بذلك فحسب، بل هي مرتهَنَةٌ قبل ذلك بسداد بصيرة طالب العلم وارتياض ملكاته بالعلوم والمعارف، فإنَّ سدادَ البصيرة وارتياضَ الملكات ذريعةٌ إلى تحقيق العلم وحُسنِ التصرُّف فيه .. وحُسنُ التَّصرُّفِ في العلم هو إكسيرُ التحقيق وجوهرُ الصناعة العلمية.

من هنا جاء هذا الكتاب مجاوِزًا النَّظرَ في رسوم الخطط ومباني البرامج إلى تصفُّحِ جملةٍ من علائق الوعي التحصيلي، فإنَّ العلمَ بتنوُّعِ أبحاثِه وتشعُّبِ مسائلِه يحتاج من طالبه ليرتاض به أن يكونَ واعيًا في تحصيله قبل أن يخطوَ بأقدام مشاريعه بعيدًا على غير هُدًى من الرأي وبيِّنةٍ من الأمر.



مكتب مجلة البيان
ص.ب ٢٦٩٧٠ - الرياض - ١١٤٩٦
www.albayan.co.uk
sales@albayan.co.uk
هاتف : ٠٠٩٦٦١١٤٥٤٦٨٦٨



ردمك :٦-٠٢-٨١٩١-٦٠٣-٩٧٨